فهرس التاريخ وحركة التقدم البشريونظرة الاسلام

كلمة المؤسسة

مقدّمة

التاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الاسلام

الامام في مواجهة التاريخ

التاريخ عند الإمام (ع) في المجال الوعظي، وفي المجال السّياسي الفكري

التّاريخ في مجال الوعظ

التّاريخ في مجال السّياسة والفكر

التّاريخ في مجال الفكر

١ - النّبوّات

٢ - وعي التّاريخ

٣ - التّاريخ يعيد نفسه

٤ - مصارع القرون عواملانحطاطالأمم

٥ - المعروف والمنكر والأكثريةالصّامتة

التّاريخ في مجال السّياسة

١ - حركة التاريخ في مظهر التّفاعلالإجتماعي الثّوري

٢ - الفتنة

٣ - إنتصار حركة الرّدّة

٤ - المعاناة

٥ - الثّورة

٦ - الأمل

كلمة المؤسسة

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد ..

فإنه إذا كان الهدف من دراسة التاريخ هو مجرد اجترار الأحداث، أو لتكون محض ترف فكري، ونشوة خاوية .. فإن قصارى جهد دراسة كهذه سيكون: هو أن يتمطى الفكر في قيوده وأغلاله - في بسمة حلم عارضة .. ثم لا يلبث أن يعود ليدفن نفسه تحت ركام من الأحلام في مطاوي الفراغ، والخنوع .. ثم النسيان..

وإنما تصبح دراسة التاريخ، وفلسفته، وآثاره، ذات قيمة، وفاعلية، وجدوى.. حينما يراد لها أن تتحول، لتكون عبء مسؤولية، وبداية حركة، ونبضات حياة..

وبديهي.. أنه من أجل أن تكون كذلك .. لا بد من أن تصبح قادرة على أن تعكس الواقع التاريخي، كما هو، ومن دون أي زيادة أو نقصان.. وكذلك من دون أي تزوير أو تحرير..

ومعنى ذلك: هو أن على هذه الدراسة لكي تكون على مستوى من الدقة والأمانة.. أن تتحرى أسلوب المحاكمة النزيهة والموضوعية للأحداث، والوقائع، أو فقل لما يدعى أنه منها .. وأن تعتمد الأصولية العلمية الصحيحة في بحوثها، وكذلك في مجال التحليل، والإستنتاج، والتقييم..

وإذا كنا نعلم: أن أوثق من يمكن الإعتماد عليهم في إعطاء صورة واقعية وواضحة عن أي حدث كان، وعن علله وأسبابه.. هم أولئك الذين عاصروه وعايشوه، وعاينوه عن قرب ..

فإننا نجد: أنه حتى هؤلاء.. بل وحتى كثير من الذين شاركوا في صنع ذلك الحدث لا يستطيعون: أن يقدموا صورة واضحة المعالم عن ذلك الحديث المفترض، ولا عن علله وأسبابه، وآثاره ونتائجه.. بل قد نجدهم يعطون تفسيرات مختلفة.. بل وحتى متباينة أحياناً.. رغم افتراضنا مسبقاً: أنهم جميعاً صادقون في رغبتهم

بإعطاء الحقيقة، كل الحقيقة في هذا المجال..

وما ذلك.. إلا لأن الناس يختلفون في مستويات إدراكهم ووعيهم، وفي نسبة اطلاعهم على جزئيات وظروف ذلك الحدث. الأمر الذي يؤثر على قدرتهم على فهمه واستيعابه أحياناً، ثم على ربطه بغيره، فضلاً عن ادراك علله وأسبابه.. ثم آثاره ونتائجه على النحو الأفضل والأتم..

كل ذلك.. فيما لو كان الحدث عادياً، لا يوجد من يهتم بالتلاعب فيه، أو بالتعتيم عليه.. فكيف إذن تكون الحال بالنسبة لتلك الأحداث، التي تشارك في صنعها أيد خفية، وتعمل على تزييف التعتيم أو على كثير من الحقائق.. ثم على التحوير والتزوير فيها، وفي خصوصياتها وملامحها..

وإذا كانت الأحداث التي دونت ووصلت إلينا أكثرها أو كثير منها ولا سيما أكثرها حساسية، وأعظمها أهمية هي من هذا النوع بالذات.. فإننا ندرك: مدى حاجتنا إلى الناقل الخبير، والناقد البصير في هذا المجال.. كما أننا ندرك مدى أهمية وتأثير الوسائل التي لا بد لنا من الإستفادة منها في الوصول إلى الحقائق، التي أُريد لسبب أو لآخر إحاطتها بستار من الكتمان، أو بقاؤها رهن الإبهام والغموض..

وبعد كل ما تقدم.. فإننا إذا كنا نعلم: أننا كلما قربنا من مصدر الوحي والرسالة، والإمامة والعصمة، فإننا نكون أبعد عن المغالاة والتجني، وعن الوقوع فريسة للخداع والتضليل.. لأن هذا هو المصدر الوحيد، الذي لا يعتريه خلل في الرؤية للواقع الموضوعي، ولا نقص في إدراكاته لحقيقة ما يجري، ولا مجال للحيلولة بينه وبين الواقع، واطلاعه عليه كما هو، ومن دون أي تحوير أو تزوير..

- إذا كنا نعلم ذلك - فإن النّهل من هذا النمير العذب، والاستقاء من هذا المنبع الصافي، والإعتماد عليه في التعرف على الأحداث والوقائع، وكل ما يرتبط بها أو يعود إليها، يصبح أكثر أهميةً وخطراً، وأعظم بركةً وأثراً..

حتى إذا تعذر علينا التعرف على نفس الحدث عن هذا الطريق.. فلا أقل من امتلاك الرؤية، ثم اعتماد المعايير والأسس، وبعد ذلك الوسائل والأساليب الصحيحة

التي يرى أهل بيت العصمة، والإمامة، ومعدن الوحي والرسالة، أنها تنفع في

الوصول إلى ذلك الهدف المنشود، في مجال التقييم الصحيح والسليم للأحداث، ومحاكمتها، ثم قبولها أو رفضها، إذا اقتضى الأمر أياً من الرفض، أو القبول..

أو على الأقل.. تقل معها احتمالات الخطأ والزيغ، والوقوع في متاهات التفسيرات، والتكهنات الخاطئة والناقصة، التي يتعرض لها الباحثون في التراث بصورة عامة..

ومؤسسة نهج البلاغة.. قد وجدت في هذا الكتاب: «حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام» الذي هو من تأليف سماحة العلامة الجليل البحاثة الشيخ محمد مهدي شمس الدين خطوة واسعة وموفقة في هذا الإتجاه..

ولأجل ذلك.. فقد بادرت لتقديمه إلى القراء الكرام، على أمل أن يجدوا فيه ما ينقع الغلة، ويبل الصدى..

ونسأل الله أن ينفع به.. ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.. وهو الموفق والمسدد، وهو المعين والهادي..

مؤسسة نهج البلاغة

مقدّمة

التاريخ هو حركةُ الشيء في محيطه خلال الزمان، وبعبارةٍ أخرى: التاريـخ هو عمليةُ التحول والتغير والإنتقال (الصبرورة) من حالةٍ الى حالة، الّتي تعـتري الشيء أو ينجزها الشّيء من خلال علاقته بعناصر محيطة عبر الزمان.

وقد كان الشّيء في النّظرة السائدة قديماً يعني الإنسان فقط، ويعـني - بصـورة محددة - الفعاليـات الإنسانيـة: المجتمـع والمؤسـسات السياسـية والعسكريـة والإجتماعية والثقافية.

لقد كان التّاريخ علم حركة الإنسان من خلال محيطه في الزمان، ولكـن العصـر الحديث شهد تطوراً في مدلول هذا المصطلح فاتّسع ليشمل كلّ شيء في الطّبيعـة والحضارة: الأرض، والمعادن، والنّباتات، والحيوان، والأفكار، والعلوم.. وغيـر ذلك إلى جانب الفعاليات الإنسانية، وغدا في وسع المؤرخ ذي النظرة الشاملـة أن يدعي أن التّاريخ كالفلسفة ذو موضوع شامل لكلّ ما يمكن أن يدخل فـي الوعـي البشري.

ولعلّ بعض المؤرخين المسلمين العظام كانوا قد انتهوا في تفكيرهم إلى حافة هـذه النّظرة الّتي تُعطي التّاريخ مفهوماً شاملاً يتجاوز الفعالياتِ الانسانية، فنلاحظ أنهـم أدخلوا في كتاباتهم التّاريخية معلوماتٍ جغرافية أو فلسفية، والمسعودي في كتابـه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» مثال بارز على ذلك.

ولكن هذه النّظرة الشّمولية لا تعنينا هنا. إن عِنايتنا موجهة نحو تـاريخ الإنسـان. وربما أمكن رد كلّ فروع التّاريخ الأخرى - في النّظرة الشّمولية الحديثة - إلـى تاريخ الإنسان، من حيث أنها تؤرخ لبعض نشاطاتـه (تـاريخ العلـوم، الفنـون والآداب، الفلسفة) أو تؤرخ لبيئته (النّبات، الحيوان، طبقات الأرض).

١٤

وإذن، فالتّاريخ هو حركة الإنسان في محيطه خلال الزمان، وقد يعـالج التّاريـخ حركة الإنسان في مجتمع معين أو في إطار ثقافة معينة، وقد يتسع ليعالج حركـة الإنسان على صعيدٍ عالمي.

ولا شك في أن فكرة «العالمية» لدى المؤرخين المسلمين قد جاءتهم من القرآن الكريم حيث صور حركة الإنسانية من خلال عرضه لحركة النّبوات في الأمم والشعوب، كما أنّهم استفادوا في تعزيز نظرتهم العالمية من «علم الأنساب» الّذي تحدر إليهم من التّقليد الجاهلي القديم، ثم دخل - كغيره من المعارف العربية والإسلامية - عصر التّدوين. وليس المهم هنا جانب الصدق التّاريخي في علم الأنساب، وهو أمر مشكوك فيه، وإنّما المهم ما تُعطيه المعرفة النّسبية من إدراكٍ لترابط الشّعوب والقبائل وعلاقاتها الداخلية، هذا الإدراك الذي يتجاوز بالمؤرخ حدود الجغرافيا والقبلية أو القومية ليفتح بصيرته على مدى أرحب.

على هذا المدى الرحب كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يتعامل مع التّاريخ، لا كمؤرخ وإنّما باعتبارهِ رجل عقيدة ورسالة، ورجل دولة وحاكماً، ولم يكن يستخدم التّاريخ كمادة وعظية فقط وإنّما كان يستهدف أيضاً منه النّقد السياسي والتّربية السياسية لمجتمعه والتوجيه الحضاري لهذا المجتمع.

ونحاول في هذا الكتاب أن نجلو نظرةَ الإمامِ علي (ع) إلى حركة التاريخ، ونكتشف أساليب تعامله مع التّاريخ في حياته العامة الفكرية والسياسية.

والمصدر الأساس لهذه الدراسات هو كتاب نهج البلاغة، وربما استعنا بنصوص أخرى لم يضمنها الشّريفُ الرضي في كتاب نهج البلاغة للتّعرفِ على مزيد من التّفاصيل بالنّسبة إلى نظرة الإمام التّاريخية أو لإكمال نصوص أوردها الشّريف الرضي في نهج البلاغة مبتورة.

ونحن نرى أن كتاب نهج البلاغة وثيقة عظيمة القيمة في الحضارة الإسلامية من النّاحية الفكرية والسياسية. ولا ينقضي أسفنا على أن الشّريف الرضي رحِمه اللّه قد جمع النّصوص لغاية جمالية تحكمت في اختياره فجعلته يؤثِر النّصوص الممتازة من النّواحي البلاغية الفنية ويهمل ما عداها وقد يجزئ - لهذا السبب - من النّص بعضه الّذي تتوفّر فيه هذه الخاصة ويهمل سائره، وهذا ما دعاه إلى أن يعطي كتابه اسماً

يلخص الغاية من جمعه له والمنهاج الّذي اتّبعه في عملية الجمع فضاع على الحضارة الإسلامية بذلك علم كثير وفكر عظيم.

ولعلّ الله تعالى يقيض من العلماء والباحثين من يتقصى في كتـب السـيرة والتاريخ والحديث والأدب جميع ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ويخضعه لدراسة نقدية صارمة تميز الأصيل فيه من المنحول الموضوع ويصنف ما يثبـت للنّقد منه مع ما ورد في نهج البلاغة للشّريف الرضي رحِمه الله تعـالى تصنيفـاً علمياً حسب موضوعات النّصوص (في السياسة، والفكر، والـوعظ، والحـرب، والفقه، والإلهيات وسائر العقائد... وغير ذلك من الموضوعات) فذلك يجعل نهـج البلاغة ومستدركّه مصدراً ميسراً للدراسات العلمية عظيم القيمة جليل الفائدة.

وقد قام المرحوم الشيخ هادي كاشف الغطاء بتأليف كتاب (مستدرك نهج البلاغـة) ورتّبه على نحو ما رتّب الشّريف الرضي كتاب نهج البلاغة (الخطب، والكتـب، والحكم)، ولكن هذا العمل دون ما نطمح إليه لسببين: الأول - ما نقدر من أن هذا الكتاب لم يستوعب كلّ ما أهمله الشّريف أو شذّ عنه، ولذا فإن الحاجة إلى عمـل أكثر شمولاً لا تزال قائمة. الثّاني - ما يبدو لنا من أن كاشف الغطاء أثبـت فـي كتابه كلّ ما وجده منسوباً إلى الإمام ولم يخضع النّصوص للنّقد، وهذا مـا جعلـه يثبت في كتابه نصوصاً منسوبة إلى الإمام نقدر أنها موضوعة.

وهنا نجد من المناسب الإشارة إلى أن اللّغط الّذي أثير حول صحة نسبة ما جمعه السيد الشّريف في نهج البلاغة إلى الإمام (ع) بوجه عام منذ ابن خلدون إلى زكي مبارك وأحمد أمين، من التّشكيك في صحة النّسبة أو الجزم بعدم صحة النّسبـة - هذا اللّغط الّذي أثاره التّعصب في بعض الأحيان والجهل في أحيان كثيرة قد انتهى أو يجب أن ينتهي إلى التّسليم بصحة النّسبة التّاريخية لِما ورد في نهـج البلاغـة بوجه عام إلى الإمام عليه السلام، فإن الدراسات والأبحاث التوثيقية الّـتي عقـدت حول نهج البلاغة منذ شارح نهج البلاغة عز الدين ابن أبي الحديد (٥٨٦ - ٦٥٥ هجري) إلى أيامنا قدمت أجوبة مقنعة على جميع التّساؤلات الّتي أثيرت وأغلقـت منافذ الشّك في صحة نسبة ما اشتمل عليه نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بالقدر الّذي يكفي لتصحيح النّسبة التّاريخية لأي نص من نصوص الفكر الإسلامي.

وهذه الأبحاث والدراسات على قسمين:

منها ما اتّبع منهاج النّقد الداخلي حيث أخضعت النّصوص لدراسة تكوين الجمل فيها والعلاقات بين جملة وأخرى، وأنواع المفردات والمجازات وما إلى ذلك من مكونات النّص. وهذا ما صنعه ابن أبي الحديد في عدة مواضع من شرحه، وبعض من تأخّر عنه من الشّراح والباحثين. وهذا النّوع من الأبحاث قليل ومقصور على بعض نصوص النّهج، ولذا فإن الحاجة ماسة إلى دراسة شاملة لجميع نصوص نهج البلاغة تتبع هذا المنهاج.

ومنها ما اتّبع منهاج النّقد الخارجي حيث بحث عن مصادر متقدمة في الزمن على الشّريف الرضي تضمنت نصوصاً من نهج البلاغة.

وقد كانت نتائج هذه الدراسات وتلك في مصلحة صحة نسبة نهج البلاغة بوجه عام إلى الامام عليه السلام.

ولعلّ آخر دراسة توثيقية هامة وشاملة اتّبع فيها منهاج النّقد الخارجي هي دراسة الأستاذ السيد عبد الزهراء الخطيب الّتي نشرها في كتابهِ (مصادر نهج البلاغة وأسانيده - ٤ مجلدات / دار الأعلمي للمطبوعات - بيروت).

ومن المؤكّد أن هذه الدراسة لن تكون الأخيرة، فإن دراسات أخرى ستضاف إلى ما تم إنجازه في هذا الحقل كلّما تنامت حركة نشر كتب الفكر الإسلامي الّتي لا تزال مخطوطة وموزعة في مكتبات العالم.

*

بقي علي أن أشير الى أن هذه الدراسة عن حركة التّاريخ عند الإمام علي (ع) حلقة في سلسلة من الدراسات في نهج البلاغة سبقها كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) وقد اشتمل على أربع دراسات هي:

١ - المجتمع والطبقات الإجتماعية.

٢ - الحكم والحاكم.

٣ - المغيبات.

٤ - الوعظ، وأضيفت إليها في الطّبعة الثّالثة دراسة خامسة بعنوان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والأكثرية الصامتة.

*

دراسات في نهج البلاغة: الطّبعة الأولى - النجف العراق - ١٩٥٦ - الطّبعة

الثّانية - بيروت - دار الزهراء ١٣٩٢ هجري = ١٩٧٢ م الطّبعة الثّالثـة. بيروت.

١٧

لقد انتفعت بكتاب (الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه) لمؤلفه: السيد جواد المصطفوي الخراساني. وهو عمل جليل القدر، عظيم الفائدة للبـاحثين. نأمـل أن يطوره مؤلفه بحيث يكون أكثر شمولاً للشروح في طبعاتهـا الجديـدة المتداولـة، وللنّصوص الواردة في مستدركات نهج البلاغة.

والحمد للّه رب العالمين.

محمد مهدي شمس الدين

١٩

٢١

التّاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الإسلام

التّاريخ حركة الكائن في الزمان والمكان.

والكائن جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان.

وتاريخ كلّ من الجماد والنّبات والحيوان يسير وفق قوانين ثابتة، وموضوعة خارج هذه العوالم.

إن الجماد لم يضع قوانين حركته، ومن ثم فإنّه لم يضع قوانين تاريخه، وكذلك النّبات والحيوان.

إن هذه العوالم الثّلاثة خاضعة في جميع حالات وجودها لمبدأ الضرورة، ومن ثم فتاريخها من جميع وجوهه خاضع لمبدأ الضرورة، إنّه حصيلة حركتها الضرورية في الزمان والمكان، ومن ثم ف(الخطأ) غير وارد في تاريخ هذه العوالم، إنّها لا تصنع تاريخها ولذا فهي لا تقع في أخطاء العمل.

أما تاريخ الإنسان فشيء آخر.

إن الإنسان يتعامل مع الكون على أساس مبدأ الإختيار لأنّه كائن حر لا يخضع لمبدأ الضرورة إلا في نطاق العمليات البيولوجية في جسمه، ومن ثم فإنّه يشارك في وضع قوانين حركته في الزمان والمكان، فإن الإنسان يكيف نفسه لتنسجم مع الطّبيعة حين يعجز عن تكيف الطّبيعة لتنسجم معه.

والإنسان يحب ويبغض، ويأمل ويأس، ويتألم ويحلم، والإنسان يخاف...

٢٢

يخاف من المجهول، ويخاف من المستقبل... والإنسان، قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء، يفكّر: يحلّل المواقف والمشكلات الّتي تواجهه، ويركّبها، ويوازن بين احتمالاتها، ويرجح ويختار، ويتحرك وفقاً لاختياره، فهو إذن يستجيب في حركته لعالمه الخارجي ولعالمه الداخلي من موقع الإختيار باعتباره كائناً حراً لا من موقع

الضرورة.

ومن هنا فإن الخطأ في التّحليل والتّركيب والإختيار، والرجوع إلى الـوراء فـي حركته، وما يؤدي إليه ذلك من خيبات الأمل في خططه ومشاريعه - أمور حدثت للإنسان دائماً في حركته التاريخية.

ولذا فإن تاريخ الإنسان كما هو سجل مشرق ومشرف لانتصاراته وإنجازاته فـي الطبيعة والمجتمع هو كذلك سجل كئيب حافل بأخطائه، وانتكاسات حركتـه نحـو المستقبل، وخيبات أمله.

*

ومن أسوأ ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من أخطاء: حسبانه في كثير من الحـالات أنّه كان دائماً على صواب، وأن تاريخه يمثل خطاً صاعداً باستمرار، وأن حركته نحو المستقبل - لذلك - تقدمية دائماً، خيرة دائماً، صائبة دائماً، لا يتخللها خطأ ولا انحراف.

ومثل ذلك في السوء حسبانه أن كلّ ماضيه خطأ وتخلف، ومن ثم فهذا الماضي لا يستحقّ منه الإلتفات والمراجعة، وأنّه اهتدى إلى النّظرة الصائبة في حاضره، وأنه في حركته نحو المستقبل حليف الصواب والتّوفيق باستمرار.

إن هذا الحسبان وذلك يحملان الإنسان على ارتكاب مزيد من الأخطاء، والوقـوع في كثير من المآسي وخيبات الأمل.

ذلك بأن الإنسان حين يخال حركة التّاريخ دائماً على صواب فإنّـه يلغـي جميـع المؤثّرات الإنسانية، ويسلم نفسه لحركة التّاريخ الإنساني كما لو كان هذا التّاريـخ خاضعاً لمنطق الضرورة كتاريخ الجماد والنّبات والحيوان. ومن ثم فإنّه يرتكـب الأخطاء الكبرى وهو يحسب أنّه على صواب، ويصحح أخطاءه بأخطاء أخرى

تسبب للإنسانية مزيداً من التخلف على كلّ صعيد، ومزيداً من المآسـي الفرديـة والجماعية.

وكذلك الحال حين يحكم الإنسان على ماضيه بأنّه مجموعة أخطاء قاد أسلافه إليها الجهلُ وسوء الفهم وسوء التّوجيه، ولذا فلا شيء من هذا الماضي يصلح للحاضر وللمستقبل. وأنّه كان ضالاً فاهتدى، وأنّه امتلك الحقيقة التّاريخية وكانت ضـائعة

منه بسبب هذا الّذي غلّه وشلّ قواه.

إن الإنسان باتخاذه لهذا الموقف يحكم على جميع تجارب الماضي بالفشل والبطلان، وهو حكم لا شك في أنّه جائر عن قصد السبيل، لأن الحقيقة هي أن في تجارب هذا الماضي الكثير الكثير من الصواب الّذي تكبدت الإنسانية أنواعاً شتّى من الآلام والتّضحيات وتحملت كثيراً من المصاعب في سبيل الوصول إليه والإهتداء إلى معالمه.

كِلا هذين الموقفين يؤدي بالإنسان إلى أن ينظر إلى نفسه وعقله في حاضره و مؤسساته السياسية وغيرها وسائر نظمه بثقة مطلقة لا مبرر لها. ولنقل إنّه في هذه الحالة الّتي يرفض فيها جميع الماضي أو في تلك الحالة الّتي يخال فيها حركة التّاريخ دائماً على صواب - ينظر إلى نفسه وموقفه بغرور أجوف ولعل هؤلاء وأولئك ممن عناهم اللّه تعالى بقوله:

«قُلْ هلْ نُنَبئُكُم بِالْأَخْسرِين أَعمالاً. الّذِين ضل سعيهم فِي الْحياةِ الدنْيا وهم يحسبون أَنهم يحسِنُون صنْعاً. أُولئِك الّذِين كفَروا بِآياتِ ربهِم ولِقَائِهِ فَحبطَتْ أَعمالُهم فَلاَ نُقِيم لَهم يوم الْقِيامةِ وزناً. ذَلِك جزاؤُهم جهنم بِما كفَرواْ واتخَذُوا آياتِي ورسلِي هزوا».

إن هذا الغرور الأجوف، وتلك الثّقة المطلقة الّتي لا مبرر لها تؤديان بالإنسان إلى الوقوع في أخطاء كبرى تعرض المجتمعات بل وجانباً كبيراً من الإنسانية لكوارث عظمى ومتنوعة لم يعرف لها التّاريخ مثيلاً.

١ - سورة الكهف (رقم ١٨ مكّية) الآيات: ١٠٣ - ١٠٦. والآيات تومئ إلى النّظرة الّتي تعتبر حركة التّاريخ خاضعة للإعتبارات المادية وحدها، والنّظرة الّتي تقيس التّقدّم البشري بالمقياس المادي وحده.

وهذا ما وقع فيه إنسان الحضارة الحديثة، والويل له مما صنعت يداه في المقبلات من الأيام.

*

وقد ولّدت هاتان النّظرتان المتطرفتان إلى التّاريخ وإلى المستقبل مفهوماً للتّقدم البشري غير متكامل ومِن ثم دافع بالإنسان إلى ارتكاب المزيد من الأخطاء الكبرى في شأن نفسه وفي شأن عالمه.

لقد اعتبر التّقدم في الحضارة الحديثة بالمقياس المادي وحده. فيقاس التّقدم في أي مجتمع وفي ظل أي نظام سياسي بحجم الإنتاج والإستهلاك بالنّسبة إلى أشـياء الحياة المادية: الطّعام، والملابس والمساكن وأدوات الزينة، ووسائل النّقل والطّاقة والطّرق، ووسائل اللّهو ووسائل تيسير الحياة اليومية المنزلية وغيرها، والمصانع والأسلحة وما إلى ذلك من أشياء، يضاف إلى ذلك المؤسسات الحكومية والأهليـة الّتي تنظّم كلّ هذه العمليات..

ولا يقيم هذا المفهوم عن التّقدم البشري وزناً لوضعية الإنسان الأخلاقية وللقيم الّتي ينبغي أن توجه سلوكه مع الطّبيعة المادية، والعالم، والمجتمع والأسرة.

وهذا المفهوم هو الدليل الّذي يوجه أفكار وخطط وعمليات المؤسـسات الوطنيـة والدولية المعنية بقضايا التّنمية، فالوكالات المتخصصة للأمم المتّحدة، والجامعات، ومراكز الأبحاث الّدولية والوطنية تعتبر حركة التقدم والنمو بهذا المقياس.

وكانت عاقبة ذلك تقدماً مذهلاً في مجال الماديات... تقدماً تجاوز أكـثر الأحـلام جموحاً في بداية النّهضة الصناعية الحديثة. ولكنه تقدم ترافق مع تأخر مأساوي في مجال المعنويات بدأت بعض البصائر المستقبلية في العالم الغربي و(الشرقـي ؟؟) تكتشفه وتعي خطورته، وتحذر من عواقبه الوخيمة.

وعلى ضوء هذا المفهوم للتّقدم قُسم الجنس البشري في الخمسينات من هذا القـرن الميلادي إلى عوالم ثلاثة:

العالم الأول: (أمريكا الشّمالية، وأوربا الغربية، واليابان) بلغ أعلى مستوى

عرفه الإنسان في التّقدم المادي والتّنظيم.

العالم الثّاني - (الإتّحاد السوفياتي وأوربا الشّرقية، والصين «أخيراً») يلي العالـم الأول في الرتبة من هذه الحيثية ويجهد لِلّحاق به في شتّى الميادين.

العالم الثّالث - (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية)، ويسمى هذا القسم من البشريـة (العالم المتخلّف أو العالم النّامي).

وهكذا يحمل العالم الثالث وصمة التخلّف وفقاً لهذا المفهوم،

وفقاً لمقاييس التّقدم المبنية على هذا المفهوم - هذه المقاييس الّتي فرضـها فكـر الحضارة الحديثة وسطوتها، اندفعت شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في تيار

هذه النّظرة إلى معنى التّقدم البشري لتحقّق لنفسها اللّحاق بالعالم الأول الّـذي يحول بينها وبين ذلك مستغلاً تفوقه الهائل وضعفها الكبير في نهب ثرواتها وبلبلة حياتها السياسية، ولكنّها في سبيل التخلّص من وصمة التخلّف العالقة بها وفقاً لهذا المفهوم تمضي قدماً في ما تحسب أنّه يضعها على طريق التّقدم مضحية في سبيل ذلك بالكثير من قيمها وأخلاقها متخلّية عن اصالتها، طامحة إلى أن يكون إنسانُهـا نسخةً دقيقةً من إنسان العالم الأول.

*

ولكن هذا المفهوم عن التّقدم البشري ناقص ومبتور لأنّه يمثّل جانباً واحـداً مـن الوضعية الإنسانية، وقد كان من أكبر الأخطاء الفكرية الّـتي وقـع فيهـا إنسـان الحضارة الحديثة نتيجة لخطأ نظرته إلى التاريخ وإلى المستقبل، فـإن الوضـعية الأخلاقية للإنسان ذات صلة وثيقة وأساسية بكونه متقدماً أو متخلّفاً. وهذه حقيقـة وجدت سبيلها أخيراً إلى الإدراك في داخل الحضارة الحديثة، وهذا، على الرغـم من أنّه لا يزال في نطاق ضيق نسبياً، باعث على الأمل.

لقد بدأت ترتفع، هنا وهناك، داخل الحضارة الحديثة، أصوات بعض ذوي العقـول النيرة والبصائر النّافذة من النخبة في العالم الغربي من علماء وشعراء ومفكريـن محذرة من الإنسياق وراء هذه النظرة الخاطئة، محذّرة من عواقبها المهلكة، داعية إلى

اعتماد نظرة أخرى تقيم التّوازن في السعي نحو التّقـدم بيـن حاجـات الإنسـان الروحية ووضعيته الأخلاقية من جهة وبين حاجاته وطموحاته المادية مـن جهـة أخرى، منذرين بأن استمرار الحضارة في ماديتها الخالصة سيؤدي إلـى خرابهـا ودمار الإنسانية أو جانب كبير منها.

إن نظرة هؤلاء المستقبليين من ذوي العقول النّيرة في العالم الغربي (والشّرقي ؟) قريبة من نظرة الإسلام إلى مسألة التقدم والتخلّف مع تأكيدنا على وجود اختلافات جمة تعود إلى تفاصيل النّظرة وإلى الوسائل والأساليب.

فالإسلام - ممثلاً بالقرآن الكريم، والسنّة الشّريفة، والفقه - إذ يدفع بالإنسان نحـو المستقبل الأفضل من حاضره وماضيه، يركّز على أن هذه الأفضلية تقـوم علـى

مقياس مركّب يعطي لكلّ واحد من المادة والمعنى دوراً حاسماً وأساساً في إنجاز التّقدم المتكامل المعافي، فلا بد أن تحقق حركة الإنسان في الزمان والمكان تقدماً وتكاملاً على صعيد المادة وعلى صعيد الوضعية الأخلاقية والصفات الإنسانية لتكون حركته تقدمية.

قالَ اللّه تعالى:

«وابتَغِ فِيما آتَاك اللّه الدار الآخِرةَ ولا تَنْس نَصِيبك مِن الدنْيا، وأَحسِن كما أَحسن اللّه إلَيك، ولا تَبغِ الْفَساد فِي الأَرضِ إن اللّهَ لا يحِب الْمفسِدِين»١.

وقالَ تعالى:

«يا بِني آدم خُذُواْ زِينَتَكُم عِند كُل مسجِدٍ، وكُلُواْ واشْربواْ ولا تُسرفُواْ إنه لا يحِب الْمسرفين. قُلْ من حرم زِينَة اللّهِ التي أَخْرج لِعِبادِهِ والطيباتِ مِن الرزق ؟ قُلْ: هِي لِلذِين آمنُواْ فِي الْحياةِ الدنْيا خَالِصةً يوم الْقِيامةِ، كذلِك نُفَصلُ الآياتِ لِقَومٍ يعلَمون. قُلْ: إنما حرم ربي الْفَواحِشَ ما ظَهر مِنْها وما بطَن،، والإثْم، والْبغْي بِغَيرِ الحق، وأَن تُشْركُواْ بِاللّهِ ما لَم ينَزلْ بِهِ سلْطَاناً، وأَن تَقُولُواْ علَى اللّهِ ما لا تَعلَمون»٢.

---

١ - سورة القَصص (رقم ٢٨ مكية) الآية: ٧٧ .

٢ - سورة الاعراف (رقم ٧ مكية) الآيات: ٣١ - ٣٣.

أما تحقيق التّقدم المادي وحده مع إهمال العناية بالوضعية الأخلاقية والمعنوية للإنسانية أو مع التّضحية بها فإنّه كقصر العناية على الوضعية الأخلاقية والروحية مع إهمال شؤون التّقدم المادي - كلاهما لا يمثّلان النّظرة المتوازنة الّتي يجب أن تقوم عليها حركة الإنسان التّاريخية وتبنى على هديها مؤسسات الحضارة. إن كلّ واحد من الإتجاهين يمثّل انحرافاً معيناً لا يخدم الإنسانية ولا يبني الحضارة.

إننا - وفقاً لهذه النّظرة المتوازنة - كما نعتبر النقص في إنتاج السلع والخدمات المادية بدرجة تكفي أكبر عدد من الناس وتحقّق لهم الرفاهية واللّذة - كما نعتبر هذا النقص وما يتصل به تخلفاً، كذلك نعتبر من أسوأ مظاهر التّخلّف: تزايد الجرائم في المجتمع بشتّى أنواعها، وتصدع الأسرة، وجفاف العلاقات الإنسانية

النّظيفة، ونمو روح الحرب والعدوان داخل المجتمعـات وبيـن الجماعـات القومية والوطنية، وهو أن الحياة البشرية عندما تكون خـارج الإطـار القومـي والعنصري للمعتدي ... وغير ذلك من مظاهر فساد الوضعية الأخلاقية للإنسـان فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولةً.

ووفقاً لهذه النّظرة المتوازنة يكون من الخطأ تقسيم عالم اليوم إلى عالم متقدم وعالم متخلّف. إن عالم اليوم كله - وفقاً لهذه النّظرة - متخلّف، فإنّه إذا كان العالم الثالث متخلّفاً على مستوى المادة وأساليب التّنظيم والإدارة، فإن العالم الآخر متخلّف من حيث الوضعية الأخلاقية والعلاقات الإنسانية والصفـات الإنسانيـة فـي أفـراده وجماعاته ومجتمعاته.

وسنرى، خلال هذا البحث، أن منطلق أمير المؤمنين علي بن أبي طالـب عليـه السلام في فهمه للتّاريخ وحركة الإنسان في الحاضر نحو المستقبل هو هذه النّظرة المتوازنة الّتي اشتمل عليها الإسلام، وعبر عنها القرآن الكريم، والسنّة الشّريفـة، والفقه المستمد منهما المبني عليهما.

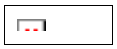

الامام في مواجهة التاريخ

٣١

الإمام في مواجهة التّاريخ

كان أمير المؤمنين علي عليه السلام، كما يخبرنا هو، وكما سنرى خلال هذه الدراسة يوجه عناية فائقة إلى التاريخ، عناية جعلت من التاريخ عنصراً بارزاً فيما وصل إلينا من كلامه في مختلف الموضوعات الّتي كانت تثير اهتمامه.

وعناية الإمام بالتاريخ ليست عناية القاص والباحث عن القصص. كما أنّها ليست عناية السياسي الباحث عن الحيل السياسية وأساليب التمويه الّتي يعالج بها تذمر الشعب، وإنّما هي عناية رجل الرسالة والعقيدة، والقائد الحضاري والمفكر المستقبلي.

إن القاص يبحث ليجد في تاريخ الماضين وآثارهم مادة للتّسلية والإثارة. والسياسي يبحث ليجد في التاريخ أساليب يستعين بها في عمله السياسي اليومي في مواجهة المآزق، أو يستعين بها في وضع الخطط الآنية المحدودة١.

والمؤرخ يقدم لهذا وذاك المادة التاريخية الّتي يجدان فيها حاجتهما.

أما الرائد الحضاري، رجل الرسالة والعقيدة ورجل الدولة فهو يبحث ليجد في

---

١ - قال المسعودي في تقريره عن النشاط اليومي لمعاوية بن أبي سفيان «... ويستمرّ إلى ثلث اللّيل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها. وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد. فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسمعه كلّ ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السّياسات... « - مروج ... (بتحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد) - مطبعة السعادة - الطّبعة الثّانية (١٣٦٧هجري - ١٩٤٨م) الجزء الثّالث - ص ٤٠ .

٣٢

التاريخ جذور المشكل الإنساني، ويتقصى جهود الإنسانية الدائبة في سبيل حلّ هذا المشكل بنحو يعزز قدرة الإنسان على التكامل الروحي - المادي، كما يعزز قدرته على تأمين قدر ما من السعادة مع الحفاظ على الطهارة الإنسانية.

وقد كان الإمام علي يتعامل مع التاريخ بهذه الروح ومن خلال هذه النظـرة، ومن ثم فلم يتوقّف عند جزئيات الوقائع إلا بمقدار ما تكون شواهداً ورموزاً، وإنّما تناول المسألة التاريخية بنظرة كلّية شاملة، ومن هنا فقلّما نرى الإمام فـي خطبـه وكتبه يتحدث عن وقائع وحوادث جزئية، وإنّما يغلب على تناوله للمسألة التاريخية طابع الشمول والعمومية.

والإمام ليس مؤرخاً، ولذا فليس من المتوقع أن نجد عنده نظرة المؤرخ وأسـلوب في سرد الوقائع وتحليلها والحكم عليها، وإنّما هو رجل دولة حاكم، ورجل عقيـدة ورسالة فيها كل حياته، فهو يتعامل مع التاريخ باعتباره حركة تكـون شـخصية الإنسان الحاضرة والمستقبلة، ولذا فهي تشغل حيزاً هاماً وعلى درجة كبيرة مـن الخطورة في عملية التربية والتحرك السياسي، وهذا ما يجعل رجل رسالة وحاكماً كالإمام علي عليه السلام حريصاً على أن يدخل في وعي أمته الّتي يحمل مسؤولية قيادتها ومصيرها .... الى التاريخ سليمة تجعله قوة بانية لا مخربة ولا محرفة.

*

ونحن نعرف عناية الإمام علي (ع) الفائقة بالتاريخ واهتمامه البالغ بشأنه من نص ورد في وصيته الّتي وجهها إلى ابنه الإمام الحسـن عليـه السـلام كتبهـا إليـه بحاضرين١ عند انصرافه من صفّين، قال فيه:

١ - قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٥٢ - أما قوله «كتبها إليه بحاضرين» فالّذي كنّا نقرؤه قديماً، «كتبها إليه بالحاضرين،» على صيغة التّثنيـة، يعني حاضر حلب وحاضر قنسرين، وهي الأرباض والضواحي المحيطـة بهـذه البلاد، ثم ___ بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام، ولم يفسروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التّثنية، ومنهم من يقول: خناصرين يظنونه تثنيـة خناصرة أو جمعها. وقد طلبتُ هذه الكلمة في الكتب المصنفة سـيما فـي البـلاد والأرضين فلم أجدها، لعلي أظفر بها فيما بعد فألحقها في هذا الموضع.

قال الشيخ محمد عبده في شرحه: حاضرين: اسم بلدة بنواحي صفّين.

٣٣

«أي بنَي إني وإن لَم أَكُن عمرتُ عمر من كان قَبلي، فَقَد نَظَرتُ فِـي أَعمـالِهم، وفَكرتُ فِي أَخْبارِهِم، وسِرتُ فِي آثارِهِم، حتى عدتُ كَأَحدِهِم، بلْ كَأني بِما انْتَهـى

إلي من أُمورِهِم، قَد عمرتُ مع أولهم إلى آخِرِهِم، فَعرفْتُ صفْو ذَلِـك مِـن كَدرِهِ، ونَفْعه من ضرره».

وكان قبل ذلك قد وجه الإمام الحسن (ع) في هذه الوصية إلـى تعـرف التاريـخ الماضي للعبرة والموعظة، قال:

«أحي قَلْبك بالْموعظَةِ ... واعرض علَيهِ أَخْبار الْماضِين، وذَكره بِما أَصاب مـن كان قَبلَك مِن الأَولِين، وسِر فِي دِيارِهِم وآثَارِهِم فَانْظُر فِيما فَعلُوا، وعما انْتَقَلُـوا، وأَين حلوا ونَزلُوا. فَإِنك تَجِدهم قَدِ انْتَقَلُوا عن الأَحِبةِ، وحلوا دِيار الْغُربةِ، وكَأَنـك عن قَليلٍ قَد صِرتَ كَأَحدِهِم».

وهذا النص يحملنا على الإعتقاد بأن الإمام عليه السلام تحدث كثيراً عن المسألـة التاريخية في توجيهاته السياسية وتربيته الفكريـة لمجتمعـه، ولرجـال إدارتـه، ولخواص أصحابه.

ولكن النّصوص السياسية والفكرية التي اشتمل عليها نهج البلاغة مِما يدخل فيـه العنصر التاريخي قليلة جداً، وإن كانت النصوص الوعظيـة الّـتي بنيـت علـى الملاحظة التاريخية كثيرة نسبياً.

ولا نستطيع أن نفسر نقص النصوص السياسية والفكرية - التاريخية إلا بضيـاع هذه النصوص لنسيان الرواة أو لإهمال الشّريف الرضي لما وصل إليه منها، لأنّه جعل منهجه في تأليف كتاب نهج البلاغة: «اختيار محاسن الخطب، ثـم محاسـن الكتب، ثم محاسن الحِكم والأدب»١. وقد أدى هذا المنهج بطبيعة الحال إلى إهمال الكثير من النّصوص السياسية والفكرية لأنّه لم يكن في الـذّروة مـن الفصاحـة والبلاغة.

ومن المؤكّد أن الكثير من كلام أمير المؤمنين في هذا الباب وغيره لم يصل إلـى الشّريف الرضي كما اعترف هو بذلك في قوله:

«... ولا أدعي - مع ذلك - أنّي أحيط بأقطار جميع كلام عليه السلام حتّى لا يشذّ عنّي منه شاذّ، ولا يند ناد، بل لا أبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إلي،

والحاصل في ربقتي دون الخارج من يدي»١.

*

وعلى أية حال فإن سؤالاً هاماً يواجهنا هنا، وهو:

مِن أين استقى الإمام معرفته التاريخية ؟

إنّه يقول عن نفسه: «... نَظَرتُ فِي أعمالِهم، وفَكرتُ فِي أَخْبارِهِم وسِرتُ فِي آثارِهِم...».

فما الوسيلة الّتي توصل بِها إلى معرفة أعمالهم لينظر فيها هو كيف تسنّى لـه أن اطّلع على أخبارهم ليفكّر فيها ؟

نقدر أن الإمام عليه السلام قد اعتمد في معرفته التاريخية على عدة مصادر:

١ - القرآن الكريم:

يأتي القرآن الكريم في مقدمة هذه المصادر الّتي استقى منها الإمام معرفته التاريخية. وقد اشتمل القرآن على نصوص تاريخية كثيرة منبثة في تضاعيف السور تضمنت أخبار الأمم القديمة وارتفاع شأنها، وانحطاطها، واندثار كثير منها، وذلك من خلال عرض القرآن الكريم لحركة النّبوات في تاريخ البشرية، وحكايته لكيفية استجابات الناس في كلّ أمة وجيل لرسالات اللّه تعالى الّتي بشّر بها الأنبياء سلام اللّه عليه أجمعين..

وقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام أفضل الناس - بعد رسول اللّه (ص) - معرفة بالقرآن من حيث الظاهر والباطن، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والأهداف والمقاصد، والأبعاد الحاضرة والمستقبلة، وغير ذلك من شؤون القرآن. كانت معرفته بالقرآن شاملة مستوعبة لكلّ ما يتعلق بالقرآن من قريب أو بعيد. والتأثير القرآني شديد الوضوح في تفكير الإمام التاريخي من حيث المنهج ومن حيث المضمون، كما هو شديد الوضوح في كلّ جوانب تفكيره الأخرى.

وقد حدث الإمام عن نفسه في هذا الشأن كاشفاً عن أنّه كان يلح في مسائله

٣٥

لرسول اللّه (ص) في شأن القرآن من جميع وجوهه. قال: «واللّه ما نَزلَتْ آية إلا وقَد عِلمتُ فِيم أُنْزلَتْ، وأَين أُنْزلَتْ. أن ربي وهب لِي قَلْباً عقُولاً ولِساناً سؤُولاً»١.

وشهاداتُ معاصريه له في هذا الشأن كثيرة جداً. منها ما روي عن عبد اللّـه بـن مسعود، قال: «إن القرآن أُنْزل على سبعِة أحرفٍ، ما منها حـرفُ إلا لـه ظهـر وبطن، وإن علي بن أبي طالبٍ عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن».٢

٢ - التعليم الخاص:

التعليم الخاص الّذي آثر به رسول اللّه (ص) علياً مصدر آخر من مصادر معرفته التاريخية وغيرها.

وفقد استفاضت الروايات الّتي نقلها المحدثون، وكتّاب السيرة، والمؤرخـون مـن المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم - استفاضت هذه الروايات - بل تواترت إجمالاً - بأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قد خص أمير المؤمنين علياً بجانـبٍ من العلم لم ير غيره من أهل بيته وأصحابه أهلاً له.

فمن ذلك ما قاله عبد اللّه بن عباس: «واللّهِ لَقد أُعطِي علي بن أَبِـي طَالِـب (ع) تِسعةَ أعشَار العلمِ، وايم اللّهِ لَقد شَاركَكُم فِي العشر العاشِر».٣

وما روي عن رسول اللّه (ص): «عِلي عيبةُ عِلْمِي».٤

وما رواه أنس بن مالك، قَالَ: «قِيلَ يا رسولَ اللّه عمن نَكْتُب الْعِلْم ؟ قالَ: عن عِلي وسلمان».٥

وقال الإمام عليه السلام: «علمني رسولُ اللّهِ (ص) أَلْفَ بابٍ مِن العِلم كُـل بـابٍ يفتَح

---

١ - ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٢ قسم ٢ ص ١٠١، والمتقي الهندي: كنز العمال ٦ / ٣٩٦ - وقال: أخرجه ابن سعد وابن عساكر، وقالوا (لِسَاناً طَلِقاً سَؤولاً) وأبو نعيم: حُلية الأولياء ١ / ٦٧.

٢ - أبو نعيم: حلية الأولياء: ١ / ٦٥.

٣ - أسد الغابة ٤ / ٢٢ والإستيعاب: ٢ / ٤٦٢.

- كنز العمال ٦ / ١٥٣ وفتح القدير: ٤ / ٤٥٦.

٥ - تاريخ بغداد: ٤ / ١٥٨.

ألفَ بابٍ».١

وقد صرح فيما وصل إلينا من نصوص كلامه في نهج البلاغة بـذلك فـي عـدة مناسبات، فقال:

١ - «... بل اندمجتُ٢ على مكْنُون عِلْمٍ لوبحتُ بِهِ لاضطَربتُم اضطِراب لأرشِيةِ فِي الطوِي٣ الْبعيدةِ»٤.

٢ - «ولَقَد نُبِّئْتُ بِهذَا الْمقَامِ وهذَا الْيوم...»٥.

٣ - «... لَو تَعلَمون ما أَعلَم مِما طُوي٦ عنْكُم غَيبه إِذاً لَخَرجتُم إِلى الصعـداتِ٧ تَبكُون علَى أَعمالِكُم»٨.

٤ - «يا أَخَا كِنْدٍ، لَيس هو بِعِلْمِ غَيبٍ، وإِنما هو تَعلم مِن ذِي عِلْمٍ»٩.

وإذا كانت بعض هذه النصوص ظاهرة في العلم بالغيبات (علم المستقبـل)، فـإن غيرها مطلق يشمل الماضي، وإذا كان الإمام قد اطّلع من رسول اللّه (ص) علـى بعض المعلومات المتعلقة بالمستقبل فمن المرجح أنه قد اطلـع منـه علـى علـم الماضي.

٣ - السنة النّبوية:

إشتملت السنّة النبوية على الكثير المتنوع من المادة التاريخية.

منه ما ورد في تفسير وشرح القرآن الكريم، ومن ما اشتمل إجمالاً أو تفصيلاً على حكاية أحداث تاريخية لم ترد في القرآن إشارة إليها.

---

١ . كنز العمال: ٦ / ٣٩٢.
٢ . اندمجتُ: انطويتُ، كناية عن معرفته بأمور خاصة جداً.
٣ . الأرْشِية: جمع رشاء، الحبل. والطّوي جمع طوية وهي البئر.
٤. نهج البلاغة - الخطبة رقم: ٥.
٥ . نهج البلاغة - الخطبة رقم: ١٦.
٦ . طُوِي: حُجب عِلمُه عَنكُمْ.
٧ . الصعدات: جمع صَعيد. يُريدُ: لَذهبتْ عنكم الدّعةُ والإستقرارُ في منازلكم وخرجتُم مِنها قلقينَ على مَصيركم.
٨. نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١١٦.
٩. نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٢٨.

وقد كان أمير المؤمنين علي (ع) أعلم أهل البيت (ع) والصحابة قاطبة بما قاله رسول اللّه (ص) أو فعله وأقره، فقد عاش علي (ع) في بيت رسول اللّه (ص) منذ طفولته، وبعث الرسول (ص) وعلي عنده، وكان أول من آمن به، ولم يفارقه منذ بعثته (ص) إلى حين وفاته إلا في تنفيذ المهمات الّتي كان يكلّفه بها خارج المدينة وهي لم تستغرق الكثير من وقته، ومن هنا، من تفرغه الكامل لتلقي التوجيه النبوي، ووعيه الكامل لما كان يتلقّاه كان الإمام أعلم الناس بسنّة رسول اللّه وكتاب اللّه.

٤ - القراءة:

فقدر أن الإمام علياً قد قرأ مدونات تاريخية باللّغة العربية أو بغيرها من اللغات الّتي كانت متداولة في المنطقة الّتي شهدت نشاطه، وخاصة بعد أن انتقل من الحجاز إلى العراق واضطرته مشكلات الحكم والفتن إلى التنقل بين العراق وسوريا، وإن كنا لا نعلم ما إذا كانت هذه المدونات قد دفعت إليه صدفة أو أنّه بحث عن كتب كهذه وقرأها أو قرئت له بلغاتها الأصلية مع ترجيحنا أنّه عليه السلام كان يعرف اللّغة الأدبية الّتي كانت سائدة في المنطقة العراقية السورية.

٥ - الآثار القديمة:

وربما كانت الآثار العمرانية للأمم القديمة من جملة مصادر المعرفة التاريخية عند الإمام عليه السلام، ويعزز هذا الظن بدرجة كبيرة قوله في النص الآنف الذكر: «وسِرتُ في آثارِهِم» مما يحمل دلالة واضحة على أن مراده الآثار العمرانية.

وقد خبر الإمام في حياته أربعة من أقطار الإسلام، هي: شبه الجزيرة العربية، واليمن، والعراق، وسوريا.

ونقدر أنه قد زار الآثار الباقية من الحضارات القديمة في هذه البلاد، وإذا كان هذا قد حدث - ونحن نرجح حدوثه - فمن المؤكّد أن الإمام لم يزر هذه الآثار زيارة سائح ينشد التسلية إلى جانب الثقافة، أو زيارة عالم آثار يتوقف عند الجزئيات، وإنّما زارها زيارة معتبر مفكر يكمل معرفته النظرية بمصائر الشعوب والجماعات بمشاهدة بقايا وأطلال مدنها ومؤسساتها الّتي حلّ بها الخراب بعد أن انحطّ بناتها وفقدوا

قدرتهم على الإستمرار فاندثروا.

هذه هي، فيما نقدر، المصادر المعلومة والمظنونة والمحتملة الّـتي اسـتقى منهـا الإمام علي (ع) معرفته التاريخية.

التاريخ عند الإمام (ع) في المجال الوعظي، وفي المجال السّياسي الفكري

إستخدم الإمام عنصر التّاريخ في مجالين، أحدهما مجال السياسـة والفكـر، وثانيهما مجال الوعظ.

وهنا يواجهنا سؤال هام:

لماذا يدخل الإمام عنصر التاريخ في أحاديثه الوعظية، أو في أحاديثه وخطبـه و كتبه السياسية والفكرية، أو في غير ذلك من مجالات توجيههِ كرجل رسالة وعقيدة وحاكم دولة ؟ لماذا التاريخ ؟

ونقول في الجواب على هذه المسألة الّتي تثير الشك حول جدوى التاريخ باعتبـاره مادة أساسية في البنية الثقافية للإنسان والمجتمع أو باعتباره عاملاً مساعـداً فـي الأعمال الفكرية الّتي تتناسب مع مادة التاريخ... نقول في الجواب:

إن الحياة الإنسانية لدى جميع الناس في جميع الأزمـان والأوطـان واحـدة فـي أصولها العميقة، ومكوناتها الأساسية، وحوافزها، فهي نهر متدفق مـن التجـارب والآمال والإنجازات وخيبات الأمل، وهذا ما يجعل الأسئلة الّتي تثيرها مشكـلات الحاضر حافزاً نحو استرجاع الماضي باعتباره عملاً مكملاً وضرورياً في البحث الصحيح الموضوعي عن أجوبة أكثر سداداً وحكمة تؤدي إلى حلـول صـائبة أو مقاربة للصواب للمشكلات الّتي تواجه الإنسان فـي حاضـره، أجوبـة معجونـة بالتّجارب الإنسانية

السابقة.

وقد يثير هذا التحليل حفيظة فريق من أهل الفكر المشتغلين بالسياسة، أو فريق من أهل السياسة يدعون لأنفسهم صلة بالفكر يرون - أولئك وهـؤلاء - أن النزعـة التاريخية، أو العقلية التاريخية (السلفية) تعيق نمونا في الحاضـر وتقـدمنا فـي المستقبل، لأنّها تشدنا دائماً إلى الماضي، إلى قيمه وتصوراته. إن التـاريخ عنـد هؤلاء مرض يشوه الحاضر ويقضي على المستقبل.

ولكن هذا الرأي بعيد عن الصواب.

بطبيعة الحال نحن - في فهمنا لدور التاريخ كعامل مكون في البنية الثقافيـة للإنسان والمجتمع ومساعد في عمليات الفكر - لا ندعي أن من الحكمة أنْ يجعـل الإنسان نفسه سجين التاريخ، لسنا في فهمنا لدور التاريخ مع غلاة النزعة التاريخية الّذين يرون أن التاريخ هو الحقيقة كلّها، لا مرحلة مـن مراحـل نمـو الحقيقـة التجريبية فقط. فهذا الموقف الفكري يتّسم بالغلو والشطط.

ولكن ليس من الحكمة أيضاً أنْ يواجه الإنسان حاضره ويتجه نحو مستقبله وهـو بلا جذور، إنّه حين لا يستشعر تاريخه الخاص بأمته أو تاريخ الإنسانية يفقد القدرة على الرؤية الصحيحة، ويفقد القدرة على تقويم المواقف الّتي تواجهه في خـاطره تقويماً سليماً سواء في ذلك ما يتعلق منها بالحاضر نفسـه أو مـا يتعلـق منهـا بالمستقبل، إنّه في هذه الحالة يتحرك في الفراغ.

لهذا وذاك نرى أن الإستخدام المتّزن للتاريخ، الإستخدام المتّسم بالحكمة والإعتدال يجعلنا أقدر على التحرك في حاضرنا وأكثر شعوراً بخطورة قراراتنا فيما يتعلـق بشؤون المستقبل، لأن التاريخ في هذه الحالة يعمق حِسنا الأخلاقي حيـن اتخاذنـا قرارات مستقبلية تمس نتائجها حياة أجيال، نصنع بهذه القـرارات - المستقبليـة بالنسبة إلينا - حاضرها هي الّذي هو مستقبلنا المظنون الّذي قد لا نشاركها فيـه لاننا نكون حينئذٍ قد غادرنا الحياة، ومن ثم فلا نواجه نتائج قراراتنا الماضية.

بدون استرجاع الماضي وما يمنحنا ذلك من عمق في الرؤية، وغنى في التجربة

الإنسانية ووعي لاستمرار الحضارة الإنسانية فينا وفيمن يأتي بعدنا من الأجيال - بدون ذلك لن يكون في وسعنا تفادي أخطاء وقعت في الماضي كما لن يكون مـن حقنا التمتع بنتائج تجارب ناجحة أنجزت فيه، كما أننا في هذه الحالـة قـد نتّخـذ بالنسبة الى المستقبل الّذي لا نملكه وحدنا قرارات متهورة شديدة الخطورة بالنسبة إلينا وإلى وضعية ومصير الأجيال الآتية.

إن الغلو في استرجاع التّاريخ، فكراً وعملاً، قد يجعل من التّاريخ مقبرة للحاضـر والمستقبل، ويجعل الإنسان غريباً في العالم الّذي يعاصره ويحيط به ويتدوّق بالحياة نحو المستقبل من حوله.

كما إن الغلو في رفض التاريخ، والإنقطاع عنه والإنصراف عن تجاربه ومآثره قد

يجعل الإنسان «ريشة في مهب الريح» عاجزاً عن التماسك في الحاضر، ويفقده القدرة على ممارسة دوره الأصيل في بناء الحضارة ويجعل منه مجرد ممثّل لأدوار يضعها الآخرون يعكس هو بتمثيله إراداتهم وأفكارهم وموجاتهم.

إذنْ لابد للإنسان من أن يتعامل مع التاريخ باعتدال يجعله دليلاً في حركته وتربة ينمو فيها الحاضر الأصيل والمستقبل الأكثر يمناً وأصالة.

واستجابة لهذه الضرورة تعامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مع التّاريخ في مجال الوعظ وفي مجال السياسة والفكر.

وأكبر همنا في هذه الدراسة هو التّعرف على النظرة التاريخية للإمام في مجالي السياسة والفكر، مكتفين بالنسبة إلى المجال الوعظي ذي المحتوى التاريخي بتقديم نموذج واحد من النصوص الوعظية في كتاب نهج البلاغة، وتحليله مع تسليط الأضواء على الجانب التاريخي فيه.

التّاريخ في مجال الوعظ

حلّلنا في فصل (الوعظ) من كتابنا «دراسات في نهج البلاغة»١، مواعظ أمير المؤمنين علي (ع) في نهج البلاغة على ضوء الظروف السياسـية والإجتماعيـة والنفسية الّتي كانت تسيطر وتوجه مجتمع العراق بوجه خاص فـي أيـام خلافـة الإمام عليه السلام.

وكشفنا النّقاب هناك عن أن الإمام لم يكن في مواعظه داعياً إلى مـذهب زهـدي يقف موقفاً سلبياً من الحياة الدنيا والعمل لها والإستمتاع بها، وإنّمـا كـان، فـي مواعظه وتوجيهه الفكري بوجه عام، يدعو إلى مواجهة الحياة بواقعيـة وصـدق، محذّراً من اللّهاث المجنون وراء الآمال الخادعة والأحلام الكاذبة الّتي ليس لها في واقع الحياة سند ولا أساس.

وكشفنا النّقاب أيضاً عن أن النّظرة الشّائعة إلى مواعظ الإمام في نهج البلاغة قـد تأثرت بالتّيار الزهدي السلبي الّذي طبع المجتمع الإسلامي بطابعه فـي عصـور الإنحطاط، وهو دخيل على الفكر الإسلامي وعلى أخلاقيات الإسلام وتشريعه، ولذا فإن هذه النظرة خاطئة لا تمثل مقاصد الإمام وأهدافه من المـواعظ الّـتي كـان يوجهها إلى مجتمعه.

---

١ . محمّد مهدي شمس الدّين: دراسات في نهج البلاغة (الطّبعة الثّالثة) بيروت ص ٢٤٧.

والمواعظ الّتي استخدم الإمام فيها عنصر التّاريخ كغيرها من مواعظه في أنـه لا يدعو فيها إلى مذهب زهدي سلبي من الحياة الدنيا، وإنّما يعالج بها حالة خاصة في مجتمعه الّذي بدا غافلاً عن مصيره التعس، مهملاً لواجباته في جهاد النفس وجهاد العدو، متلهفاً على المتع والثراء اللّذَين لا يستحقهما الا مجتمع مستقر أحكم وضعه الأمني والسياسي والإجتماعي، وقطع دابر الطامعين فيه المتآمرين عليه، وهذا ما

لم يكنه مجتمع العراق في عهد الإمام عليه السلام، بل كان مجتمعاً قلقاً يعاني من اضطراب أمنه الخارجي وتدهور أمنه الداخلي، كما يعاني من التمزق السياسي، وكان - نتيجة لذلك - يؤجج مطامع الحكم الأموي في الشام ويدفع به نحو التآمر عليه.

ونقدم فيما يلي نموذجاً من النّصوص الوعظية الّتي يكون التاريخ عنصراً بارزاً وأساسياً فيها.

قال عليه السلام:

«أما بعد، فَإني أُحذركُم الدنْيا، فَإنها حلوة خَضِرة، حفتْ بِالشهواتَ، وتحببت بِالعاجِلةِ، وراقت بِالقليل، وتحلت بِالآمال، وتزينت بِالغُرور، لا تدوم حبرتُها١، ولا تُؤمن فجعتُها، غرارة ضرارة، حائلة٢ زائلة نافدة بائدة٣، أكالة غوالة٤، لا تعدو - إذا تناهت إلى أُمنيةِ أهل الرغبةِ فِيها والرضاءِ بِها أَن تكُون كما قالَ اللهُ تعالى سبحانه «كماءٍ أَنزلناه مِن السماءِ، فاختلط به نباتُ الأرض، فَأصبح هشِيماً٥ تذروه الرياح وكان اللهُ على كُل شيء مقتدراً»٦، لم يكُن امرؤ مِنها فِي حبرةٍ إلا أعقبته بعدها عبرةً، ولم يلاقَ فِي سرائها بطناً إلا منحته مِن ضرائها ظهراً٧، ولم تطُله فيها دِيمة٨ رخاءٍ إلا هتنت٩ عليهِ مزنةُ بلاءٍ. وحري إذا أَصبحت له منتصرةً

---

١ . الحبرة: بالفتح - النّعمة.
٢ . حائلة: متغيرة.
٣ . نافدة: فانية.
٤ . غوّالة: مهلكة.
٥ . الهشيم: النبت اليابس.
٦ . سورة الكهف (رقم ١٨ مكّية) الآية: ٤٥.
٧ . البطن كناية عن إقبال الدّنيا، والظّهر كناية عن الإدبار.
٨ . الطلّ: المطر الخفيف. والدّيمة: مطر يدوم في سكون لا يرافقه رعد وبرق.
٩ . هتنت: إنصبّت.

أن تُمسِي له متنكِرةً، وإن جانِب مِنها اعذوذب واحلولى أَمر مِنها جانِب فَأوبى١ لا ينالُ امرؤ من غضاريها رغباً٢ إلا أرهقته مِن نوائِبها تعباً، ولا يمسِي مِنها فِي جناح أمنٍ إلا أصبح على قوادِمِ خوفٍ٣. غرارةُ ما فِيها، فانية، فانٍ من عليها، لا

خير فِي شيءٍ من أزوادِها إلا التقوى.

«من أقل مِنها استكثر مِما يؤمِنُه، ومن استكثر مِنها استكثر مِما يوبِقُه٤، وزال عما قلِيلٍ عنه».

«كم مِن واثقٍ بِها قد فجعته، وذِي طُمأنِينَةٍ إليها قد صرعته، وذِي أُبهةٍ قد جعلتـه حقِيراً٥، وذِي نخوةٍ قد ردته ذلِيلاً٦.

«سلطانُها دول٧ وعيشُها رنق٨، وعذبها أُجاج٩، وحلوها صبِر١٠، وغِذاؤُها سِمام ١١ وأسبابها رِمام١٢.

«حيها يعرض موتٍ، وصحِيحها يعرض سقمٍ، وموفُورهـا منكُـوبٍ١٣ وجارهـا محروب١٤.

«ألستُم فِي مساكِن من كان قبلكُم أطولَ أعماراً وأبقى آثاراً، وأبعد آمـالاً، وأعـد عدِيداً. وأكثف جنُداً ؟ تعبدوا لِلدنيا أي تعبدٍ، وآثروها أي إيثارٍ، ثُم ظعنُـوا عنهـا بِغير زادٍ مبلغ، ولا ظهرٍ قاطِعٍ١٥».

---

١ . أوبى: صار كثير الوباء.
٢ . الغضارة: النّعمة، والرّغَب: الرغبة، والمرغوب فيه.
٣ . القوادِم: جمع قادِمة، ريش في مقدم جناح الطائر.
٤ . يُوبِقه: يهلكه.
٥ . أُبّهة: عظمة.
٦ . النّخوة: الإفتخار.
٧ . دُوَل - بضم الدال - المنحول.
٨ . الرنق: الكدر.
٩ . أجاج: شديد الملوحة.
١٠ . الصبر: عصارة الشّجر المرّ.
١١ . سِمام: جمع سم، وهو مثلث السين.
١٢ . الرّمام: جمع رمّة - بالضم، القطعة البالية من الحبل، ومنه (ذُو الرّمّة).
١٣ . موفورها..: من كان عنده وفر (كثرة) من الدنيا معرض للمصائب والنّكبات.
١٤ . محروب: المحروب من سلب مالُه.
١٥ . ظهر قاطع: وسيلة تقطع براكبها الطريق بأمان وتبلغه غايته.

٥٠

«فهل بلغكُم أن الدنيا سخت لهم نفساً بِفدِيةٍ١ أو أعانتهم بِمعونةٍ، أو أحسنت إليهـم صحبةً.. ؟ بل أرهقتهم بالقوادِح٢ وأوهقتهم بِالقوارِع٣ وضعضعتهم بِالنوائـبِ٤، وعفرتهم لِلمناخِر٥، ووطِئتهم بِالمناسِمِ٦، وأعانت عليهم ريب المنُون».

«فقد رأيتُم تنكرها لِمن دان لها٧ وآثرها وأخلد إليها٨ حِين ظعنُوا عنها لِفراق الأبدِ... أفهذِهِ تُؤثِرون ؟ أم إليها تطمئنون ؟ أم عليها تحرصون ؟ فبِئستِ الدار لِمن لميتهمها، ولم يكُن على وجلٍ مِنها».

«فاعلموا - وأنتُم تعلمون - بِأنكُم تاركُوها وظاعِنُون عنها، واتعظوا فِيها بِالذِيـن قالُوا (من أشد مِنّا قُوةً..)٩ حمِلُوا إلى قُبورهِم فلا يـدعون ركبانـاً١٠. وأُنزلُـوا الأجداث فلا يدعون ضِيفاناً١١، وجعِل لهم مِن الصفِيح١٢ أجنان١٣ ومِن التـرابِ أكفان...

استبدلُوا بِظهر الأرض بطناً، وبالسعةِ ضِيقاً، وبالأهل غُربةً، وبالنور ظُلمةً...»١٤.

*

ركّز الإمام عليه السلام في هذه الخطبة الوعظية - كما هـو شـأنه فـي معظـم مواعظه - على عاملين ثابتين في طبيعة الحياة على هذه الأرض:

---

١ . لم تدفع عنهم الدّنيا بلاء الموت.
٢ . أرهقتهم: أتعبتهم. والقوادِح: جمع قادح، مرض يصيب الأسنان والشجر. أراد به هنا المصائب والنكبات.
٣ . الوهق: حبل تصطاد به الفريسة، والقوارع: المحن. أراد أنهم أسرى مشاكلهم المادية والإجتماعية.
٤ . ضعضعتهم: جعلتهم قلقين، وحرمتهم الإستقرار وطنب العيش.
٥ . عفرتهم: العفر التراب، مرغت آنافهم بالتّراب، كناية عن إذلالِهم.
٦ . المنسم: خف البعير، كناية عن إذلالهم.
٧ . دان: خضع.
٨ . أخلد: إطمأنَ.
٩ . سورة فُصّلت (رقم ٤١ مكّيّة) الآية: ١٥.
١٠ . لا يُدعَونَ رُكباناً لأنّهم مقهُورون ولم يُحملوا مختارين. ولا يُدعون ضيفاناً لأنّهم يُقيمون في قبورهم.
١١ . الاجداث: القبور.
١٢ . الصفيح: الوجه من كل شيء له مساحة، والمراد هنا الارض.
١٣ . أجنان: جمع جنن - بالفتح - القبر.
١٤ . نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١١١.

١ - عامل التغير والتقلّب في الحياة:

الحياة بما هي حركة، وبما هي تفاعل، وبما هي طاقات وقوى تتفاعل فتتكامـل أو تتقاتل في داخل كل شيء ومن حول كل شيء في الكون المادي كلّه - الحياة بمـا هي كل هذا متقلّبة متغيرة متحولة باستمرار - هي في حالة صـيرورة دائمـة لا

تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة.

٢ - عامل الزمن:

أثر الزمن في الأشياء والأعمار ظاهر لكلّ ذي بصيرة، فـالزمن يفتـت الحيـاة باستمرار، فما أن يبدأ وجود الحياة في شيء، بل ما أن يبدأ وجود شيء، حياً كان أو غير حي حتى يبدأ هذا الوجود بالذّوبان والتّفتّت والضياع. إن الحياة تولد فـي الزمن. ولكن الزمن يغتالها باستمرار.

وهذان العاملان - التّغير والزمن - لا يختصان بعالم الإنسان وحده، إنّهما يعملان في كلّ شيء ويحولان دون ثبات كل شيء: الجماد، والنّبات، والحيوان، والإنسان. ويتميز الإنسان - بالنسبة إليهما - عن العوالم الأخرى بأنّه - لما أوتي من عقـل وإدراك - يستطيع أن يعي الوجه المأساوي لعمل هذين العاملين، وأثرهمـا فـي حياته وفي الوجود من حوله.

ووعي الإنسان لهذين العاملين وأثرهما في الحياة والأشياء يجعلـه قـادِراً علـى مواجهة الحياة ومباهجها الموقتة، ووعودها السخية، وآمالها اللامعة. بعقل صـافٍ خالٍ من الأوهام، ويعزز فيه النّزعة الواقعية في أخذ الحياة والتعامل مع الـدنيا - هذه النّزعة الّتي من شأنها أن تجعـل الآمـال أقـل بريقـاً وجـذباً واسـتهواء، والإنتصارات أقل مدعاة للغرور والصلف، والمآسي أقل إيلاماً. ويعـزز مناعـة الإنسان أمام تكالب صروف الدهر، وخيبات الأمل وضـياع الجهـود، ونـوازل المرض والموت... فلا ينهار بسبب ذلك ولا ييأس ولا يستسلم، ولا يستكيـن ولا يهرب من العمل، وإنّما ينبعث للعمل والكفاح في سبيل نفسـه وأهلـه ومجتمعـه وعالمه من جديد لأنّه لم يفاجأ بالخيبة والإخفاق، بل كان مهيء النفس لتقّبلهما ومن ثم فقد كان مهيء النفس لتجاوزهما، واستئناف

العمل مرة أخرى بأملٍ واقعي جديد.

بالإجمال: إن وعي الإنسان لهذين العاملين، وإدراكه لأثرهما العميق والمصـيري في حياته وفي الوجود من حوله يجعله قادِراً على مواجهة الحياة بكلّ وجوهها وما فيها من حسن وقبح، وألم ولذّة، وواقع وخيال، ونجاح وإخفاق ... يواجهها بـروح واقعية.

وحين يدخل الإمام عليه السلام في وعظه عنصر التـاريخ فيتحـدث عـن الماضين وما حلّ بهم من كوارث وآلام وما انتهت إليه حياتهم على عظمة توهجها من انطفاء فإنه يقدم لتحليله النظري الّذي تناول واقع حياة معاصريه الّذين يخاطبهم - يقدم نماذج تطبيقية من حياة أقوام آخرين .. إنّه يقدم لمعاصريه تجربة الآخرين الّتي يعرفونها، ويبعثون حياتهم في ساحاتها، ويرون آثارها الباقية من الماضي في هذه الساحات.

فهذه المدن والمساكن، وهذه الضياع والمزارع، وهذه القلاع والحصون عمرها في عصور سابقة أناس تقلبت بهم صروف الحياة وأفراحها وأحزانها، والآمال الّتـي سعدوا بإنجازها وخيبات الأمل، ثم ماتوا وانقطعوا عن كل ما كان يمـلأ عليهـم حياتهم من أحلام وأماني. ومطـامح ومطـامع، وحـب وبغضـاء، وصـداقات وعداوات...

وكان هؤلاء أطول أعماراً، وأكثر قوةً .. «وأعد عديداً»، وقد وجهوا كل ما أوتوا من قدرة وذكاء ومعرفة لدنياهم، فأعدوا لها واستعدوا، ولم يشغلهم عنهـا تفكيـر بالآخرة أو عمل لها، ولكن كلّ ذلك لم ينفعهم ولم يعد عليهم بطائـل، لأن عامـل التغير والتقلّب من جهة وعامل الزمن من جهة أخرى، عملا دائماً - كما لا يزالان يعملان، وكما سيعملان في المستقبل - على تفتيت حياة أولئـك النـاس، وكانـت حياتهم - كما هي الحياة الآن، وكما ستبقى الحياة - تحمل فـي جوهرهـا وفـي أعماقها أثناء ولادتها ونموها وازدهارها بذور تقلصها وذبولها وأنطفائها في آخـر المطاف.

*

هذا نموذج من وعظ الإمام علي الّذي يدخل فيه عنصر التاريخ باعتباره يضـيء الحاضر لأنه يضيف إليه تجربة الماضي ويجعله - بذلك أكـثر غـنى، ويجعـل الإنسان أكثر قدرة على مواجهته بروح واقعية وبعقل خالٍ مِن الأوهام، فلا يهـن ولا يستسلم تحت وطأة الكارثة، ولا يطغى ولا يطوح به الغرور وهـو فـي ذرى النجاح.

التّاريخ في مجال السّياسة والفكر

تمهيد

إستخدام الإمام التّاريخ في مجال الفكر كما استخدمه في مجال السياسة.

كان رجل رسالة هي الإسلام، رسالة استوعبت الحياة كلّها: تنظيماً وتشريعاً ومناهج. وهي رسالة ذات طابع عالمي، ممتدة في الزمان إلى آخر الزمان، أراد اللّه تعالى لها أن تكون ديناً للإنسان كلّ إنسان، تقوده نحو التكامل الّذي يحقّق له التّوازن والتّسامي.

وهي رسالة تقوم على العلم والمعرفة، وترفض الجهل لأنه يتيح لأعدائها أن يتسلّلوا في ظلماته إلى قلوب أتباعها المؤمنين بها وعقولهم فيشوهون ويحرفون عقائدها وشرائعها ومناهجها، ويضلّلون بعد ذلك أتباعها المؤمنين بها وذلك حين يلبسون لهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ.

ومن هنا كان من أكبر هموم رجل الرسالة الإستعداد الدائم في هذا المجال، لأجل أن يجعل المسلمين على معرفة كاملة بالإسلام، وفي حالة وعي متجدد ونام لحقيقة الإسلام وجوهره ومناهجه وغاياته ليكون المسلم المستنير بالمعرفة في حصانة من الحيرة والتضليل، على بينة من أمره، وليكون الإسلام بمنجاة من التشويه والتحريف، ويكون كل مسلم مستنير ديدباناً على دينه الّذي هو معنى وجوده وشرف وجوده.

ومن هنا كان علي عليه السلام في حركة تعليمية دائمة لمجتمعه وخواص أصحابه

الذين كانوا علماء ينشرون علمهم ووعيهم بين الناس بالحديث والخطابة وحلقات الدرس والتعليم.

وكان الإمام عليه السلام يختار ولاته وعماله على البلدان من ذوي المعرفة ومن أهل البصائر١. الّذين يتمتعون بالمعرفة والوعي والصلابة في العقيدة ليكونوا - الى جانب عملهم الإداري - معلّمين ورجال رسالة، وكان يوجههم نحو هذه المهمة

التعليمية والتوجيهية. من ذلك ما كتب به إلى قثم بن العباس عامله على مكة:
«أما بعد، فَأَقِم لِلنّاس الحج، وذَكرهم بِأيامِ اللهِ٢، واجلِس لهم العصـرين٣، فَأفـتِ المستَفتَي، وعلِم الجاهِلَ، وذاكِر العالِمِ»٤.

*

وفي عمله الفكري على صعيد التعليم والتوعية استعان الإمام عليه السلام بعنصـر التاريخ ليعطي للفكر حرارة وحياة وحركة، وعمقاً في الزمـان وفـي الإنسـان، وليجعل، بهذا، من القضية الفكرية بضعة من الحياة المعاشة تحمـل فـي ثناياهـا رائحة المعاناة الإنسانية.

*

---

(١) «أهل البصائر» تعبير إسلامي يعود إلى صدر الإسلام، يعني به المومنون الواعون الّذين يتخذون مواقفهم السّياسّية وغيرها نتيجة لقناعات مستوحاة من المبدأ الإسلامي، ولا تتصل بالإعتبارات النفعية.

ومن المؤكد أن هذا التعبير غدا في وقت مبكر جداً مصطلحاً ثقافياً إسـلامياً يعني: الفئة المؤمنة الواعية للإسلام على الوجه الصحيح، والملتزمة بالإسلام فـي حياتها بشكل دقيق، بحيث أنّها تتخذ مواقف مبدئيـة مـن المشاكـل الاجتماعيـة والسياسية الّتي تواجهها في الحياة والمجتمع، فلا تصغي إلى الإعتبارات الشخصية والقبلية كما أنها لا تقف على الحياد أمام هذه المشكلات، وإنّما تعبر عن التزامهـا النظري بالممارسة اليومية للنضال ضد الإنحرافات.
راجع بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع في كتابنـا «أنصـار الحسيـن: الرجـال والدلالات» - الطّبعة الأولى - دار الفكر - سنة ١٩٧٥/ فصـل «النخبـة» ص ١٦٥ - ١٧٠.
٢. «أيام اللّه» مصطلح ثقافي إسلامي، يغلب استعمالُه للدلالـة علـى الكـوارث الكبرى الّتي أصابت الشعوب والجماعات نتيجة لانحرافها في العقيـدة والشريعـة والأخلاق، وقد يستعمل للدلالة على الإنتصارات الكبرى التي أحرزها المؤمنـون فغيرت مجرى التاريخ أو مجرى تاريخ جماعة مؤمنة أو شعب مؤمن.
٣. العصران: هما الغداة والعشي.

٤. نهج البلاغة - باب الكتب/ الكتاب رقم ٦٧.

٥٧

وكان الإمام رجل سياسة.

كان سياسياً على مستوى رجل الدولة ورجل العقيدة والرسالة طيلة حياتـه. مـلأ العمل السياسي حياته في عهد النبي (ص) بتكليف منه، وفي عهود الخلفاء الذيـن تقدموه لحاجتهم إليه أو لحاجة الناس إليه. وكان - بالإضافة إلى ذلـك - حاكمـاً ورئيس دولة في السنين الأخيرة من حياته.

وكان الإمام بهذين الإعتبارين في حاجة دائمة إلى أن يعطـي لأمتـه ولأعوانـه التوجيهات السياسية اللاّزمة. وكان في بعض هذه التّوجيهـات يستعيـن بعنصـر التاريخ ليُضيء الفكرة السياسية الّتي يقدمها، وليعطي توجيهـه السياسـي صـدقاً واقعياً إضافة الى الصدق النظري... صدقاً واقعياً يوفّر للتوجيه السياسي حـرارة ووهجاً. إنه بهذا العمل «يؤنس» التوجيه السياسي، ويجعله بحيث يخالط القلب كما يوجه العقل.

التّاريخ في مجال الفكر

تمهيد

التّفكر هو التّأمل، والفِكر - بالكسر - اسم منه، وهو يستعمل - حسب ما ذكـره علماء اللّغة - للدلالة على معنيين:

أحدهما: القوة المودعة في الدماغ، الّذي هو مركز، التفكـير وإن كـان علينـا أن نعترف بأن لوضعية أعضاء أخرى في الجسم من حيث الصحة والمرض دخلاً في عملية التفكير. والفكر - بهذا المعنى - اسم لآلة التفكير.

ثانيهما: أثر التّفكّر، وهو ترتيب أمور في الذهن تتولّد منها معرفة جديدة، أو تؤّدي إلى تعميق وتوسيع معرفة قديمة. والفكر - بهذا المعنى - اسم لفعـل التّفكـير أو لعملية التّفكير.

هذا هو المعنى اللّغوي لكلمة تفكّر وفكر مع شرح وتوضيح.

وثمة معنى ثالث لهذه الكلمة غلب استعمال اللّفظ فيه في العصور الأخيرة، ولعلّـه دخل العربية من الإستعمالات الأوربية، وهو نفس الأفكار والمعلومات الّتي يجعلها الفكر - بالمعنى الأول - موضوعاً لعمله - الفكر بالمعنى اللّغوي الثاني -، فيقال: مثلاً، الفكر الإسلامي، والفكر المسيحي، والفكر الماركسي، والفكر الديني، فالفكر المادي... يراد من ذلك الأفكار والمناهج والمعلومات الّتي يتشكل منها ويتقوم بها مذهب أو فلسفة أو دين.

٦٢

والمقصود ببحثنا هنا هو هذا المعنى لكلمة فكر.

*

والفكر في الثّقافة الّتي تقوم شخصية كلّ أمة على قسمين: فكر حي، وفكر ميـت، والأول هو ما يطلق عليه لفظ (فكر) في عصرنا الحاضر، والثاني هو ما يطلـق عليه في عصرنا الحاضر مصطلح (تراث).

*

والتّراث في أصل اللّغة: الميراث. وقد وردت كلمة (تراث) في القرآن الكريم مرة

واحدة في قوله تعالى في خطاب المشركين:

«... وتأكُلُون التراثَ أكلاً لماً ...»١.

وقد استعملت كلمة «ميراث» في اللّغة العربية في الماديـات والمعنويـات. أمـا استعمالها في الماديات فأمثلته كثيرة ظاهرة. وأما استعمالها في المعنويات فقد ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع، هي الآيات التالية:

---

١ - «.. فَخلَفَ مِن بعدِهِم خلف ورثُوا الكِتابَ يَأخُذُونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقُولُون سيُغفَرُ لَنا ...»٢.
٢ - «... ثُمَّ أورَثنا الكِتابَ الّذِين اصطفينا مِن عِبادِنا: فمِنهُم ظالِم لِنفسِهِ، ومِنهُم مُقتصِد، ومِنهُم سابِق بِالخيرات بِإذنِ اللّهِ ...»٣.
٣ - «... وإنّ الّذِينَ أُورثُوا الكِتابَ مِن بعدِهِم لَفِي شكٍّ مِنهُ مُرِيبٍ»٤.
وقد استعملت هذه الكلمة في السنّة في المعنويّات أيضاً كما فيما رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنه رواه عن رسول اللّهِ (ص):
١ . سورة الفجر (مكيّة) رقم ٨٩ - الآية ١٩.
٢ . سورة الأعراف (مكيّة) رقم ٧ - الآية ١٦٩.
٣ . سورة فاطر (مكيّة) - رقم ٣٥ - الآية ٣٢.
٤ . سورة الشورى (مكيّة - رقم ٤٢) الآية: ١٤.

«... إن العلماء ورثةُ الأنبياءِ. إن الأنبياء لم يورِثوا دِيناراً ولا دِرهماً، ولكِن ورثوا العِلم، فمن أخذَ مِنه أخذَ بِحظ وافِرٍ»١.

وقد وردت مادة (و. ر. ث) في نهج البلاغة في مواضع كثـيرة بصيغـة الفعـل الماضي والفعل المضارع، وبصيغة الإسم (ميراث، تراث) وغيرهما، واسـتعملت في الماديات والمعنويات، فمن اسـتعمالها فـي المعنويـات قولـه: «لا مِـيراثَ كالأدبِ ..»٢ و«... العِلم وِراثَة كريمة ...»٣. واستعملها فـي المعنويـات فـي السلطة السياسية في قوله: «إن بِني أُمية لَيفوقُونني تُراث محمدٍ صلّى اللّـه عليـه وآله تفويقاً ...»٤ وقوله: «فصبرتُ وفِي العين قذى ... أرى تُراثِي نهباً ...»٥.

*

وعلى ضوء هذه الإستعمالات يمكن أن يقال أن التراث أو الميراث - بمعناه العام، لا بمعناه الإصطلاحي الفقهي - هو كلّ ما يخلفه سابق في الحياة لِلاحق لـه فـي الزمان، مهما بعد الزمان بالمورث، سواء في ذلك الماديات والمعنويات.

وإذن، فما يقع عليه اسم التراث أو الميراث شيء لم يكن في حوزة الوراث وإنّمـا انتقل إليه من غيره. وهو قد يكون في حاجة اليه وقد لا يكون في حاجة إليه. ومع

كونه في حاجة إليه فقد يعي حاجته إليه ويستعمله وينتفع به، وقد يعي حاجته إليه ولكنّه ينصرف عنه لسبب أو لآخر، وقد لا يعي حاجته إليه فيهمله ولا يعنـي به إلا باعتباره أثراً من الآثار الّتي تتّصل بأحبته وأهله الماضين ربما تكـون لـه قيمة عاطفية ولكن ليس له قيمة عملية في حياة الوارث.

وهذا يعني أن التراث أو الميراث ليس - بـالضرورة - جـزءاً مقومـاً للحيـاة الحاضرة تفسد بدونه لأنّه يشغل فيها حيزاً مهماً وأساساً، ويسد فيها حاجات ملحـة لا غنى عنها، وإنّما

---

١ . محمد بن يعقوب الكليني: الكافي ج ١ ص ٣٤.
٢ . نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ٥٤ و١١٣.
٣ . نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ٥.
٤ . نهج البلاغة - الخطبة رقم ٧٧.
٥ . نهج البلاغة - الخطبة رقم ٣.

قد يكون الأمر فيه هكذا، وقد يكون - في نظر الوارث - شيئاً يحسـن أن يقتنـى ويستعمل ولكن فقده لا يغير شيئاً من وضع الحياة الحاضرة ولا يدخل نقصاً هامـاً فيها. وقد يكون في نظر الوارث ذا قيمة عاطفيةٍ محضة لا يؤثّر فقده أبـداً. وقـد يكون في نظر الوارث عبأً على الحياة ومعوقاً لنموها ومانعاً من ازدهارها، ولـذا فهو يسعى إلى نبذه والتخلص منه والبراءة من آثاره.

هذا تحليل لمفهوم التراث أو الميراث في اللّغة العربية - بمعناه العـام لا بمعنـاه الإصطلاحي الفقهي الخاص.

وقد استعملت كلمة التراث في اللّغة العربية في العصور الأخـيرة علـى ألسِنـة الباحثين والأدباء والمفكرين للدلالة على آثار الفكر الإسلامي في السنّة وعلومهـا، والفقه وأصول الفقه، والتاريخ، والأدب، والفلسفة: وما إلى ذلك من الآثار الفكرية الّتي خلّفها المسلمون باللّغة العربية.

ذاك هو الفكر، وهذا هو التراث.

*

والفكر، في المفهوم الحضاري - إذن هو المعلومات والشرائـع والمناهـج والقيم الّتي تقوم شخصية الأمة الثقافية والحضارية، وتُعطيها سمتها المميزة لها عن الأمم الأخرى، ويرسم لها دورها في حركة التاريخ.

إن هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم تشكّل عقل الأمة وروحها وضميرها. وهي تنظر إلى الكون والحياة والإنسان والأمم الأخرى من خلال هذه المعلومـات والشرائع والمناهج والقيم، وتواجه مشاكلها ومسائل حياتها على ضـوء الحلـول والمواقف الّتي يحميها هذا الفكر. وإنتاجها العقلي النظري كلّه يكون مطبوعاً بطابع هذا الفكر، محتوياً روحه، ومستهدياً بالنور الّذي يشعه...

مثلاً: الماركسية هي فكر العالم الشيوعي. فهي تشكّـل عقـل شـعوبه وروحهـا وضميرها، وهي تميز هذه الشعوب عن العالم الرأسمالي بالسمات الّتي تطبع بهـا طريقة الحياة لدى هذه الشّعوب. كما إن النتاج الثقافي النظـري لهـذه الشّعـوب مرسوم

بالطّابع الخاص للماركسية، بل لقد طمح المنظرون السوفيات إلى طبع النظريـات العلمية الّتي تفسر بها المادة بالطابع الخاص للماركسية: هذا في العصر الحديث.

وقد كانت المسيحية في القرون الوسطى وما قبلها بالنّسبة إلى أوربـا علـى هـذه الشاكلة.. كما كانت الكونغو شيوعية بالنّسبة إلى الصين.. والهندوسية بالنّسبة إلـى الهند، والزردشتية بالنّسبة إلى إيران، والإسلام بالنسبة إلى العالم الإسـلامي منـذ ظهور الإسلام وإلى يومنا هذا..

ولكلّ فكر بؤرة يرتد اليها كل شيء باعتبارها مقياساً للصدى والأصالة والإستقامة، وينطلق منها كل شيء باعتبارها الذّخر الأكبر للأصول الأساس في التكوين الثقافي للأمة.

مثلاً: كتاب رأس المال للماركسية والشيوعية، والإنجيـل والتـوراة للمسيحيـة، والبهاجافاد - جيتا للهندوسية، والقرآن للإسلام. والآوستا للزردشية .. وهكذا يكون لكل فكر مركز أساس يتضمن الخطوط الكبرى والمبادئ المركزية لذلك الفكر.

هذا هو الفكر في المفهوم الحضاري.

*

أما التّراث في المفهوم الحضاري فهو مجرد ثقافة ومعرفة نظرية لا تبلغ في أكثر الأحيان ومعظم الحالات أن تبلغ مستوى كونها فكراً بالمعنى الّذي شـرحناه آنفاً، ولنقل: التّراث فكر ميت.

إن التراث لا يدخل في صلب ثقافة الأمة الّتي تغـذي عقلهـا العملـي وفعاليتهـا وحركيتها في مجرى التاريخ ، ولا يقوم وجودها، ولا ينير طريـق حياتهـا، ولا يميزها عن غيرها من الأمم، وبالإجمال: كلّ ما هو دور إيجابي للفكر في الأمـة منفي عن التّراث. إن التّراث شيء من بقايا الآباء والأجداد، كان صالحاً لحياتهـم فهو يمثّل هذه الحياة الماضية وأساليبها وألوانها، ولكنّه لا يصلح للحياة الحاضرة، أو لا يصلح أكثره للحياة الحاضرة، وإذا احتفظنا به ودرسناه وأقمنا له المؤسسات فليس لأجل أن نُقيم عليه حياتنا ونقوم به شخصيتنا كأمة، وإنما ذلك لما تربطنا به من صلات عاطفية، أو لأنه

يمثّل حلقة هامة في تاريخ نمونا، إن له قيمة عاطفية وقيمة أكاديميـة (نظريـة)، وليست له قيمة عملية، أو إن أكثره كذلك. ونحن ندرسه، ونحققه وننشره، ونحفظه لنعرف كيف كنا لا لنعرف كيف نكون ؟ ولنرى صورتنا القديمة لا لنرسم صورتنا الحاضرة أو لنرى كيف تكون صورتنا المستقبلة. إن التراث، في أحسن الحالات، شيء من أشياء القلب والعاطفة، وليس من أشياء العقل والعمل.

هذا هو التراث في المفهوم الحضاري.

*

وهنا أود أن أُثير مسألة شديدة الخطورة وذات أهمية بالغة جداً بالنّسبة إلينا نحـن المسلمين في هذا العصر، وهي أن الكثرة الساحقـة مـن المسلميـن المتعلميـن والمثقّفين على مناهج الغرب وأساليبه ينظرون إلى الإسلام - بما هو ثقافة ونظـام وحضارة - ويتعاملون معه على أنه تراث، أي فكر ميت، لا على أنّه فكر.

أما الكثرة الساحقة من المسلمين فهم بحمدِ اللّه ونعمته لا يزالـون يتعـاملون مـع الإسلام على أنّه فكرهم (لا تراثهم) وهم يحرصون ما وسعهم الحـرص علـى أن يقيموا حياتهم على هدى أحكامه وقيمه، وإن كان علينا أن نعترف أن الحياة الحديثة كثيراً ما تضطر الكثير منهم إلى تجاوز أحكام الإسلام، أو تغريهم بتجاوزها، لأنها

حياة قائمة على غير الإسلام، وتستمد مفاهيمها الفكرية، وقيمهـا الأخلاقيـة، ومقاييسها الجمالية، وأفكارها العملية من غير الإسلام. ولكن هذه الكثرة الساحقـة من المسلمين لا تزال تعتبر الإسلام - كما قلنا - (فكرها) وإن تجاوزته اضطراراً أو تهاوناً في الكثير أو القليل من شؤون حياتها. إنه عقيدتها، وشريعتها، وقيمها.

ونعود، بعد هذا الإستطراد، إلى شرح موقف المسلمين الّذين يتعاملون مع الإسلام على أنّه تراث لا فكر.

هم يرون أن الإسلام - لا بما هو عقيدة - وإنّما بما هو شريعة وقيم، فكر عصـر مضى، وأنّه بالنسبة إلى عصرنا هذا - حيث تشكّل حياتنـا الحضـارة الحديثـة، ومناهجها في التشريع، وقيمها - مجرد تراث، يمثّل مرحلة سـابقة فـي نمونـا تجاوزها تطور التاريخ، فليس

لنا والحال هذه أن نعتبره (فكرنا) أنّه (تراثنا) مبعث فخر لنـا، موضـوع حبنـا وتقديرنا، ولكنّه لا يصلح لأن يشكّل حياتنا، ويكون موضوع عملنا الّذي نبني عليه مناهجنا ونستمد منه قيمنا.

والمفكرون العرب المحدثون المعنيون بقضايا النهضة العربية كثيراً ما يستعمـلـون في التعبير عن الإسلام أو عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر الإسلامي كلمة (تراث)١ ذاهبين إلى أن هذا (التراث الإسلامي) ليس شأن عصرنا وليـس شـأن الإنسان العربي في هذا العصر، وإنّما هو شأن السلف وقد ورثناه عنهـم، ومـن المؤكّد أنّه ليس من الصالح ولا من الراجح أن نأخذه كلّه لنتمثّله في حياتنا مناهـج وتشريعات وقيماً لأنّه معطّل معوق لنمو هذه الحياة المعاصرة وازدهارها، ولكـن هل ننبذه كلّه فلا نعني بشيء منه، ونحفظه كأثر من آثار تاريخنـا، أو نخضعـه لمقياس انتقائي نأخذ بموجبه من هذا (التراث) ما يتفق مع حياتنا الحاضرة «والفكر المعاصر» وننبذ من هذا (التراث) ما لا يتوافق مع هـذا (الفكـر المعاصـر) أو يخالفه.

ولكن هؤلاء المفكرين على خطأ فادح في هذه المسألة الهامة، بـل المصيريـة لا بالنسبة إلى العرب وحدهم، بل بالنسبة إلى المسلمين جميعاً.

إن الإسلام لا يزال حتى الآن «فكر» المسلمين، والعرب منهـم، وسـيبقى فكـر

المسلمين جميعاً. ولم يبلغ الإسلام في قلوب وعقول المسلمين درجة من الضمور والتقلص أو الإندثار والنّسيان بحيث يكون «تراثاً» يحتاج إلى «إحياء» كالّذي حدث في أوروبا في عصر النّهضة بالنّسبة إلى التراث اليوناني - الروماني.

إن الإسلام لا يزال «حياً» مملوءاً بالحياة في قلوب وعقول المسلمين، ولا يزال قادراً على «تحريك» مئات الملايين من المسلمين في جميع أنحاء العالم نحو أهدافه العظيمة

---

١ . نشير هنا إلى أنّ بعض دُور النشر الكبرى في بعض البلاد العربية، ومنها ما هو تابع لمؤسسات ثقافية رسميّة، نشر كتباً في الفكر الإسلامي تحت عنوان (تراثنا) أو (سلسلة التراث) وغير ذلك من العناوين. هذا وعلينا أن ننبّه هنا إلى أنّه ليس كلّ من استعمل كلمة (تراث) في الدّلالة على الفكر الإسلامي يحمل على الفكر الإسلامي هذه النظرة، فثمة مفكرون وباحثون مسلمون مخلصون استعملوا كلمة (تراث) في الدّلالة على الفكر الاسلامي دون أن يقصدوا بها موقفاً فكرياً من (الفكر الإسلامي) يضعه في (التراث) بالمعنى الحضاري، وإنّما قصدوا بالتعبير مجرّد الدّلالة اللّغوية.

النبيلة، وإذن فهو لا يزال «فكر» هذه المئات من الملايين من البشر، وإنّما لا «يحركها» أو «لا تتحرك» وفقاً لمناهجه بسبب وجود الموانع الخارجية القاهرة والمعوقات الشالّة لحركة المسلمين من خلال إسلامهم، وهي قوى الحضارة المادية الّتي استعمرت بلاد المسلمين وأقصت الإسلام عن مركز القيادة وحلّت محله في هذا المركز.

وإذن، فالإسلام ليس «تراثاً» ميتاً نختلف على «إحيائه» «وعدم» «إحيائه» أو «إحياء» بعضه مما يتلاءم مع عصرنا كما يقولون... إنّه «فكر حي» وما يدعوننا إليه هو «إماتة هذا الفكر الحي» لإحلال فكر آخر غريب محله هو فكر الحضارة المادية.

وقد أفلحت قوى الحضارة المادية لا في «إماتة الإسلام» فهو لا يزال حياً كما قلنا، ولكن في فرض نفسها على حياة المسلمين الّذين يحملون في قلوبهم وعقولهم إسلاماً حياً قادراً على التحريك ولكنه «ممنوع عن التحريك» وليس «عاجزاً» عنه. واستمرار مفكرينا المتأثرين بهذه الحضارة المادية في جهودهم لفرضها على واقع

حياة المسلمين وعزل الإسلام عن هذه الحياة لن يؤدي إلى (إماتة الإسـلام) كما لن يؤدي إلى «تحرير» المسلم أو «العربي»، وإنما يؤدي إلى مزيدٍ من التمزق الداخلي والأزمات الحضارية لإنسان ينقسم على نفسه، موزع الذّات بين ضرورات حياته اليومية وبين قناعاته العقلية والنفسية والأخلاقية والعاطفية. وهذا ما يؤدي - كما أدى بالفعل في العالم الإسلامي كلّه ومنه العالم العربي - إلى فقدان الفعاليـة والإيجابية في مواجهة تحديات الحياة، ويؤدي من ثم إلى مزيد من التّخلف والعجز عن مجاراة حركة التقدم لدى الأمم الأخرى وهكذا يسيء هؤلاء المفكـرون مـن حيث يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، فبدلاً من إتاحة الفرصة أمام الإنسان العربـي للتغلّب على مصاعبه وعوامل تخلّصه يضيف هؤلاء المفكرون سبباً آخر للتخلـف يزيد الأمر سوءاً لأنّه يقدم تحت شعار التقدم، وهكذا يكون حال الإنسان العربي في هذه الحالة حالة القطّ الّذي يلحس المبرد الذي يغري لسانه وينزف دمه وهو يحسب أنّه يغذي نفسه بالمبرد الذّي يغريه في حقيقة الحال.

*

٦٩

رأينا أن نقدم للبحث عن التّاريخ في مجال الفكر عند الإمام علي (ع) بهذا التمهيد لشعورنا العميق بخطورة هذه المسألة، وموقفنا من الفكر الإسـلامي، وضـرورة تصحيح النظرة السائدة إلى هذا الفكر الذي ملاك وجودنا كلّه.

١ ـ النّبوّات

أ - بداية العصر التّاريخي للإنسان:

يبدو لنا من كلمات أمير المؤمنين علي (ع) أن العهد التـاريخي للإنسانيـة بـدأ بظاهرة وجود النبوات في المجتمع البشري. هذه النبوات الّتي تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل، ووجود إنساني أكمل.

ما قبل التاريخ، إذن، بالنسبة إلى الإنسانية، هو ما قبـل النبـوات، حيـث كانـت الإنسانية تعيش في حالة البراءة الفطرية، وكانت النفس الإنسانية لا تزال عـذراء ساذجة، بدائية، خالية من أي تعليم... ولذا فلم تكن لدى الإنسانية في فترة ما قبـل التاريخ هذه تجارب ومعاناة يعود عرضها بالفائدة التعليميـة والتربويـة لمجتمـع متحضر، تام التكوين، على درجة عالية من التعقيد، يفترض فيه أنّه يبـنى علـى هدى خاتمة الرسالات، وخلاصة النبوات، وهو مجتمع الأمة الإسلامية.

ولذا لا نجد في جميع الكلام الصادر عن أمير المؤمنين حـديثاً عمـا قبـل عهـد النبوات، ومن هنا استنتاجنا أنّه يعتبر إشراق النبوة وظهور الأنبياء في المجتمعات البشرية بداية العصر التاريخي للبشرية.

وقد بين اللّه تعالى في القرآن الكريم تاريخ بداية عهد النّبوات في المجتمع البشري فقال سبحانه وتعالى:

«كان النّاس أمةً واحِدةً، فبعثَ اللهُ النّبيين مبشّرين ومنذِرين، وأنزلَ معهم الكِتـاب بِالحق

٧٢

لِيحكُم بين النّاسِ فِيما اختلفُوا فِيهِ، وما اختلفَ فِيهِ إلا الذِين أُوتُوه مِن بعدِ ما جاءتهم البيناتُ بغياً بينهم، فهدى اللهُ الّذِين آمنوا لِما اختلفُوا فِيهِ مِن الحق بِإذنِهِ، واللّه يهدِي من يشاء إلى صِراطٍ مستقِيمٍ»١.

«كان النّاس أمةً واحِدةً»... كان إنسان ما قبل التّاريخ، ما قبل النّبوات يحيـا فـي وحدة فطرية قائمة على أساس وحدة المصالح ووحدة الدم من جهة، وعلى عامـل سلبي من جهة أخرى هو عدم وجود ما يهدد حالة السكون والخمود الّتي تميز هذه

الحياة نظراً لبساطة الحاجات وتوفّر ما يلبيها ويشبعها في الطبيعة دون حاجة إلى مغالبة وصراع.

ولكن حركة الحياة النامية المتصاعدة، وتزايد عدد أفراد النوع، وتفاوت القـدرات العقلية والجسمية... كل ذلك وما يشبهه من عوامل الإنقسام والتعقيد أدى إلى نشوء خلافات داخل الجماعة البشرية النامية، ومغالبة وصراع بين أفرادهـا وفئاتهـا... وربما كان من مظاهر ذلك أو أول مظهر من مظاهر ذلك خلقّيات الجريمة الأولى بين ابنَي آدم حيث قتل أحدهما أخاه، وقد قص اللّه تعالى نبأهما في القرآن الكريم[٢] ، وترددنا في أن هذه الجريمة هي من مظاهر ذلك أو أنّها أول مظهر من مظاهر ذلك ناشئ من وجود احتمال أن «آدم» القرآني لا يمثّل بداية الجنس البشري علـى الأرض، وإنّما يمثّل بداية النسل البشري الموجود الآن، ويكون، على هذا، قد وجد نسل سابق على النسل الموجود الآن من بداية يمثّلها آدم سابق على آدم القرآنـي، واللّه تعالى أعلم وعلى هذا تكون آية سورة البقرة (٢١٣) موضوع البحث تـؤرخ لفترة من عمر البشرية سابقة على الفترة التي بدأت بآدم القرآني.

وعلى أي حال، ففي هذه المرحلة من نمو الإنسان لم تعد وحدة الدم كافية لتكويـن وحدة المجتمع، ولم تعد ثمة مصالح واحدة أو متّفقة، ولم تعـد النفـس الإنسانيـة عذراء، ساذجة، بدائية... ويستحيل على النوع الإنساني في أن ينمو - كمـا أراد اللّه في أوضاع كهذه تقوده فيها غرائزه فقط، ولا مـرجح لـه فـي خصوماتـه ومراعاته إلا غرائزه... في هذه

---

١ . سورة البقرة (مدنيّة - ٢) الآية: ٢١٣.
٢ . سورة المائدة (مدنيّة - ٥) الآيات: ٢٧ - ٣١.

المرحلة من نمو الإنسان قضت حكمة اللّه ورحمته بإرسال الأنبياء حـاملين إلـى الإنسانية منهاج هدايتها الّذي يخرجها من عهد الغريزة إلى عهد العقل ومن منطق الصراع الّذي مرجعه الغريزة والقوة إلى منطق النظام ومرجعية القانون.

وقد حقّق الإنسان، بإشراق عهد النبوات، قفزة نوعية عظيمة وحاسمة في تطـوره

نحو الأعلى وتكامله، فقد خرج المجتمع البشري بالنبوات عن كونـه تكوينـاً حيوانياً - بيولوجياً إلى كونه ظاهرة عقلية - روحية.. لقد عقلنت النبوات المجتمع الإنساني وروحنته.

وحقّقت النّبوات للإنسان مشروع وحدة أرقى من وحدته الدموية البيولوجية الّتـي كانت سائدة قبل عهد الخلافات والإنقسامات والصراع... وهي الوحدة القائمة على أساس المعتقد، وبذلك تطورت العلاقات الإنسانية مرتفعة من علاقات المادة إلـى علاقات المعاني... بعهد النبوات بدأ عهد الإنسان...

وتمضي الآية الكريمة، بعد التأريخ لهذه المرحلة، في بيان أن الإختلافـات الّتـي نشأت في النوع الإنساني، بعد إشراق عهد النّبوات، غدت اختلافات فـي المعنـى اختلافات في الدين والمعتقد، إذ أن أسباب الصراع والبغي من بعض الناس علـى بعض، واستغلال الأقوياء للضعفاء لم تلغ بالدين الّذي جاءت بـه النبـوات، بـل استمرت وتنوعت، ولكن المرجع لم يعد الغريزة وإنما غدا القانون هـو المرجـع، وإذا كان من المستحيل على الإنسانية أن تجد قاعدة لوحدتها وتعاونها عن طريـق الغرائز، وعلاقات المادة، فإن من الممكن لها أن تجد قاعدة ثابتة لوحدتها وتعاونها وتكاملها عن طريق القانون الذي يتضمنه الدين وغير القانون مـن تربيـة الديـن وإغنائه لروحية الإنسان وأخلاقيته، وذلك حين يستبدل الإنسـان علاقـات المـادة بعلاقات المعنى. وعدم بلوغ الإنسانية إلى هذا المرتقى ليـس ناشـئاً، فـي عهـد النّبوات، من فقدان الوسائل، وإنما هو ناشئ من سوء الاختيار البشري، ومن سوء استخدام الحرية المعطاة.

لقد أفضنا في الحديث عن بعض جوانب الآية الكريمة لنضيء بها الفكرة التي عبر عنها الإمام عليه السلام في شأن النبوات وبداية العصر التاريخي للإنسان إذ قال:

«.. واصطفى سبحانَه... أنبياء أخذَ علَى الوحِي مِيثاقهم، وعلـى تبلِيـغ الرسـالةِ أمانتهم، لما بدل أكثر خلقِهِ عهد اللهِ إليهم، فجهلُوا حقه، واتخـذُوا الأنـداد معـه، واجتالتهم١ الشياطِين عن معرفته، واقتطعتهم عن عِبادتِهِ، فبعثَ فِيهم رسلَه، وواتر ٢ إليهم أنبياءه،... ولم يخل اللهُ سبحانه خلقه من نبي مرسلٍ أو كِتابٍ مـنزلٍ، أو حجةٍ لازمةٍ أو محجةٍ٣ قائمةٍ: رسل لا تُقَصر بِهم قِلّةُ عددِهِم، ولا كثرةُ المكذبيـن

لهم مِن سابقٍ سمي له من بعده، أو غابرٍ عرفه من قبله، على ذلك نسلتِ القُرون، ومضتِ الدهور، وسلفتِ الآباء، وخلفتِ الأبناء»٤.

وهكذا يعبر الإمام عن جوانب من أفق الآية الكريمة، فحين تعقّدت الحياة البشرية نتيجة لنمو المجتمع وتشابك العلاقات فيه، وحين أدى ذلك إلى تصادم بين ما تقضي به الحياة الإجتماعية من تعاون وما تدفع إليه الغريزة والروح الفردية من استئثار. وحين ترافق هذا مع الإنحراف عن مقتضيات الفطرة المستقيمة العذراء - وإن تكن في ذلك الحين ساذجة - في إدراك الخالق سبحانه وتعالى... حين حدث في حياة الإنسانية كل هذا اقتضى لطف اللّه ورحمته إرسال الأنبياء ليضيئوا عقول الناس، ويرتفعوا بالمجتمع من علاقات المادة - البيولوجيا - إلى علاقات المعنى والقانون.

*

وقد تواترت حركة النّبوات في تاريخ البشرية: تضيء عقولها، وتصوغ مفاهيمها، تغني حياتها، وتضعها رويداً رويداً على طريق التكامل... تواترت هذه الحركة في خطّ تصاعدي نحو الأكمل والأفضل والأجمل، مستجيبة في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري لحاجات تلك المرحلة، باذرة فيها بذور نمو آخر في المستقبل يهيئ لمرحلة من التقدم والتكامل جديدة.. إلى أن بلغت حركة النبوات ذروتها في الرسالة الخاتمة الجامعة: رسالة الإسلام على لسان خاتم النبيين محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

---

١ . اجتالتهم: صرفتهم عن اللّه.
٢ . واتر: تابع.. أرسل الأنبياء يتبع أحدهم الآخر.
٣ . المحجة: الطريق المستقيمة الواضحة، يريد هنا الشّريعة الّتي تتبع.
٤ . نهج البلاغة - الخطبة الأولى.

قال عليه السلام:

«... إلى أن بعث اللّه سبحانه محمداً رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وآلِهِ وسلم لإنجاز عِدتِهِ، وإتمامِ نُبوتِهِ، مأخُوذاً على النّبيين مِثاقُه، مشهورةً سِماتُه١، كريماً مِيلادُه»٢.

وقال في خطبة أخرى:

«.. بل تعاهدهم - النّاس - بِالحجج على ألسن الخِيرة مِن أنبيائِهِ ومتحمِلي ودائِـع رِسالاتِهِ قَرناً فقرناً، حتى تمت بِنَبِينَا محمدٍ صلى اللّه عليهِ وآلِهِ وسلم حجتُه، وبلغَ المقطع٣ عذره ونُذُره..»٤.

ب - وظيفة النّبوة

ما وظيفة النبوة في المجتمع البشري ؟

إنّها فيما نفهم من كلمات أمير المؤمنين تتلخص في هدفين كبيرين:

الأول:

وهو أهمهما، إحياء الفطرة الإنسانية الصافية المستقيمة، هذه الفطرة الّتي يهتدي بها الإنسان إلى الإيمان الصحيح باللّه سبحانه وتعالى، ويدرك بها كونه مخلوقاً للّـه، ومن ثم يدرك موقعه في الكون. ويترتب على هذا الإيمان الواعي تصحيح المسار الإنساني في طريق التكامل بجعل حركة الإنسان التاريخية وثيقة الصلـة بعقيـدة التوحيد ومتفرعاتها.

الثاني:

وهو، من بعض الوجوه نتيجة للأول، تكوين الحوافز الروحية والنّفسية

---

١ . السّمة: العلامة، والمراد علامات النّبيّ محمّدٍ الّتي بشَر بها الأنبياء السابقون.
٢ . نهج البلاغة - الخطبة الأولى.
٣ . المقطع: النّهاية الّتي ليس عليها مزيد. أي أنّ أعذار اللّه وأنذاره تلقيا نهايتهما برسالة محمد (ص).
٤ . نهج البلاغة - خطبة الأشباح، رقم: ٩١.

والإجتماعية لإنجاز عملية التقدم العقلي والمادي والإجتماعي في الحياة في صيغة تضمن التوازن بين النمو الروحي - الأخلاقي والنمو المادي. وهذه الصيغة الّتـي توازن بين اتجاهي النمو والنّشاط الإنساني هي الدين.

وهذه هي وظيفة النبوة كما تفهم من القرآن الكريم والسنّة الشّريفة.

فالنّبي يخرج الناس من الظلمات إلى النّور في عقائـدهم وعلاقـاتهم الإجتماعيـة والسياسية، ويصحح نظرتهم إلى موقعهم في الكون، ومن ثم يوجد الإنسان الصالح

الّذي يسعى نحو التكامل فيحقّق لنفسه التقدم المتوازن في الشكل والمضمون، في الروح والمادة.

وليس النّبي مخترعاً كبيراً ومخططاً عظيماً يبدع الآلات والمؤسسات، وليست النبوة مركزاً للأبحاث والدراسات وما إلى ذلك.

إن الّذي يخترع الآلات وينشئ المؤسسات ويبتكر الخطط هو عقل الإنسان بعد أن تتوفّر له دواعي النمو والإنطلاق. فاذا تآخت معها قيم الروح والأخلاق حقق الإنسان إنجازات مادية وتنظيمية تتّفق مع مقتضيات الإيمان، وتوفّر للإنسان حياة سعيدة طيبة، ورضوان اللّه والنجاة في الآخرة. وإذا لم تتآخ قيم الروح والأخلاق مع دواعي النمو والإنطلاق في التعامل مع الكون المادي حقّق الإنسان إنجازات مادية وتنظيمية توفّر له القوة واللّذّة والرخاء دون أن توفّر له السعادة وطيب بالحياة.

*

وفهمنا لوظيفة النبوة - كما تعكسها نصوص نهج البلاغة - مستفاد من النصوص الّتي تحدث فيها الإمام عن حالة العالم عشية بعثة النبي محمد (ص)، ذلك لأن النصوص الّتي تؤرخ للنّبوات السابقة لنبوة محمد (ص) نادرة من جهة، وتشبه، من جهة أخرى، أن تكون في معظمها مجرد إشارات يغلب عليها طابع الإجمال.

ولكن هذا لا يؤثر شيئاً على سلامة فهمنا لوظيفة النّبوة، فإنها وظيفة واحدة منذ بداية حركة النبوات في فجر التاريخ الإنساني إلى ختام النبوات بنبوة محمد (ص) ورسالة الإسلام. ولا توجد اختلافات جوهرية بين النبوات من حيث وظيفتها

الأساسية، والإختلاف الأساسي الوحيد فيما بينها هو في درجة الشّمول والإتساع من حيث مساحة شمول التشريع للنشاط البشري من جهة، ومن حيث عموم الرسالات بالنسبة إلى الشّعوب من جهة أخرى.

*

قال عليه السلام:

«... فَبعثَ فِيهم رسلَه، وواتر إليهم أنبياءه لِيستأدوهم مِيثاق فِطرتِه، ويذكروهم منسِي نِعمتِهِ، ويحتجوا عليهِم بِالتّبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آياتِ

المقدِرةِ: مِن سقفٍ فوقهم مرفُوعٍ، ومِهادٍ تحتهم موضوعٍ، ومعاِيش تُحييهـم، وآجالٍ تُفنِيهم وأوصابٍ[1] تُهرمهم، وأحداثٍ تتابع عليهم..»[2].

إحتوى هذا النّص الّذي يؤرخ للنّبوات السابقة على القضايا التّالية في معرض بيان الغاية من إرسال الأنبياء:

١ - ميثاق الفطرة:

وهذه القضية تعني مسألة الإيمان باللّه تعالى، وما يتفرع عن هـذا الإيمـان مـن قضايا أساسية تنبع منه وتتصل بكافة شؤون الحياة.

وما عبر عنه الإمام هنا وفي مواضع أخرى من خطب وتوجيهات هو تعبير عـن حقيقة كبرى من الحقائق القرآنية، ورد النّبي عليها أو الإشارة إليها في عدة آيـات منها قوله تعالى:

«وإذ أخذَ ربك مِن بني آدم مِن ظُهورِهِم ذُريتهم وأشهدهم على أنفُسِهـم: ألسـتُ بِربكُم ؟ قالُوا: بلى شهدنا، أن تقُولُوا يوم القِيامةِ إنا كُنّا عن هذا غافِلين. أو تقُولُـوا إنما أشرك آباؤُنا مِن قبلُ، وكُنا ذُريةً مِن بعدِهِم، أفتُهلكُنا بِما فعلَ المبطِلُون»[3].

---

١ . الأوصاب: المَتاعِب.
٢ . نهج البلاغة: الخطبة الأولى.
٣ . سورة الأعراف (مكية - ٧) الآية: ١٧٢ - ١٧٣.

وقد تكرر ذكر هذه القضية الإيمانية الكبرى في جميع النصوص الـتي أرخ فيهـا الإمام للنبوات.

٢ - إثارة دفائن العقول:

وهذه القضية تعني بعث القوى العقلية والنّفسية في الإنسان لإنجاز عمليـة التقـدم الصحيح والتغيير الإيجابي في المجتمع عن طريق الحركة التاريخيـة المستبطنـة للوعي الإيماني المستقيم.

٣ - جعل الطّبيعة موضوعاً للبحث والنظرة:

هذه القضية دلّ عليها قوله: «... ويروهم آياتِ المقدِرةِ...».

وهذه القضية تخدم القضيتين الأوليين، فإن مراقبة الطبيعة لفهمها، والتعامـل معها واكتشافها تعزز قضية الإيمان لأنها تقدم مزيداً من الأدلّة التجريبية على مـا أدركته الفطرة السليمة من قضايا الألوهة. كذلك يعين التعامل مع الطبيعة بصورة مباشرة على إنجاز عملية التقدم، بل شرط أساسي لإنجاز التقدم المادي، وإذ تتخـذ قضية الإيمان في ذات الإنسان مع حركته التاريخية في الطّبيعة والمجتمع فيكـون تقدم على هدى الإيمان وأخلاقيات الروح والعقل، ويكون إيمان يستجيـب للحيـاة الدنيا ولا يقف منها موقف الرفض والعداء.

*

في نص آخر أرخ الإمام للعالم حين بعثة النبي محمد (ص) فقال:

«... إلى أن بعثَ اللّه سبحانَه محمداً (ص)... وَأهلُ الأرض يومئِذٍ مِلَلٌ متفرقـة، وأهواء منتَشِرة، وطرائقُ متَشتتَة، بين مشَبهٍ للّه بِخلقِهِ أو ملحِدٍ فِي اسمِهِ، أو مشِيرٍ إلى غيرِهِ، فهداهم بِهِ مِن الضلالَةِ، وَأنقذَهم بِمكانِهِ مِن الجهالَةِ...»١.

وقال في نص ثانٍ:

---

١ . نهج البلاغة - الخطبة الأولى.

«بعثه والنّاس ضلال فِي حيرةً، وحاطِبون١ فِي فِتنـةٍ، قـدِ اسـتهوتهم الأهـواء، واستنزلتهم الكِبرياء٢، واستخفتهم٣ الجاهِليةُ الجهلاء. حيارى فِي زلزالٍ مِن الأمرِ وبلاءٍ مِن الجهل، فبالغ (ص) فِي النّصِيحةِ، ومضى على الطّرِيقـة، ودعـا إلـى الحِكمةِ والموعِظةِ الحسنَةِ»٤.

وقال في نص ثالث:

«وَأشهد أن محمداً عبده ورسولُه، أرسله بِالدين المشهور... والنّاس فِي فِتنٍ انجذم٥ فِيها حبلُ الدين، وتزعزعت سوارِي٦ اليقِن، واختلف النّجـر٧ وتشتـت الأمـر، وضاقَ المخرج وعمِي المصدر، فالهدى خامِل والعمى شامِل، عصِـي الرحمـان ونُصِر الشّيطان، وخُذِلَ الإيمان، فانهارت دعائمه، وتنَكّرت معالِمه، ودرست سبلُه،

وعفت شُركُه٨ أطاعوا الشّيطان فسلكُوا مسالِكه، ووردوا مناهِله٩، بِهم سارت أعلامه، وقام لِواؤُه، فِي فِتنٍ داستهم بِأخفافِها، ووطِئتهم بِأظلافِها وقامت على سنابِكِها١٠ فهم فِيها تائهون... حائرون... جاهِلُون... مفتُونُون...»١١.

أشار الإمام في هذه النّصوص إلى وجوه الفساد الّتي كان يعاني منها العالم عشية بعثة رسول اللّه (ص)، وهي وجوه الفساد الكبرى في كلّ عصر وفي كلّ أمة، فإصلاحها هو وظيفة النّبوة في حركتها الصاعدة منذ بدأت في مستهلّ التاريخ البشري إلى أن ختمت بمحمد (ص).

---

١ . الحاطب هو الّذي يجمع الحطب، يقال لمن يأخذ بالصّواب والخطأ دون تمييز: حاطب ليل، شبه للفتنة باللّيل الّذي تلتبس فيه الأشياء لظلامه حيث أنّ الحق يلتبس فيها بالباطل.
٢ . استزلّتهم: أوقعتهُم الكبرياءُ فِي الزّلل والسّقوطِ، يعني بذلك فساد حياتهم الإجتماعية.
٣ . استخفّتهُم: جعلتهُم طائشين مُندفِعين وراء شهواتِهم الجسدية والنفسية دون كابح ورادع.
٤ . نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٩٥.
٥ . انجذم: انقطع.
٦ . السّارية: هي العمود، يدعم بها السقف، والجمع سوارٍ.
٧ . النّجر: الأصل، ومثله: النجار.
٨ . درست واندرست بمعنى زالت وانطمست. والشّرك - بضم الرّاء - جمع شراك، وعفت شركه بمعنى انطمست.
٩ . المناهل: جمع منهل، مورد النهر.
١٠ . الأخفاف جمع خُفّ، وهو للبعير كالقدم للإنسان، والأظلاف جمع ظِلْف للبقر والشّاء. والسّنابك جمع سُنبك: طرف الحافر.
١١ . نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢.

الأول:

الضلال في العقيدة، فَالنّاس ضلال فِي حيرةٍ... وحاطِبون فِي فتنَةٍ، وهم حائرون لأنّه حيث لا يستقر الإنسان على عقيدة أو يؤدي به الفساد العام إلى عقيدة باطلة، فإنّه يشعر بالضياع ويشعر بانعدام الهدف... إنعدام المعنى من وجوده، يشعر بالعبث حين يواجه نفسه بسؤال: من أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ ما المعنى لوجودي ؟ ... وهكذا يمضي هذا الإنسان الضائع في التماس الجواب حيث لا جواب، لأنّه «.. بين مشبه للّه بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره».

الثّاني:

الفساد السياسي والإجتماعي، فالناس قد أوقعتهم كبرياؤهم الّتي لا مبرر لها في الزلل والسقوط الحضاري، فحملت أقوياءهم على احتقار ضعفائهم وفقرائهم...

وخاصتهم إلى الإستهانة بعامتهم، فهانت كرامة الإنسان من حيث هو إنسان، وغدا مقياس الكرامة خاضعاً لعوامل غير إنسانية: للثّروة، أو للقوة، أو للنسب، وما إليها. لقد غدا الناس - نتيجة لذلك مللاً متفرقةً متناحرةً، لكلّ ملّة مذهب وطريـق، ولكلّ فئة هوى واتجاه، ولكلّ فريق منهج وغاية، والكل مفتون برأيه، مأخوذ بهواه، يعمل على شاكلته.

والنّبوة تعالج وجوه الفساد كلّها في الإنسان والمجتمع، في الـروح وفـي المـادة، والمؤسسات لتحقق الغاية العظيمة النبيلة، وهي تكوين الإنسان المتكامل.

وقد أعلن الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين هدفهم هذا على مدى التـاريخ، كـلّ واحد منهم في المحيط الذي بعث إليه في الزمان الّذي كان فيه.. إلـى أن ختمـت النبوة بمحمد (ص) فكان هذا الهدف العظيم بحجم امتداد الرسالة الخاتمة في الزمان والمكان على مستوى البشرية كلّها وعلى مدى المستقبل كله... إلى نهاية الزمان: «فبالغ (ص) في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمـة والموعظـة الحسنة»... «... فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة».

وقد أثمر جهد الأنبياء العظيم النبيل وجهادهم ومن اتبعهم وجرى على سنتهم -

أثمر تحقيق هذا الهدف العظيم الذي هو وضع الإنسانية على طريق التكامل.

وربما كان هذا القول مثيراً للدهشة والتّعجب، والتّساؤل:

كيف حقّق الأنبياء الكرام هدفهم هذا ولم يؤمن بهم إلا القليل، وأعرض عنهم أكثر الناس، بل حاربوهم ورفضوهم.. ؟

إن هدف النبوة قد تحقق في كلّ عصر، وعلى عهد كلّ نبي في صورتين:

إحداهما: فيمن آمن بالنّبي وصدق به واتبع منهاجه، فـالتزم فـي حياتـه العامـة والخاصة بالعقيدة والشريعة اللّتين اشتملت عليهما رسالته.

والصورة الأخرى: تتمثّل في الجو الثّقافي والروحي العام الّذي اشـاعته الرسـالة النّبوية في المجتمع نتيجة لتبليغ النبي وأتباعه، وللصراع الفكري والإجتماعي الّذي ولّدته الرسالة في المجتمع، فإن هذا المناخ الثقافي يترك آثـاره بـلا شـك علـى المفاهيم والمؤسسات والقيم والقناعات الّتي تسود المجتمع، ويدفع بها نحو التغييـر بصورة لا شعورية، فينتقل المجتمع إلى حالة أفضل في علاقاته وقيمه ومؤسـساته

وحوافز العمل فيه، وإن كان أكثر هذا المجتمع كافراً برسالة النّبي.

ومن هنا كان الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين هم آبـاء الحضـارة الإنسانيـة والمدنية الإنسانية. وما من خير بلغته وتمتعت به البشرية في عقولهـا وأذواقهـا وقيمها ومؤسساتها وحوافز العمل من أجل التقدم المادي عندها إلا وللأنبيـاء فيـه فضل كبير، لأنّهم - على مدى التاريخ - أشاعوا، بما بثّوه من الوحي الإلهي فـي الناس، وحدة جديدة في كلّ مجتمع تنبثّ كالنّور... كالعافية فيه فتضيء، بـدرجات متفاوتة، مناطق الظلمة، وتلمس - بدرجات متفاوتة - مناطق البـؤس والمـرض فيه. وكان تأثير هذه الروح النبوية متفاوتاً بنسبة مقاومة قوى الشر حين تعي درجة تأثير الخير النبوي، وبقاء هذا الخير حراً في التأثير حين تغفل قوى الشرعيـة أو ترى لنفسها مصلحة فيه.

وهكذا، فمن هذا المنظور نفهم أن كلّ نبي قد هدى اللّه به الناس مـن الضلالـة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة. فهم صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين آباء الإنسانية الكرام، وآباء الحضارة العظام.

٨٢

وهذا نص آخر يضيء به الإمام جانباً آخر من جوانب وظيفة النبوة فـي نطـاق الهدفين العظيمين، قال عليه السلام:

«قَد صرفَت نحوه أفئدةُ الأبرار، وثُنِيت إليهِ أزمةُ الأبصار. دفن اللهُ بِهِ الضغائن١ وأَطفأ بِهِ الثوائر٢. ألفَ بِهِ إخواناً، وفرقَ بِهِ أقراناً. أعز بِهِ الذلّةَ، وأذَل بِهِ العِزة» ٣.

في هذا النّص كشف الإمام عن عمل النبوة في تغيير القيم السائدة في المجتمع، هذه القيم الّتي تحكم وتوجه العلاقات داخل المجتمع بين فئاته وأفراده، وإبـدالها بقيـم أخرى متّسقة في طبيعتها مع طبيعة الرسالة النبوية لأنها مستمدة منها. وما يترتب على ذلك من تغير في المفاهيم والقناعات، ومن تبدل في نوع العلاقات نتيجة لتبدل القيم الجاهلية بالقيم النبوية.

لقد ثنيت أزمة الأبصار نحو الرسول الأكرم (ص) كما كانت تثنى نحو كل نبي في مجتمعه، لأنه قد أثار اهتمام الناس كلّهم، وأوجد هزة راحت تتداح على المجتمـع كلّه وتنفذ في أعماقه. وهذه الفكرة تضيء التحليل الّذي بينا فيه آنفاً أن أثر النبـوة

الخيرة لا يقتصر على المؤمنين بالنبي ورسالته وحدهم، وإنّما يتعداهم ليشمل ببركاته المجتمع كله.

لقد أدت القيم الجديدة الّتي جاء بها النّبي إلى تغيير المفاهيم، ومن ثم إلى تغيير عميق وجذري في العلاقات الإجتماعية بين الأفراد والفئات، وإلى إحداث التّبدلات الإجتماعية.

لقد دفنت به الضغائن، لأن أسباب تولّدها قد زالت، ومن ثم فقد زالت أسباب تفجرها فزالت الثوائر.

لقد نعم المجتمع كلّه بدرجة عالية من الإستقرار والطمأنينة بعد أن انخفضت إلى أدنى الدرجات مظاهر العنف والتوتر فيه نتيجة لتبدل المفاهيم والقيم الّتي كانت

---

١ . الضّغائن: الأحقاد المكتومة.
٢ . الثّوائر: الأحقاد المتفجّرة في أعمال عدائية عنفية ومعارك.
٣ . نهج البلاغة، رقم الخطبة ٩٦.

سائدة فيه بمفاهيم وقيم أخرى بثّتها النبوة.

وقد أدت القيم الجديدة إلى إيجاد علاقات جديدة:

فألّف اللّه بالنبي... بالقيم الّتي بشّر بها وأذاعها في الناس، إخواناً في الإيمان، وفرقت هذه القيم الإيمانية بين أقران اختلفت بهم الطريق حين هتف صوت النبوة في المجتمع، فسلك بعضهم طريق الإيمان وبقي الآخر على طريقه القديمة، وقيمه القديمة، طريق الجاهلية وقيم الجاهلية.

كما أدت هذه القيم الجديدة إلى تغيير في المراتب الإجتماعية، لأن القيم القديمة التي كانت تجعل أساس الترتيب في البنية الإجتماعية بين الأشخاص أو الفئات متمثلاً في المال، أو السلالة والنسب، أو القوة الحربية... هذه القيم قد زالت وحلّت محلها قيمة جديدة غدت هي الأساس الّذي يقوم عليه الترتيب الإجتماعي، وهي التّقوى١، ومن ثم فقد أعز اللّه بالنبي... بالقيم الّتي جاء بها الذّلة الّتي كانت تفرضها القيم الجاهلية القديمة على الفقراء والمستضعفين، وأذلّ به العزة الّتي كانت تنشأ من قيم

غير إيمانية.

من تاريخنا الإسلامي تحفل السيرة النبوية بمئات من الشّواهد والنّماذج.

فالأذلاء في الجاهلية كعمار بن ياسر وبلال الحبشي غدوا أعـزاء فـي المجتمـع الجديد، لأن القيم الجاهلية الّتي كانت تفرض عليهم أن يكونوا أذلاء فـي مرتبـة اجتماعية متدنية قد زالت بالإسلام. وجاء الإسلام بقيم جديدة غيرت مـوقعهم فـي المجتمع فجعلتهم من النخبة، والأعزاء في الجاهلية غدوا أذلاء لأن القيم الّتي كانوا يتكئون عليها ويستمدون منها اعتبارهم الإجتماعي ويتبوؤن مركز النخبة فيـه... هذه القيم قد زالت بالإسلام وحلّت محلّها قيمة جديدة هي التقوى، وحيث أنهـم لـم يتحلّوا بهذه القيمة الجديدة فقد غدوا من الأذلاء.

*

١ - في شرح مفهوم التقوى الإسلامي وبيان مكوناتـه وأبعـاده راجـع كتابنـا (دراسات في نهج البلاغة) فصل: المجتمع والطبقات الإجتماعية.

٨٤

وثمة نصوص في نهج البلاغة تحدث فيها الإمام عن حالة العرب بالنّسبة إلى تأثير النبوة في أوضاعهم الحياتية والمعنوية.

ففي النص التالي صور أمير المؤمنين حالة المجتمع العربي الجاهلي عشية بعثـة النبي محمد (ص)، في جميع وجوه حياته الّتي كان عليها من النّواحـي الروحيـة والإجتماعية والأخلاقية. قال عليه السلام:

«إن اللهَ بعثَ محمداً (ص) نَذِيراً للعالَمِين، وأميناً على التنزيل، وأنتُم معشر العربِ على شر دِينٍ وفي شر دارٍ مِنيخون١ بين حِجارةٍ خُشنٍ وحياتٍ صـم٢ تشربـون الكَدِر، وتأكُلُون الجشِب٣، وتسفِكُون دِماءكُم وتقطعون أرحامكُم، الأصـنام فِيكُـم منصوبة والآثام بِكم معصوبة٤»٥.

إنّهم كانوا على شر دينٍ.

كانت الأصنام فيهم منصوبة يتوجهون إليها بالعبـادة والضراعـة، كـانوا، إذن، وثنيين، وكانت وثنيتهم، الّتي استعاروها من هنا وهناك، بدائية متخلفة خالية مـن الجمال الفنّي والذوق إضافة إلى خلوها، بطبيعة الحال، من كلّ مضمون روحـي سليم وكانوا في شر دارٍ.

كانت دارهم البادية القاحلة المجدبة الّتي تفرض عليهم شروط حيـاة صـعبة قاسية جعلت من حياتهم سلسلة من الأخطار والمتاعب وألوان الحرمان.
وكانوا - بسبب ما هم عليه من إفلاس روحي لأنهم على شر دين، ومن تخلف في حياتهم المادية لأنهم في شر دار - ... بسبب هذا وذاك - كانوا على شر حال في حياتهم الإجتماعية وعلاقاتهم الإنسانية، فهم يقطعون أرحـامهم، وهـم يسفكـون دماءهم.

---

١ . منيخون: مقيمون.
٢ . خشن: من الخشونة. والحيّات الصّم أخبث أنواع الحيّات. كنى عن صعوبة مناخ البادية وقساوة العيش فيها.
٣ . الكَدِر: الماء الذّي يخالطه الطين وغيره، والجَشـب مـن الطعـام: الغليـظ الخشـن كنايـة عـن بـؤس حيـاتهم وفقرهـا، وانعـدام وسائل الراحة فيها.
٤ . معصوبة: مشدودة، كناية عن استمرارهم على المعصية.
٥ - نهج البلاغة: رقم الخطبة ٢٦.

وهم - بالإجمال - يكدحون بأستمرار لتوفير حياة متخلفة، قاسية، فقيرة في الشكل والمضمون في ظل علاقات اجتماعية وإنسانية فاسدة.

*

في نص آخر يؤرخ الإمام للتغيير الّذي أدخلته النبوة على حياة العرب، ويسجـل ملامح عامة للحال الّتي انتقلوا منها وللحال الّتي صاروا إليها بعد الإسلام.
قال عليه السلام:
«أما بعد فإن الله سبحانه بعثَ محمداً (ص) وليس أحد مِن العربِ يقرأُ كِتابـاً ولا يدعِي نُبوةً ولا وحياً، فقاتلَ مِمن أطاع من عصاه، يسوقُهم إلى منجاتِهم، ويبادِر بِهم الساعة أن تنزلَ بِهم بحسِر الحسِير ويقِفُ الكسِير١ فَيقِيم عليهِ حتى يلحِقه غايته، إلا هالِكاً لا خير فِيهِ، حتى أرأهم منجاتُهم٢ وبوأهم محلتَهم٣، فاسـتدارت رحـاهم٤ واستقامت قناتَهم»٥.
كان العرب أميين لا يقرأون ومن ثم فقد كان الجهل سائداً فيهم، وكانوا بعيدي عهد بالنبوات ورسالات السماء ومن ثم فقد كانت حياتهم الروحية فقيرة هزيلة مشوهة.
وقد جهد رسول اللّه في إخراجهم من الظلمات... كلّ الظلمات: ظلمـات الـروح

والعقل والحياة، إلى كلّ النور، من التخلف إلى التقدم، ومـن الجهـل إلـى المعرفة، ومن العمى الروحي إلى نعمة الإيمان الكبرى.

وبذلك بلغهم ساحل النجاة في الدنيا والآخرة.

وبذلك أعطاهم دوراً عالمياً - بما هم مسلمون - يحملـون فيـه الهـدى والنـور والكرامة إلى جميع الأمم بعد أن كانوا كمية مهملة لا قيمة لها ولا قدر ولا دور.

---

١ . الحسير هو الّذي أصابه الإعياء والتعب. والكسير المكسور الّـذي لا يقـوى علـى السـير، يريـد أنّ النـبي كـان تحريضـه علـى الإسـلام وإشـفاقه على المسـلمين يلاحظ حال من حدثت عنده شبهة أو خالط قلبه ريب في الدّين فلا يزال يرشده برفـق وحـب حتى يزيل من قلبه الريب ويجلو عن عقله الشبهة.

٢ . منجاتهم: ما به نجاتهم وهو الإسلام.

٣ . محلتهم: مركزهم في المجتمع العالمي، وكونهم ذوي رسالة عالمية هي الإسلام.

٤ . استدارة الرّحى كناية عن وفرة الأرزاق. واستقامة القناة كناية عن صلاح الحال واستقرار الحياة.

٥ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٠٤.

وبذلك أعطاهم لين الحياة، وكرامة الحياة، واستقرار الحياة.

ولم تعد حياتهم قاسية صعبة، بل لقد استدارت رحاهم بالأرزاق.

ولم تعد حياتهم متوجسة متوحشة، بل لقد استقرت واطمأنت.

واستقامت قناتهم لم تعد مشرعة لأجل العدوان أو لأجل رد العدوان.

*

سلام اللّه وتحياته على جميع الأنبياء والمرسلين.

٢ ـ وعي التّاريخ

من المؤكّد أن الإنسان العربي الجاهلي - قبيل الاسلام - كان يعوزه الوعـي التاريخي بالمعنى الّذي عرفته الشعوب المتحضـرة ذات الثقافـة المدونـة، وذات المؤسسات السياسية والإدارية الراسخة العريقة. هذا فضلاً عن أن يكون الوعـي التاريخي بالمعنى الّذي عرفه إنسان العصور الحديثة قد وجد لدى الإنسان العربي الجاهلي قبيل الإسلام.

وهذا الحكم ينطبق بوجه خاص على عرب الشّمال، وإن لم يكن عرب الجنوب - كما سنرى - أفضل حالاً منهم بكثير.

فقد كان العربي الجاهلي - قبيل الاسلام - يعيش حياة البداوة بما يلازمها من تنقـل وارتحال طلباً للكلأ وللماء، ومن ثم لم يكن لدى العربي مؤسسات ثابتـة، ونظـم سياسية وإدارية.

وكانت الأمية غالبة على هذا المجتمع، ومن ثم فلم ينشئ ثقافة مدونة بأي نحو من الأنحاء إلا نقوشاً نادرة لا تبلغ أن تكون ثقافة مدونة تسهم في تكـوين الشخصيـة الثقافية للإنسان - لا نستثني من ذلك عرب الجنوب الّذين كانوا قد فقـدوا قبيـل الإسلام - بانهيار نظام الري عندهم - الكثير من سماتهم كشعب متحضر له ماض عريق، وغدوا أقرب إلى البداوة والأمية.

وكانت الحياة من البساطة والسذاجة بحيث أن أحداثها البارزة كانت نـادرة جـداً، ومحدودة المدى جغرافياً وبشرياً، وهذه الأحداث هي الّتي شكّلت مادة مـا يسمـى «أيام العرب» الّتي سنعرض للحديث عنها بعد قليل.

كما لم يكن لدى العربي الجاهلي شعور بالزمن المستمر كمفهوم حضاري، كان

الزمن عنده مجرد تعاقب للظواهر الفلكية والفصول. ومن المعلوم أنّه لم يكن لدى العربي الجاهلي تقويم.

ونتيجة لكل هذه العوامل لم تتكون لدى العربي أية خبرات تاريخيـة ماضـية ذات شأن، ناشئة من وقوع الأحداث نفسها من ناحية والشعور بها من ناحية أخرى - لا

أحداث مشتتة غير مترابطة - بل في نطاق نظام للتعاقب الزمني وللعلاقـات الداخلية فيما بينها.

وبعبارة أخرى: لم يكن لدى العربي الجاهلي شعور بأستمرار الأحداث وديمومتها، وتفاعلها الداخلي، وعلاقاتها بحاضره، وإمكانات تأثيرها في المستقبل على النحـو الذي يصح أن يسمى وعياً تاريخياً. لقد كان وعي الماضي على هذا النحـو لـدى العربي الجاهلي قبيل الإسلام معدوماً.

نعم، لقد كان ثمة وميض من الشّعور بالماضي لدى العربي الجاهلي.

كانت الذّاكرة تحمل صوراً غامضة، هلامية الشّكل ومشوهة لهذا الماضي ناشـئة من القصص الّتي كانت تسمى «الأيام»، ومن العناية بالأنساب. لقد كانت «الأيام» والأنساب كما «البعد التّاريخي» للإنسان العربي.

إن هذا الوميض من الشّعور بالماضي لا يرقى، بالتأكيد، إلـى أن يكـون وعيـاً تاريخياً بالمعنى الّذي نفهمه الآن.

فقصص الأيام نادراً ما تملئها الأحداث الكبرى ذات الشّأن السياسي والإنساني وهو ما يعطي التاريخ حقيقته ومعناه. وغالب أحداثها يتكون من معارك صـغيرة بيـن مجموعات قبلية، ويعطيها الخيال الشعري والنصوص الشعرية المرافقة لها وهجـاً وحجماً غير واقعيين.

كما أنّها تفقد عنصر الترابط فيما بينها، ولا تأخذ في جميع الأحوال بنظر الاعتبار عنصر السببية، ولا تقوم بينها علاقات داخلية.

وهي خالية من عنصر الزمن، وخلوها من عنصر الزمن ليس ناشئاً من إهمال، بل ناشئ من عدم إدراك العربي الجاهلي لعامل الزمن التاريخي كما أشرنا آنفاً.

وكانت قصص الأيام في حلقات السمر الّتي تعقد أمام الأخبيـة والخيـام للتسليـة والمتعة، وللمفاخرة في بعض الحالات. ولم تكن تتداول كمـادة علميـة. والـرأي الراجح أنها لم تدون على الإطلاق.

والأنساب وإن كانت تدلّ على شعور بالماضي من خلال وعي الإنتماء إلى الآباء الّذين تشتمل على ذكرهم شجرة النسب القبلية، إلا أن علمنا بأن شجرات الأنسـاب كانت تقتصر على مجرد ذكر الأسماء فقط دون أن تحتوي على أية مادة تاريخية،

علمنا بهذا الوضع لشجرات الأنساب التي كانت تتداول عن طريق الروايـات الشّفوية يجعل قيمتها كمصدر لتكوين الوعي التاريخي معدومة.
ومن المؤكد أن شجرات الأنساب في العصر الجاهلي لم تعرف أي شكل من أشكال التدوين ليتيح فرصة إضافة مادة تاريخية إليها. ولم تدون شجرات الأنسـاب فـي كتب إلا في عصر إسلامي متأخّر نسبياً.
ويظهر لنا هذا الوميض من الشعور بالماضي لدى العربي الجاهلي فـي الشعـور الّذي يصور مواقف أخلاقية للشاعر في مجالات الحرب، والكرم، والوفاء، وما إلى ذلك، حيث تدفع الشاعر خشيته من (أحاديث الغد) الّتي تعكس مسلكية غير نبيلـة إلى أن يجعل سلوكه منسجماً مع قيم النبالة كما تقضي بهـا أخلاقيـات المجتمـع الجاهلي فيكون وفياً، وشجاعاً حتى الموت، وكريماً...
هذا الشعور يمكن أن يكون نواة للوعي التاريخي، ولكنّه لا يرقى، بطبيعة الحـال، إلى أن يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الّذي حددناه آنفاً. إنّه وعي ناشـئ عـن قيـم أخلاقية بدوية الطابع، وليس عن وجود تاريخ يستوعبه الشعور والوجدان، وهـو مقصور على حالات فردية لم تبلغ أن تكون وعياً عاماً. وهو شعور بالخشية مـن تصرف شخصي أو موقف شخصي قد يدفع الآخرين إلى إدانته، وليـس شـعوراً بإنجازات الآخرين وتفاعلاً معها.
*
كان هذا حال العربي الجاهلي
٩٠
ولكن الحال تغير بعد ظهور الإسلام تغيراً كاملاً.
إن القرآن الكريم والسنّة الشريفة قد كشفا للعربي تدريجاً عن عمقه فـي الزمـان باعتباره مسلماً. وغدا القرآن والسنّة يغذيان على مهل وعي المسلم بعمقه التاريخي من خلال القصص الّتي تؤرخ للأمم الماضية، وأنبيائها، ومواقفها منهم باعتبارهـم أنبياء، وحالات ازدهارها، وانحطاطها، وفنائها.
ومن خلال هذا الوعي أدرك المسلم أنّه بإسلامه، وجهاده اليومي - بالسيف والكلمة - في داخل الجماعة الإسلامية الّتي تبني نفسها بعين اللّه وعلى يد رسـول اللّـه، وفي مواجهة المشركين... أدرك بوضوح كامل أنّه بعمله اليومي هذا يصنع تاريخاً

موصولاً بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلّمه من الكتـاب والسنـة. وهكذا وجد الوعي التاريخ لدى الإنسان المسلم.

*

وللتّاريخ وظيفة تتعدى شعورنا بالإستمرار والديمومة. وهـذه الوظيفـة تربويـة أخلاقية. لا يعني هذا أن التاريخ يتحول إلى مادة وعظية فقط، فإن البحث والنقـد غرضان من أغراض التاريخ بلا شك، ولكن الوظيفة النهائية بعدهما هي، كما قلنا، تربوية أخلاقية.

وهذه الوظيفة تستمد معالمها وطبيعتها من طبيعة النهج الّذي تسلكه الأمة في بنـاء نفسها، ومن طبيعة الدور الّذي تعد نفسها للقيام به في محيطها الإقليمـي أو علـى المستوى العالمي، ولذا نرى أن كلّ أمة ذات نهج فكري مميز لشخصيتهـا تجعـل التاريخ مادة بانية لهذا النهج الّذي ارتضته.

وهذا لا يعني - بطبيعة الحال - أن يحرف التاريخ ليكون أداة دعائية وسياسية. إن الأمانة للحقيقة يجب أن تكون دائماً مرعية، وإنّما يعني أن التاريخ ليس مادة ترف فكري وتسلية. إنّه مادة شديدة الخطورة إذا تولّى استعمالها في الشأن العام رجال لا يقيمون للأخلاق وزناً ولا تحركهم روح رسالية، وأجهزة كذلك... رجال وأجهـزة يحركهم التعصب والغرور القومي والعنصري... في هذه الحالة قد يوجه التاريخ

ليكون مبرراً نظرياً وعاملاً نفسياً لدى الجمـاهير يخـدم الطّغيـان والإتجاهـات العدوانية لدى السياسيين ورجال الحرب ضد أمة أخرى، وفي هذه الحالة يعـرض التّاريخ للتّزوير والتّحريف.

والتّاريخ حافل بأمثلة عن تسخير التاريخ لغايات غير أخلاقية وغير رسـالية فـي العصور القديمة وفي العصر الحديث.

وللتاريخ في الإسلام - انطلاقاً من هذا الفهم - وظيفة تتّصـل بطبيعـة الإنسـان المسلم وطبيعة المجتمع الإسلامي.

إن الإنسان المسلم إنسان أخلاقي يعتنق رسالة عالمية، والمجتمع الإسلامي مجتمع أخلاقي وذو رسالة عالمية.

وإذن فالتاريخ ينبغي أن يخدم الرسالية والأخلاقية في علاقـات المسلـم الداخليـة

والخارجية، كما ينبغي أن يخدم الرسالة والروح الرسالية في العالم.

وكلّما حدث في سلوك المسلم أو سلوك الجماعة الإسلامية انحراف عن الأخلاقيـة أو انحراف عن الروح الرسالية في ممارسة الحياة والتعامل مـع الآخـرين فـإن التاريخ يستعمل، إلى جانب الوسائل التربوية الأخرى والتنظيمية لتصحيح النظـرة الخاطئة، وتقويم مسار الفرد والمجتمع.

والقرآن الكريم حافل بالشواهد على هذه الحقيقة نذكر منها شـاهداً مميـزاً لأنّـه يتضمن تعبيراً غدا مصطلحاً إسلامياً في الشّأن التاريخي، هو مصطلح «أيام اللّه» الّذي يعني الأحداث الكبرى في تاريخ كلّ أمة سـواء أكانـت نجاحـات كـبرى وانتصارات باهرة أو نكبات عظمى وانهيارات مأساوية.

وقد ورد هذا التعبير (أيام اللّه) في القرآن الكريم مرة واحدة فقط، ذلك في سـياق الآيات الكريمة الّتي تضمنت بيان تربية وتوجيه نبي اللّه موسى بن عمران سـلام اللّه عليه لبني إسرائيل وهدايتهم إلى الإيمان الصحيح، ورفع مستوى إدراكهم مـن حالة الجهالة والبدائية والمادية إلى المستوى الإيماني - الحضاري. قال اللّه تعالى: «ولقد أرسلنا موسى بِآياتِنَا أن أخرج قومك مِن الظلُماتِ إلى النورِ، وذكرهم بِأيـامِ اللّه. إن

فِي ذلِك لآياتٍ لِكُل صبارٍ شكُورٍ»١.

وورد ذكر هذا المصطلح في نهج البلاغة في موضعين:

أحدهما في كلام للإمام عند تلاوته قوله تعالى (يسبح له فِيهـا بِالغُـدو والآصـال رجال لا تُلهيهم تِجارة ولا بيع عن ذِكرِ اللهِ...)٢ قال في وصفهم:

«... وما برح لِلهِ .. عِباد ناجاهم٣ فِـي فِكـرهِم، وكلمهـم فِـي ذاتِ عقُـولِهم، فاستصبحوا: بِنُورِ يقظةٍ في الأبصارِ والأسـماعِ والأفئـدةِ، يـذكرون بِأيـامِ اللهِ، ويخوفُون مقامه...»٥.

وثانيهما في كتاب له إلى عامله على مكّة قثم بن العباس٦، قال فيه:

«أما بعد، فأقِم لِلناسِ الحج، وذكرهم بِأيامِ اللهِ»٧.

*

من هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس كان الإمام عليه السلام يتعامل فـي توجيهـه

الفكري، وفي وعظه، وفي تعليمه وتوجيهه السياسي مع التاريخ، وكان يوجه المسلمين إبى أن يعوا التاريخ على هذا الأساس، وأن يتعاملوا مع التاريخ من هـذا المنطلق الّذي يخدم الأخلاقية والرسالية.

ولعلّ الخطبة القاصعة٨ أفضل مثال على طريقة تعامل الإمام علي مـع التاريـخ بهدف التربية وتقويم سلوك المجتمع أخلاقيـاً، وتوعيتـه بمسؤوليتـه الرسـالية، وسندرس في

---

١ . سورة إبراهيم (مكيّة - ١٤) الآية: ٥.
٢ . سورة النّورة (مدنيّة - ٢٤) الآية: ٣٦ و٣٧.
٣ . ناجاهم: خاطبهم بالإلهام.
٤ . استصبح: أضاء مصباحه.
٥ . نهج البلاغة: رقم النص ٢٢٢.
٦ . قثم بن العباس بن عبد المطلب. كان من مساعدي الإمام علي (ع) في تجهيز رسول اللّه (ص) ودفنه، وهـو آخـر مـن خـرج من القبر الشريف، ولاهُ أمير المؤمنين على مكة، فلم يزل والياً عليها إلى أن استشهد الإمام، واسـتشهد قثـم بسمرقنـد، كـان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية، وقبره في سمرقند مشهور. وقد زرناه أثناء مشاركتنا في المؤتمر الدّيني.
٧ . نهج البلاغة: (باب الكتب) رقم النص ٦٧.
٨ . الخطبة القاصعة رقمها في نهج البلاغة: ١٩٢.

فصل آتٍ جوانب من هذه الخطبة.

ويمكن أن نكون فكرة مقاربة للحقيقة عن جهود الإمام الفكرية في حقـل التوعيـة بالتاريخ إذا لاحظنا أن الكثير مما ورد في نهج البلاغة - وهو قليل من كثير مـن كلام الإمام وخطبه - إن لم يكن أكثر ما ورد في كلامه في النهج من المواد التالية (و. ع. ظ / ح. ذ. ر / ز. ج. ر / ع. ب. ر) ... كان الإمام قد خاطب به الناس في حالات شتّى وأزمان شتّى، موجهاً تفكيرهم نحو التاريخ بهدف التربية وتقويـم السلوك الفردي والإجتماعي في شؤون الحياة عامـة مـن روحيـة واجتماعيـة وسياسية. ولا يختص ما روي عنه في هذا الشأن بالوعظ وحده كما ربما يتوهـم البعض.

ومن أمثلة ما أشرنا إليه آنفاً قوله عليه السلام في مواضع من نهج البلاغة:

«وعظتم بمن كان قبلكم...» «... فاتعظوا عباد اللّه بـالصبر النّوافـع...» «... واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتـذكّروا

في الخير والشر أحوالهم، واحذروا ان تكونوا أمثالهم» «... واتعِظّـوا فِيهـا بِالّذِين قالُوا (من أشد مِنّا قُوةً)»١.

إلى أمثال هذه العبارات الّتي ورد كثير منها في خطبه وكتبه.

فقد كان الامام يقاتل بكل سلاح نزعه الشر والإنحراف وتيار الفتنة الّـتي بـدأت تجتاح المجتمع الإسلامي. وكانت توعية المجتمع بالتّاريخ أحد هذه الأسلحة.

---

١ . سورة فصّلت (مكّيّة - ٤١) الآية ١٥: فأمَّا عاد فاستكبرُوا فِي الأرض بِغير الحقِّ وقالُوا: مَن أشدُّ مِنَّا قُوَّةً...».

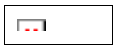

٣ ـ التّاريخ يعيد نفسه

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

من البديهي أن التّاريخ لا يعود مرة أخرى إلى ساحة الحاضـر أو المستقبـل، إذا أردنا من هذه القضية عودة تفاصيله وجزئيات أحداثه، فالأحـداث ليسـت أشـياء مجردة تقع في الفراغ دون أن تكون لها صلة بالبشر، وإنّما الأحداث بما هي صنع البشر تحمل السمات الشخصية الخاصة لصانعيها: تحمل طابع مصالحهم الآنيـة، وأمزجتهم وعواطفهم، وأخلاقياتهم وطريقة فهمهم للحياة... وقد تنعدم هذه السمات الشخصية المميزة مع أصحابها، ولن تعود على الإطلاق. وإذن، فالتـاريخ بهـذا المعنى لا يعود ولا يتكرر.

إن ما حدث في الماضي قد حدث مرة واحدة، ولن يحدث مرة أخرى، لن يتكـرر، على الإطلاق.

أما إذا أردنا من هذه القضية عودة نمط الحركة التّاريخية ومظاهره العامة وآثارها النّفسية والإجتماعية في المجتمع فإن التاريخ يعـود بالتأكيـد حيـن تتوفّـر فـي الحاضر... في نسيجه الإجتماعي وعلاقاته الإنسانية الأسباب الموضـوعية الّتـي أدت إلى نشوء نمط الحركة التاريخية في الماضي.

إن الإنسان هو الإنسان في كلّ زمان.

إنّه يتحرك في الزمان والمكان مدفوعاً - فرداً وجماعةً ومجتمعـاً - بمصالحـه وعلاقاته وعواطفه، والعقائد والشرائع والمثـل والقيـم الأخلاقيـة والروحيـة إذا تأصلت فيه وتعمقت في وجدانه وكيفت نظرته إلى الكون والحياة والإنسان فإنهـا تكون قادرة على

أن تدخل تغييراً عميقاً على عواطفه ومصالحه وعلاقاته في المجتمع والعالم، ومن ثم فإنّها تكون قادرة على تغيير تاريخه ونقله إلى مسار جديد، ما دامت لا تواجـه عقبات تشلّ فاعليتها وتأثيرها.

أما إذا فشلت العقائد والشرائع والمثل والقيم الأخلاقية والروحية في إدخال التغيير

المناسب لها على تكوين الإنسان النفسي وعلى تقديره لمصالحه، لأنهـا لـم تتأصل في أعماقه ولم تغير نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، فإن تاريخه فـي هذه الحالة سيتكرر.

إن هذا التاريخ الجديد لن يحمل نفس السمات والخصائص الماضية فـي الغالـب، ولكنّه يحمل نفس الروح، ويخلّف في المجتمع نفس الآثار الّتي كانت في الماضـي تحمل أسماء جديدة وتقدم نفسها بمبررات جديدة لا تعدو أن تكون مجـرد قشـرة خادعة يستطيع المؤرخ الباحث أن يكتشف ما وراءها فيتجاوزها إلى العمق ليجـد الواقع القديم تحت الأشكال الجديدة١.

*

في أول خطبة خطبها أمير المؤمنين علي بعد أن بويع بالخلافة في المدينة نرى أنّه قد لاحظ عودة الأشكال القديمة للإنقسامات القبلية والفئوية داخل المجتمع العربـي الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي في عهد عثمان وبعد مقتله بكلّ ما كانت تحتويـه هذه الأشكال من روح قبلية وعنصرية، وأخلاقيات جاهلية رجعية.

وقد كانت عودة هذه الأشكال القديمة حاملة مضمونها الرجعي نتيجة لضمور المثل العليا والقيم المؤثرة في حركة التاريخ الإسلامي، ونتيجة لضعف مؤسسة الخلافـة في عهد عثمان، هذا الضعف الّذي مكّن القوى القديمة والقيم القديمة - الّتي لم تكن قد ماتت بعد، وإنّما كانت تعاني من حالة خمود وضمور - مكّنها من أن تستعيـد فاعليتها، وتعود إلى التأثير في حركة التاريخ تحت شعارات مناسبة تنسجم مـع الإسلام في

---

١ . من الظواهر الهامة الّتي نقدّر أنّها تستحق من المفكرين والمؤرخين بحثاً معمقاً، ظاهرة الإنقسامات الإقليمية في العالم العربي، فإنّنا نقدّر أنّها تعبير جديد عن القبلية، تحت أسماء جديدة وبمبرّرات تلائم المناخ الثقافي الحاضر والوعي السياسي السائد. ونقدّر أنّ فشل فكرة الوحدة العربية لا يرجع فقط إلى عمل الإستعمار التخريبي وإنّما نشأ من وجود استعداد للتشرذم أعان الإستعمار على رسم سياساته وإنجاحها في هذا المجال ولولا ذلك لما وُفّق الإستعمار إلى بلوغ غايته.

الشكل الخارجي.

لقد عادت إلى الظهور والفاعلية تلك القيم والمثل الجاهلية القديمة الّتي كانت تقـود

حركة التاريخ في المجتمع العربي وترسم ملامح هذا المجتمع وتوجه خطـاه قبل بعثة الرسول الأكرم وانتصار الإسلام.

وقد رأى أمير المؤمنين علي هذه القيم البائدة العائدة من خلال رصـده للظواهـر الجديدة الّتي تبدو في حركة الجماعات داخل المجتمع الإسلامي، وحركة القيـادات الّتي توجه هذه الجماعات سراً وعلانيةً.

وقد رأى مع ذلك الأفاعيل التي ستنجم عن هذه الحركة الرجعيـة للتـاريخ فـي الإسلام، والمآسي الكبرى الّتي ستنزل بالمسلم فرداً وجماعـةً ومجتمعـاً ودولـةً ومؤسساتٍ نتيجة لانبعاث هذه الروح الشّريرة من جديد.

قال عليه السلام:

«ذِمتِي بِماا أقُولُ رهِينة١ وأنا بِهِ زعِيم٢. إن من صرحت له العِبر عما بين يديـهِ مِن المثُلاتِ٣ حجزته التّقوى عن تقحمِ الشبهاتِ٤، ألا وإن بِليتكُم قد عادت كهيئتِها ٥ يوم بعثَ اللهُ نبِيه صلى اللهُ عليهِ وسلم. والّذي بعثـه بِـالحق لتُبلبلُـن٦ بلبلـةً، ولتُغربلُن٧ غربلةً، ولتُساطُن سوط القِدر٨ حتى يعود أسفلُكُم أعلاكُـم، وأعلاكُـم أسفلكُم...»٩.

---

١ . رهينة: من الرهن. جعل ذمته رهناً على ما يقول.
٢ . زعيم: كفيل بصدق ما يقول.
٣ . العبر: ما أصاب النّاس من «مثلات» عقوبات إذا دعاها الإنسان على سبيل الإعتبار، فيتعظ بتجربـة الّـذين أصـابتهم العقوبـات من قبله.
٤ . الشّبهات: الأفعال والمواقف الغامضة الّتي لم يبت في الشرع الرخصة في فعلهـا. يريـد أنّ العـبرة بالماضـين تحجـر الإنسـان عن الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء.
٥ . رجعت البلية كما كانت في الماضي الجاهلي.
٦ . البلبلة: الإختلاط، كناية عن الأزمات الإجتماعية والثّورات.
٧ . الغربلة: من الغربال: يريد أنّ التجارب الآتية ستميّز المواقف، وتكشف الأشخاص على حقيقتهم.
٨ . السوط: الخلط - سوط القدر: كما تمزج مواد الطبـخ فـي القـدر، وتختلـط وتغلـي سـيكون المجتمـع نتيجـة للثّـورات والأزمـات الإجتماعية.
٩ . نهج البلاغة - رقم الخطبة ١٦.

يقول لهم: إن البلية (الفساد الإجتماعي، والإنحطاط الأخلاقي والحضـاري) الّتـي كانت تسم الحياة العربية في الجاهلية نتيجة لسيادة قيم الجاهلية ونظرة الجاهلية إلى الكون والحياة والإنسان - هذه البلية قد عادت كما كانت عشيـة بعثـة الرسـول

الأكرم (ص) لأن القيم الّتي ولّدت هذه البلية في الماضي الجاهلي قـد دبـت فيها الحياة من جديد على حساب القيم الجديدة الّتي جاء بها الإسلام، هذه القيم الّتي تقلّص نفوذها وتأثيرها، بسبب عوامل متنوعة، على الإنسان المسلم، وأدى ذلك إلى حدوث ثغرات نفذت منها القيم القديمة فعادت من جديد.

ثم أنذر الإمام علي مجتمعه بأن هذه البلية الّتي عادت ستكون لها آثـار مأسـاوية على المجتمع الإسلامي.

ستنجم عن هذه البلية الأزمات الإجتماعية والثورات الّتي ستلقي بالمجتمع في غمار حروب أهلية مدمرة، ولا بد أن تكون هذه الأزمات والحروب الأهليـة أضـرس، وأعم شراً، وأشد فتكاً مِما كان يحدث في الجاهلية.

ستكون في المجتمع نتيجة لعودة هذه البلية بلبلة (اختلاط وتداخل) وشد وجذب ينتج عن الأزمات والثورات ويولّدها.

وسيكون حال المجتمع - نتيجة لهذه البلية العائدة - حال القدر التي تغلـي علـى النار وتختلط فيها المواد، ولا يستقر على حال، ولا ينعم بالطمأنينة، وإنّما هو فـي قلق دائم، واضطراب مستمر.

سيؤدي ذلك إلى الغربلة، وتمييز مواقف الرجال والجماعات، لأن المحن والأزمات تفرز الفئات الإجتماعية، وتحدد سماتها.

ولكن كلّ ما سيحدث لن يتضمن شيئاً من الخير، بل سيعود على المجتمع بالشّرور، وسيؤدي بالمجتمع إلى التمزق الّذي يشلّ الفاعلية، ويعطّل الطاقات الإيجابية، بـل يهددها، ويعوق حركة التقدم.

ستكون جاهلية تتغشّى بشعارات الإسلام، جاهلية بعثتها القيم الجاهلية الّتي عـادت إلى الحياة، فكانت هي، بدل القيم الإسلامية الجديدة، الأسباب الموضوعية

لتحريك الإنسان المسلم في الزمان والمكان.

هكذا يصور الإمام عودة التّاريخ.

*

وفي خطبة أخرى خطبها الإمام بذي قار١ وهو في طريقه من المدينة إلى البصرة بعد أن خرج عليه الزبير بن العوام وطلحة بن خويلد وأم المؤمنين عائشة فاتحيـن

بخروجهم أبواب الفتنة الّتي عصفت بالمسلمين، والحرب الأهلية الّتي مزقـت وحدتهم... هذه الفتنة الّتي ولّدتها القيم الجاهلية الّتي تنبأ الإمام بهـا فـي خطبتـه الأولى... في هذه الخطبة بين الإمام عليه السلام أن مسيره لمواجهة المظهر الأول للفتنة هو كمسيره مع رسول اللّه (ص) لمواجهـة قـوى الجاهليـة، وأن الـروح المحركة واحدة في الحالين رغم اختلاف المظهر الخـارجي الّـذي قـد يوحـي للسانجين بخلاف ذلك، ولكنّه لا يخدع الخبير.

قال عليه السلام:

«... أما واللّه إن كُنتُ لِفي ساقِتها٢ حتّى تولت بِحذافيرها٣ ما عجزتُ ولا جبنتُ. وإن مسيري هذا لِمِثلِها، فلأنقُبن٤ الباطِل حتى يخرج الحـق مِـن جنبِـهِ. مالـي ولِقُريش!! واللّه لقد قاتلتُهم كافرين، ولأُقاتِلنهم مفتُونين، وإنّي لصاحِبهم بِالأمس كما أنا صاحِبهم اليوم»٥.

كان الإمام يتحدث عن شأن الجاهلية في مواجهة الإسلام، وعن كفاحه مع رسـول اللّه (ص) ضد الجاهلية. ثم بين أن مسيره هذا إلى البصرة لمثل ما كان يكافحه من مظاهر عناد الجاهلية في حياة رسول اللّه (ص).

إن التاريخ قد عاد، ولكن تحت شعارات جديدة.

---

١ . ذو قار: موضع قريب من البصرة. اشتهر في التاريخ باعتباره الميدان الّذي جرت فيه، أول ظهور الإسـلام، فـي سـنة ٦١٠ م معركة بين الفرس والعرب حيث هاجم ثلاثة آلاف عربي من قبيلة بكر بن وائل المنطقة الفراتية، وهزموا الفرس هزيمة حاسـمة في ذي قار.

٢ . السّاقة: مؤخرة الجيش الّتي تسوقه. شبه الجاهلية بجيش مهزوم يطرده ويلاحقه.

٣ . ولّت بحذافيرها: ذهبت وطردت بأسرها (الجاهلية).

٤ . النقب: الثقب.

٥ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ٣٣.

قال ابن أبي الحديد في شرح هذا النص:

«وشبه عليه السلام أمر الجاهلية أما بعجاجة ثائرة، أو بكتيبة مقبلة للحرب، فقال: إني طردتُها، فولّت بين يدي، ولم أزل فِي ساقِتها أنا أطردها وهي تنطرد أمـامي، حتى تولت بِأسرِها، ولم يبق مِنها شيء، ما عجزتُ عنها، ولا جبنتُ مِنها.

«ثم قال: وإن مسيري هذا لِمِثلِها، فلأنقُبن الباطِل، كأنّه قد جعل الباطل كشيء قد اشتمل على الحق واحتوى عليه، وصار الحق في طيه، كالشيء الكامن المستتر فيه، فأقسم لينقُبن ذلك الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبِه»١.

وهكذا يصور الإمام عودة التاريخ حين تنشط الأسباب القديمة الّتي أنتجت الأحداث والمواقف القديمة، فتؤدي إلى تكرار المواقف والإتجاهات ولكن تحـت شـعارات جديدة تتناسب مع الثقافة السائدة في المجتمع.

وثمة نصوص أخرى، غير ما ذكرنا، منثورة في نهج البلاغة، تتضمن الدلالة على هذه الحقيقة.

---

١ . ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربيـة - القـاهرة - الطبعـة الأولـى: ١٣٧٨ هجري = ١٩٥٩ م / ج ٢. ص ١٨٥ - ١٨٦.

٤ ـ مصارع القرون عوامل انحطاط الأمم

«مصارع القرون» تعبير استعمله الإمام في إحدى خطبه فقال «واعتَبِروا بِما قد رأيتُم مِن مصارع القُرون قبلَكُم»١. ويريد بـه الأمـم الماضـية أو الأجيـال الماضية، فالقرن في اللغة جماعة الناس في عصر واحد٢. فالإمام في هذا التعبير يوجه الأفكار نحو التأمل في مصائر الأمم والشعوب، وكيـف ولمـاذا تضعـف وتتفسخ ويصيبها الإنحطاط والتخلف ؟.

ويتساءل الإمام في خطبة أخرى - ربما تكون آخر خطبة، أو في أواخر كلامه في حشد عام٣ - عن مصير الدول والشّعوب القديمة، فيقول مخاطباً أصحابه:

«... وإن لكُم فِي القُرون السالِفةِ لعِبرةً، أين العمالِقةُ وأبناء العمالِقةِ ؟ أين الفراعِنةُ وأبناء الفراعِنةِ ؟ أين أصحاب مدائن الرس الّذين قتلُوا النبِيين، وأطفـأُوا سـنن المرسلين٤، وأحيوا

---

١ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٦١.

٢ . وردت هذه الكلمة كثيراً في الكتاب الكريم في سور مكيّة ومدنية، والمراد بها، على الظاهر، هذا المعنى. وورد له في كلام بعض أهل اللغة تفسير زماني، فقيل: القرن مدة أغلب أعمار الناس، وهو سبعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: ثلاثون سنة. وقيل: القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم، قلّ زمانه أو كثُر - وهذا التفسير الأخير يلحظ معنى حضارياً للكلمة.

٣ . قال الشّريف في نهج البلاغة: «رُوي عن نوف البكالي، قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي (ع) بالكوفة، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي، وعليه مِدرعة من صوف، وحمائل سيفه من ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وكأن جبينه ثفِنةُ بعير، فقال عليه السلام... قال: وعقد للحسين عليه السّلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه اللّه في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وهو يريد الرّجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتّى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه اللّه فتراجعتِ العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذّئاب من كلّ مكان».

٤ . ورد ذكر هؤلاء في الكتاب الكريم مرتين: في سورة الفرقان (مكّيّة - ٢٥) الآية ٣٨ «وعاداً وثمُود وأصحابَ الرَّسِّ وقُروناً =

سنن الجبارين ؟ أين الّذِين ساروا بِالجيوشِ، وهزموا بِالألُوفِ، وعسكروا العساكِر، ومدنُوا المدائن ؟»١.

*

لقد كان الوضع الداخلي لمجتمع الإمام أثناء حكمه العاصف يقتضيـه أن يستعيـن بالتاريخ ليواجه ما كان يتردى فيه هذا المجتمع - في العراق بوجه خاص - مـن

انقسامات قبلية، ومواقف عنصرية، وتسلط لرؤساء المجموعات القبلية على قبائلهم، وافتتان كثير من النابهين في المجتمع والقياديين في المجموعات القبلية بالسخاء الّذي كانوا يتسامعون به عن معاوية بالنّسبة إلى أنصاره السياسيين... وكان يرى ببصيرته النافذة أن هذه الطريق تؤدي بالمجتمع إلى الكارثة: ستنهكه النّزاعات الداخلية، وتخلخل بنيانه وتذهب بتماسكه، وتدفع بقياداته إلى خيانة مجتمعها والإرتماء في أحضان الحكم الأموي الإستبدادي في سوريا، وتفقد العراق دوره القيادي في دولة الخلافة، فتجعله تابعاً صغيراً للشام.

وكان الإمام علي يواجه هذا الخطر بشتى الأساليب، وعلى مختلف المستويات.

ومن الأساليب الّتي استعملها على المستوى الشعبي أسلوب التنظير بالتاريخ لحال مجتمعه، عاملاً على أن يكون لدى الناس العاديين وعياً تاريخياً، ورؤيةً للحاضر واقعيةً تدرك ما فيه من خطورة وإحساساً بمخاطر الممارسات الّتي تسود المجتمع... كلّ ذلك لأجل أن يبعث في نفوسهم وعقولهم الحذر والتبصر حين تعرض عليهم خيارات سببت للأمم الماضية نكبات أضعفتها أو حطمتها.

ومن الأمور الهامة الّتي يجب التّنبيه عليها أن الإمام في تصويره لانحطاط الأمم ومصارع القرون لا يرد ذلك إلى أسباب غيبية، وإنّما يعرض أسباباً موضوعية لهذا الإنحطاط كما سنرى.

= بين ذلِك كثِيراً» وفي سورة ق (مكية - ٥٠) الآية ١٢ «كذَّبت قبلهُم قومُ نُوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمُودُ». والرّس في اللّغة: البئر المطوية بالحجارة، والرّس اسم بئر كانت لبقية من ثمود - أو لقوم بعد ثمود - أرسل اللّه إليهم رسولاً فكذّبوه فأهلكهم اللّه. وقيل أنّ الرّسّ اسم نهر كان هؤلاء على شاطئه.

١ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٨٢.

وأفضل الأمثلة الّتي يحتويها نهج البلاغة في موضوعنا هو الخطبة المسماة «القاصعة»١ وهو يعرض فيها الآفات الّتي تعرض مجتمع العراق للخطر، ويذكر النظائر التاريخية لذلك عارضاً أسباب الإنحطاط.

*

عالج الإمام في هذه الخطبة آفة شديدة الخطورة كانت تتعاظم وتستفحل في مجتمع

العراق في ذلك الحين. تلك هي آفة الصراع الداخلي الّذي كان يمزق وحـدة المجتمع العراقي ويشلّ فاعليته وينعكس بآثاره السيئة وتفاعلاته المشؤومـة علـى سائر دولة الخلافة.

وقد كان هذا الصراع يبدو للمراقب بوجوه متنوعة:

١ - الصراع القبلي:

فقد نشطت الروح القبلية والقيم القبلية، وعادت إلى الظهور فارضة منطقهـا فـي رسم خريطة العلاقات الإجتماعية والسياسية داخل المجتمع، وكان ظهور الـروح القبلية نتيجة لجملة من الأخطاء الّتي ارتكبت في عهد إدارة الخليفة الثالث عثمـان بن عفان. وكانت أخطاء في السياسة، وفي الإدارة، وفي التنظيم الإقتصادي، وفي التّوجيه الثقافي العام.

ويبدو أن هذه الروح القبلية قد سببت تخريباً واسع النطاق داخل المجتمع العراقي، ونرجح أن معاوية بن أبي سفيان كان يستغلّها للإمعان في تصديع وحـدة مجتمـع العراق.

ويبدا أن هذه الروح القبلية الّتي كان يذكّيها أصحاب المصالح الخاصة

---

١ . قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الكلمة:
«يجوز أن تسمى هذه الخطبة «القاصعة» من قولهم: قصعت الناقة بجرّتها، وهو أن تردها إلى جوفها أو تخرجها من جوفها لتملأ فاها، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مردّدة مـن أوّلهـا إلـى آخرهـا شـبهها بالناقـة الّـتي تقصـع الجـرّة. ويجـوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهـل العصبيـة، مـن قـولهم: قصعـت القملـة إذا هشمتهـا وقتلتهـا. ويجـوز أن تسمى القاصعة لأن المستمع لها المعتبر بها يذهب كبره ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أي أذهبه، وسكنه».
شرح نهج البلاغة - ج ١٣ / ص ١٢٨.

قد أفلحت إلى حد بعيد في تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشك والضغينـة بين فئاته السياسية، وداخل كلّ فئة أيضاً. يصور لنا ذلك نص في إحـدى خطـب الإمام يحذّر ويؤنّب فيه مجتمعه، قال:

«قِدِ اصطلحتُم على الغِل فيما بينكُم١ ونبت المرعى على دِمنكُم٢. وتصافيتُم علـى حب الآمال. وتعاديتُم فِي كسبِ الأموال. لقد استهام بِكُم الخبث٣، وتاه بِكُم الغُرور ٤، واللهُ المستعان على نفسِي وأنفُسِكُم»٥.

وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة ما يصـور التخريـب والتمزيق اللّذين كانت تحدثهما هذه الروح القبلية، قال:

«وقيل أن أصل هذه العصبية وهذه الخطبة أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا في آخر خلافة أمير المؤمنين، وكانوا قبائل في الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته: يا للنّخع! مثلاً، أو يالكندة نداء عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشّر، فيتألّب عليه فتيان القبيلة الّتي مر عليهـا، فينـادون: يالتميم! ويالربيعة! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونـه، فيمضـي إلـى قبيلتـه فيستصرخها، فتسلّ السيوف وتثور الفتن، ولا يكون لها أصـل فـي الحقيقـة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض»٦.

وما لا يرى ابن أبي الحديد له أصلاً نرى له أصلاً في دسائس معاوية أو عملائـه الّذين نقدر أنهم يشجعون أمثال هذه الممارسات القبلية، ويمدونها بمزيد من أسباب

---

١ . الغل: الحقد، اتفقتم على تمكين الحقد في نفوسكم.
٢ . الدّفن: جمع دفنة، ما يتجمد ويتلبد من الضابط وردت الماشية، ينبت عليه العشب ونبتت المرعى عليه: استر بظواهر النفاق الإجتماعي فيبدو ظاهره سليماً أخضر وواقعه بشع منفر. شهروا أحقادهم الّتي يسترونها بالنفاق فيما بينهم بهذه القذارة الّتي يسترها العشب فتبدو جملة تخدع بظاهرها وهي في الواقع قذرة نجسة.
٣ . استهام بكم: تعلق بكم الشيطان فأغواكم.
٤ . الغرور: ما يسبّب الإنخداع.
٥ . نهج البلاغة - رقم الخطبة - ١٣٣.
٦ . ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ١٣ ص ١٦٧ - ١٦٨.

الإثارة والهياج ليزيدوا مجتمع العراق إنهاكاً وتمزقاً. وكذلك نرى لها أصـلاً فـي سياسات رؤساء القبائل الّذين كان نهج علي السياسي يهدد سلطانهم ونفوذهم، فكانوا يشجعون العامة والبسطاء على أمثال هذه الممارسات ليثبتوا سلطانهم على قبائلهم.

٢ - الصراع العنصري:

لقد كان مجتمع العراق، كغيره من بلاد الإسلام في ذلك الحين، يضم مجموعـات كبرى من المسلمين غير العرب الّذين أدى التّوسع في الفتوح خارج شبه الجزيـرة العربية إلى احتلال بلادهم في إيران ومستعمرات الإمبراطورية البيزنطية (مصر وسوريا، وغيرهما)، ومن ثم أدى إلى دخول كثير منهم في الإسلام.

وقد كان هؤلاء - من الناحية النظرية - يتمتعون بحقوق مساويـة لحقـوق المسلمين العرب كما يتحملون واجبات مساوية. لقد ضمن لهـم الإسـلام مركـزاً حقوقياً مساوياً تماماً للمسلمين العرب، ولكنهم كانوا من الناحية الواقعية يعانون من التمييز العنصري بسبب انطلاق الروح القبلية والعصبية العربية.

وقد ألغى الإمام علي فور تسلّمه السلطة جميع مظاهر التّمييز العنصري والعصبية العنصرية الّتي كان يعاني منها، بشكل أو بآخر، المسلمون غير العرب.

وقد أثار ذلك ردود فعل سلبية عند زعماء القبائل، فاحتجوا علـى التسويـة فـي العطاء بينهم وبين الموالي (المسلمين غير العرب)، واندفعوا ينصحون الإمام علياً قائلين:

«يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من النّاس»١.

وكان هؤلاء ينظرون في نصيحتهم هذه وينطلقون في نظريتهم السياسية هذه مـن التجربة الّتي كان يقوم بها معاوية بن أبي سفيان.

---

١ . ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة.

ولكن الإمام علياً كان ينطلق في ممارسته السياسية من قاعدة أخرى، فأجابهم قائلاً:

«أتأمروني أن أطلُب النصر بِالجور فِيمن وليتُ عليهِ ؟!! واللهِ لا أطُور١ بـهِ مـا سمر سمِير٢، وما أم نجم فِي السماء نجماً»٣.

*

وتشتمل الخطبة القاصعة على عدة شواهد تدلّ على أن ما كان يثير في نفس الإمام قلقاً عميقاً ليس الصراع القبلي المستفحل وحده، بل الصراع العنصري أيضاً.

هذا الصراع بوجهيه - القبلي والعنصري - كان، بالإضافة إلى أنّه آفة في ذاتـه، يؤدي إلى توليد آفات أخرى:

١ - يعمق ويرسخ الواقع الإجتماعي القبلي والتكوين الإجتماعي القبلي للمجتمع في

الثقافة العامة، والبنية النّفسية للفرد، وبـذلك يحـول دون تطـور التركيـب الإجتماعي من طور القبلية الّتي تقسم المجتمع إلى وحدات تقوم على علاقة الـدم إلى طور التّوحد على أساس العقيدة والشّريعة والمؤسسات والمصالح المشتركـة، وهو يؤدي بالتّالي إلى أن يكون معوقاً حضارياً أيضاً يجمد المجتمـع فـي حالـة التخلف على صعيد المؤسسات والإنجازات التنظيمية.

٢ - يزيد ويعزز سلطة رؤساء القبائل على قواعدهم القبلية، فيؤثـر ذلـك علـى فاعلية أجهزة السلطة المركزية ويضعفها.

٣ - يؤثر على تلاحم المجتمع - وهو في حالة حرب مع القوى الخارجـة علـى الشّرعية في الشام، ومع الخوارج.

---

١ . أطور به: من طار يطور، بمعنى: حام حول الشّيء، وقاربه، يعني: لا أقارب الجور فيمن ولّيت عليه.
٢ . ما سمر سمير: يعني مدى الدّهر.
٣ . نهج البلاغة - رقم النص ١٢٦. ما أمّ نجم فِي السماء.. يعني مدى الدّهر. في هذا الموضوع راجع كتابنا (دراسـات فـي نهـج البلاغة) الطبعة الثانية، فصل (المجتمعات والطبقات الإجتماعيّة) وكتابنا (ثورة الحسين)، الطبعة الخامسة - ص ١٠١ - ١٧٢.

٤ - يعزز إمكانات تسلل معاوية بن أبي سفيان إلى داخل التكوينات السياسية فـي مجتمع العراق، وهي القبائل.

*

وننتقل الآن إلى عرض الشّواهد من الخطبة القاصعة١.

بين الإمام أولاً أن الكبرياء من صفات اللّه تعالى. ومن ثم فليس للناس أن يتكبـر بعضهم على بعض.

ثم عرض، ثانياً، لكبرياء أبليس، وتعصبه ضد آدم مفتخراً بأصـله، وذكّـر بـأن كبرياء إبليس كانت كارثة عليه إذ قضت على منزلته العالية.

ثم قرن الإمام بين كبرياء إبليس وكبرياء البشر على بعضهم، واعتبر المتكبريـن أتباعاً لإبليس في هذا الخُلق الذميم:

«صدقه بِهِ أبناء الحمِيةِ٢، وإخوان العصبيةِ، وفرسان الكِبر والجاهِليـةِ، حتـى إذا انقادت له الجامِحةُ مِنكُم٣، واستحكمتِ الطماعِيةُ مِنه فيكُم - فنجمتِ٤ الحالُ مِـن

السر الخفِي إلى الأمر الجلِي - استفحل سلطانُه عليكُم٥. فأصبحتُم أعظم في دينِكُم حرجاً، وأورى فِي دنياكُم قدحاً٧ مِن الّذين أصبحتُم لهم مناصِبين وعليهِـم متألبين».

وهكذا بين لهم الإمام أن الشر والفساد النّاشئين عن العصبية، والصراع النّاتج منها لا يقتصر تأثيرها على الجانب الديني والإيماني فقط، وإنّما يتعدى ذلك إلى التّأثير

---

١ . نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٩٢.
٢ . الحميّة: الأنفة والغضب.
٣ . الجامحة: من جموح الفرس - أراد أنّ الفئة الّتي لم تطع إبليس وجمحت عنه عادت فأطاعته واتّبعت سبيله في الكبرياء. أو أنّ الفئة الّتي جمحت عن الشرع انقادت إلى إبليس.
٤ . نجم: ظهر. أي أنّ العصبية بعدما كانت خفية في النّفوس ظهرت في ممارسات علنية.
٥ . استفحل: قوي واشتدّ وصار فحلاً.
٦ . الحرج: لغة في الحرج - بفتح الرّاء - وهو الإثم . يريد: إنّكم بطاعتكم لإبليس أصبحتم أعظم إثماً في دينكم. ورواية النّسخة المتداولة من النهج (فأصبح)، ولا يستقيم المعنى عليها، ورواية ابن أبي الحديد في شرحه (فأصبحتم) وقد اعتمدناها لأنّها أوفق بالمعنى.
٧ . أورى: اشد قدحاً وتوليداً للنار. كناية عن تخريب دنياهم بالفتن والقلاقل.

على الوضع الحياتي الدنيوي، لهذه العصبية (أورى في دنياكم قدحاً) مـن هـؤلاء الّذين تخافون منهم على امتيازاتكم المادية فتتعصبون ضدهم.

ثم أثار الإمام في أذهانهم ذكرى تاريخية يعرفونها من القرآن، هي قصة ابني آدم:

«ولا تكُونُوا كالمتكبر على ابن أمِهِ من غير ما فضلٍ جعله اللهُ فيه سِوى ما ألحقتِ العظمةُ بِنفسِهِ مِن عداوةِ الحسدِ، وقدحتِ الحميةُ في قلبه من نار الغضـب، ونفـخ الشيطان في أنفِهِ من ريحِ الكِبرِ الّذي أعقبه اللهُ بِهِ الندامةَ، وألزمه آثام القاتِلين إلى يومِ القيامةِ».

ثم يعود الإمام إلى تأنيب سامعيه على ما هم عليـه مـن روح قبليـة، وتعصـب عنصري ذميم، مبيناً لهم أن هذه الآفة الخطيرة الوبيلة قد ابتليت بها الأمم الماضية وذاقت مرارتها:

«ألا وقد أمعنتُم في البغي١، وأفسدتُم في الأرض، مصارحـةً للّـه بالمناصـبةِ٢، ومبارزةً لِلمؤمنين بِالمحاربةِ (يقصد بالمؤمنين أولئك الّذين توجه ضدهم العصبية) فاللّه اللّه في كِبرِ الحمِيةِ، وفخر الجاهليةِ، فإنه ملاقِح الشنآن٣ ومنافخُ الشيطـان،

الّتي خدع بِها الأُمم الماضِية والقُرون الخالِية٤. أمراً تشابهتِ القُلُـوب فيـه، وتتابعتِ القُرون عليهِ، وكِبراً تضايقتِ الصدور بهِ».

ثم يوجه الأنظار بصورة مباشرة إلى القيادات الّتي تغذّي هذه الآفة، وتؤجج نارها وهم زعماء القبائل:

«ألا فالحذر الحذر مِن طاعةِ ساداتِكُم، الّذين تكبروا عن حسبِهـم وترفعـوا فـوق نسبِهم... فإنهم قواعِد أساسِ العصبِيةِ، ودعائم أركان الفِتنةِ، وسـيوف اعتِـزاءِ٥ الجاهِلية. فاتقُوا اللّه

---

١ . أمعنتم في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض، أي ذهب فيها بعيداً.
٢ . مصارحة للّه..: أي مكاشفة يعني الإعلان بالمعاصي، وعدم التستر في شأن العصبيّة والتكبر الجاهلي.
٣ . ملاقح جمع ملقح، وهو المصدر من لقحت: والشّنآن: البغض يريد أنّ الكبر والفخر الجاهلي مكان البغضاء والحقد ومثارهما.
٤ . منافخ الشيطان: جمع منفخ، مصدر من نفخ: يعني أن الكبر والفخر هما المكان الّذي ينفخ فيه الشّيطان من نفس الإنسان فيدفعها إلى الشّر والجريمة.
٥ . اعتزاء الجاهلية: الإعتزاء هو الإنتساب، أي أنّهم يفتخرون بأنسابهم وآبائهم، كقولهم: يا لفلان، أو: يا لآل فلان.

ولا تكُونُوا لِنعمِهِ عليكُم أضداداً، ولا لفضلِهِ عِندكُم حساداً، ولا تُطيعـوا الأدعيـاء الّذِين شربتُم بصفوكُم كدرهم١، وخلطتُم بصحتكُم مرضهم، وأدخلتُـم فـي حقكُـم باطِلهم، وهم أساس الفُسوق وأحلاس العقُوق...»٢.

ثم يعود الإمام إلى التنظير بالتاريخ، مذكّراً بالنهايات الفاجعة للأُمم والشعوب الّتي فتكت بها آفة التّعصب والتّناحر، مقابلاً ذلك بالنهج النبوي الإنساني البعيد عـن الكبر:

«فاعتبِروا بِما أصاب الأُمم المستكبِرين مِن قبلكُم مِن بأسِ اللّهِ وصولاتِهِ، ووقائِعِهِ ومثُلاتِهِ واتّعِظُوا بِمثاوي خُدودهِم ومصارع جنُوبِهِم... فلو رخص اللّه في الكِبـر لأحدٍ مِن عِبادِهِ لرخّص فيه لِخاصةِ أنبيائِهِ... ولقد دخل موسى بن عِمران ومعـه أخُوه هارون - عليهما السلام - على فِرعون وعليهما مدارع الصوفِ٥، وبِأيديهما العِصِي، فشرطا له - إن أسلم - بقاء ملكِهِ، ودوام عِزِهِ، فقالَ: (ألا تعجبون مِـن هذين يشرطان لي دوام العِز وبقاء الملكِ، وهما بِما ترون مِن حال الفقر والذل)».

ويستمر الإمام في التّنظير التّاريخي، داعياً مستمعيه إلى فحص المواقف التاريخية

الّتي مرت على الأمم السابقة، وتجنّب الإختيارات والتّجارب الّتي أدت إلـى الإنحطاط والإنهيار، واختيار المسلكية الّتي ثبت بالتّجربة صلاحها:

«... واحذروا ما نزلَ بِالأُممِ قبلكُم مِن المثُلاتِ بِسوءِ الأفعـال وذميـمِ الأعمـال. فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تُكُونُوا أمثالهم. فإذا تفكـرتُم فـي تفاوتِ حالِيهم، فالزموا كُل أمرٍ لزمتِ العِزةُ بِهِ شأنهم، وزاحتِ الأعداء له عنهم٦. ومدتِ العافيةُ بِهِ عليهم،

---

١ . المراد من هذه الجملة وما بعدها أنّ هؤلاء الزعماء يفسدون بنزعاتهم الشرّيرة حياتكم وإيمانكم وطهارة نفوسكم.
٢ . الأحلاس: جمع حلس. وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، فقيل لكلّ ملازم أمر: هو حلس ذلك الأمر. فهؤلاء المغدون من رؤساء القبائل ملازمون للعقوق والتنكر لنعم اللّه ولأحكام الشرع وقواعد الأخلاق.
٣ . المثلات والوقائع: يقصد بهما عقوبات اللّه الّتي استحقوها نتيجة لإنحرافاتهم.
٤ . المثوى: المنزل. مواضع حدودهم بعد الموت على التراب، ومصارع جنوبهم: مواقعها بعد الموت على التّراب.
٥ . مدارع الصّوف: جمع مدرعة - بكسر الميم - وهي كالكساء.
٦ . زاحت: بعدت. وله: لأجله، يعني: الزموا كل أمر خافتهم الأعداء بسببه.

وانقادتِ النعمةُ له معهم، ووصلَتِ الكرامةُ عليهِ حبلهم، مِـن الإجتنـابِ لِلفُرقـةِ، واللزوم للألفةِ، والتحاض عليها١، والتواصي بِها.

«واجتنبوا كُل أمرٍ كسر فِقرتهم٢، وأوهن مِنّتهم٣ مِن تضاغُن القُلوبِ٤، وتشاحـن الصدور، وتدابر النفُوسِ وتخاذُل الأيدي...»٥.

ويستمر الإمام في تنظيره التاريخي بتقديم أمثلة محددة مـن حيـاة الإسـرائيليين والعرب، بعدما كان في تنظيره السابق يذكر الأمم بشكل عـام، دون أن يخـص بالذّكر أمة بعينها:

«... وتدبروا أحوال الماضِين مِن المؤمِنين قبلكُم: كيف كانُوا في حال التّمحِيص٦ والبلاءِ. ألم يكُونُوا أثقلَ الخلائقِ أعباء، وأجهد العِبادِ بلاء٧ وأضيق أهـل الدنيـا حالاً. اتخذتهم الفراعِنةُ عبيداً فساموهم سوء العذابِ، وجرعوهم المرار٨، فلم تبرح الحالُ بِهم في ذُل الهلكةِ وقهر الغلبةِ... حتى إذا رأى اللّه سبحانه جد الصبر منهم على الأذى في محبتِهِ٩، والإحتمالَ للمكروه من خوفِهِ، جعلَ لهم في مضايق البلاءِ فرجاً، فأبدلهم العِز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكّاماً، وأئمةً

أعلاماً... فانظُروا كيفَ كانُوا حيثُ كانتِ الأمـلاء مجتمِعـةً١٠، والأهـواء مؤتلِفةً، والقُلُوب معتدِلةً، والأيدى مترادِفةً١١، والسيوفُ متناحِرةً، والبصائر نافِـذةً ١٢، والعزائم واحِدةً، ألم يكُونُوا أرباباً في أقطارِ الأرضين،

---

١ . التحاض، صيغة تفاعل من الحض بمعنى الحث والترغيب، يعني أن يحث بعضكم بعضاً على الإتحاد والتعاون.
٢ . الفقرة: واحدة فقر الظهر. ويقال لمن اصابته مصيبة شديدة: قد كسرت فِقرته. يعني اجتنبوا كلّ ما أضعف الأمم السّابقة وسبب لها الإنحطاط.
٣ . المنة: القوة، ومعنى الجملة كسابقتها.
٤ . تضاغن القلوب وتشاحن الصّدور بمعنى واحد: تبادل البغضاء بين فئات المجتمع.
٥ . تخاذل الأيدي: ألا ينصر الناس بعضهم بعضاً ولا يتعاونون في حالات الخطر.
٦ . التّمحيص: التّطهير والتّصفية.
٧ . أجهد العباد: أكثرهم تعباً.
٨ . المرار: شجر مر في الأصل، كناية عمّا أصابهم من العذاب والهوان على أيدي الفراعنة.
٩ . رأى اللّه منهم جد الصّبر، أي أشد الصّبر.
١٠ . الأملاء: الجماعات، الواحد: ملأ، يريد اتحاد الفئات الإجتماعية وتعاونها.
١١ . مترادفة: متعاونة.
١٢ . البصائر نافذة: الإرادة عازمة جازمة غير متردّدة للعلم بحقيقة الموقف أو الشّيء.

ومأوكاً على رقابِ العالَمِين.

«فانظُروا إلى ما صاروا إليه في آخرِ أمورهم، حين وقعتِ الفُرقَةُ وتشتتتِ الألفةُ، واختلفتِ الكلِمةُ والأفئدةُ، وتشعبوا مختلِفين، وتفرقُوا متحاربين، قد خلع اللّه عنهـم لِباس كرامتِهِ. وسلبهم غضارة نِعمتِهِ١، وبقي قصص أخبارِهِم فِيكُم عِبراً لِلمعتبرين مِنكُم.

«فاعتبِروا بحال ولدِ إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام، فما أشـد اعتِدالَ الأحوال٢ وأقرب اشتِباه الأمثال.

«تأمّلُوا أمرهم فِي حال تشتتهم وتفرقهم ليالِي كانت الأكاسرةُ والقياصِرةُ أرباباً لهم. يختارونهم عن ريفِ الآفاق٣، وبحرِ العِراق٤ وخُضرةِ الدنيا، إلى منابـتِ الشيـح ومهافِي الريح٥، ونَكد المعاش٦ فتركُوهم عالةً مساكِين، إخوان دبرٍ ووبـر٧، أذل الامم داراً، وأجدبهم قراراً، لا يأوون إلى جناحِ دعوةٍ يعتصِمون بها، ولا إلى ظِل ألفةٍ يعتمدون على عِزها، فالأحوالُ مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرةُ متفرقـة، في بلاءِ أزلٍ٨ وأطباق جهلٍ٩، من بناتٍ مـوؤودةٍ، وأصـنام معبـودةٍ، وأرحـامٍ

مقطُوعة، وغاراتٍ مشنُونةٍ.

«فانظُروا إلى مواقِعِ نعمِ اللهِ عليهم حين بعثَ إليهم رسولاً، فعقد بمِلتـهِ طـاعتهم، وجمع على دعوتهِ ألفتهم كيف نشرتِ النعمةُ عليهم جناح كرامتِها، وأسـالت لهـم جداول نعيمها. والتفتِ المِلةُ بهم في عوائد بركتِها، فأصبحوا في نعمتها غرقين[10] وفي خُضرةِ عيشِها فكهين[11] قد تربعتِ الأمور بهم[12] في ظـل سـلطانٍ قاهـرٍ وآوتهم الحالُ إلى كنفِ عز غالبٍ[13]

---

١ . الغضارة: النّعمة اللّينة الطّيّبة.
٢ . ما أشدّ اعتدال الأحوال: ما أشبه الأشياء بعضها ببعض.
٣. الرّيف: الأرض ذات الخصب والزرع، والجمع أرياف.
٤ . بحر العراق: دجلة والفرات. قال ابن أبي الحديد: ١٣ / ١٧٣ «أمّا الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق، وأمّا القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق أي عن الشّام وما فيه من المرعى والمنتجع».
٥ . يقصد البادية الخالية مِن الزّرع والمياه والعمران.
٦ . نكد المعاش: قلّته، وصعوبة الحصول عليه، وخشونته.
٧ . عالة: فقراء (دبر ووبر) دبر البعير عقرة القتب. والوبر للبعير بمنزلة الصّوف للضأن. يريد أنّهم كانوا عالة فقراء يمثل البعير ثروتهم، ومرضه شغلهم الشاغل.
٨ . الأزل: الضّيق والشّدّة، يريد بلاء شديداً شغلهم عن كلّ شيء.
٩ . أطباق، جمع طبق. أي جهل متراكم بعضه فوق بعض.
١٠ - غرقين: من الغرق، مبالغة في وصف ما هم فيه من النعمة.
١١ . فكهين: بمعنى ناعمين.
١٢ . تربّعت الأمور بهم، أي أقامت، من: ربع بالمكان أي أقام فيه، يعني استقرار أحوالهم السّياسيّة والمعيشيّة.
١٣ . آوتهم الحال: ضمتهم وأنزلتهم، والكنف: الجانب.

١١٢

وتعطفتِ الأمور عليهم في ذُرى ملكٍ ثابتٍ[1] فهم حكّام على العالمين، وملُوك فـي أطرافِ الأرضين. يملِكُون الأمور على من كان يملِكُها عليهم، ويمضون الأحكـام فيمن كان يمضِيها فيهم، لا تُغمز لهم قناة، ولا تُقرع لهم صفاة[2]...

«وإن عندكُم الأمثالُ من بأسِ اللّه وقوارعِهِ، وأيامِهِ ووقائعِهِ[3]، فلا تستبطئُوا وعيده جهلاً بأخذِهِ وتهاوناً ببطشِهِ، ويأساً من بأسِهِ فإن اللّه سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكُم إلا لتركِهم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فلعـن اللّـه السفهـاء لركُوب المعاصي، والحلماء لتركِ التناهي»[4].

---

١ . تعطّفت.. كناية عن السّعادة والإقبال، يقال: تعطّف الدّهر على فلان، أي أقبل حظّه وسعادته، والذّرى الأعالي، جمع ذروة،

كناية عن عزّهم وقوّتهم وامتناعهم.
٢ . لا تغمز.. لا تقرع.. مثل يضرب لمن لا يجترأ عليه لعزته وقوته.
٣ . الأمثال هي ما ورد في القرآن بما قصّه اللّه تعالى من أحوال الأمم القديمة وكيف نزلت بها الكوارث نتيجة لممارساتها المنحرفة.
٤ . التّناهي مصدر تناهى القوم عن كذا، أي نهى بعضهم بعضاً. يقول: لعن اللّه الماضين من قبلكم لأنّ سفهاءهم ارتكبوا المعصية. وحلماءهم لم ينهوهم عنها وهذا من قوله تعالى في شأن بني إسرائيل (كانُوا لا يتناهَونَ عن مُنكرٍ فعلُوهُ لبِئسَ ما كانُوا يفعلونَ) سورء المائدة / ٧٩.

٥ ـ المعروف والمنكر والأكثرية الصّامتة

من فرائض الإسلام الكبرى فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وقد ورد تشريع هذه الفريضة في الكتاب الكريم والسنّة الشّريفة في عدة نصـوص دالّة على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر على جميع المسلمين بنحـو الواجب الكفائي١.

كما وردت نصوص أخرى كثيرة في الكتاب والسنّة، منها ما يشتمل علـى بيـان الشّروط التي يتنجز بها وجوب هذه الفريضة على المسلـم. ومنهـا مـا يضـيء الجوانب السياسية والإجتماعية لهذه الفريضة، كما يوضح المبدأ الفكري الإسلامي العام الّذي ينبثق منه هذا التّشريع، دلّ على وجوب هذه الفريضة من الكتاب الكريم قوله تعالى:

«ولتكُن مِنكُم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بِالمعروفِ وينهون عن المنكر، أُولئك هم المفلحون»٢.

فقد دلّت هذه الآية على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من جهة دلالة لام الأمر في «ولتكن» على الوجوب.

---

١ . من جملة تقسيمات الواجب عند علماء أُصول الفقه تقسيمه إلى واجب عيني وواجب كفائي. ويعنـون بالواجـب العينـي مـا يتعلق بكلّ مُكلّف ولا يسقط عن أحد من المكلّفين بفعل غيره. ويعنون بالواجب الكفائي ما يطلب فيه وجود الفعل من أيّ مكلّف كان، فهو يجب على جميع المكلّفين ولكن يكتفى بفعل بعضهم فيسقط عن الآخرين. نعم إذا تركه جميع المكلّفين فالجميع مذنبون. وأمثلة الواجب الكفائي كثيرة في الشّريعة منها تجهيز الميّت والصّلاة عليه، ومنها الحِرَف والصّناعات والمِهَن الّتي يتوقف عليها انتظام شؤون حياة النّاس ومنها الإجتهاد في الشّريعة، ومنها الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

٢ . سورة آل عِمران (مدنيّة - ٣) الآية: ١٠٤.

كما أن ظاهرها أن الواجب هنا كفائي لا عيني، لأن مفاد الأمر تعلّق بأن تكون في المسلمين أُمة تأمر وتنهى، لا بجميعهم على نحو العينية الإستغراقية وعليـه فـإذا قامت جماعة منهم بهذا الواجب سقط الوجوب عن بقية المكلّفين كما هو الشّأن في الواجب الكفائي.

ولم يحدد في القرآن والسنّة عدد مخصوص لأفراد هذه الأمة، فيراعى في عدد الأفراد القائمين بالواجب مقدار الوفاء بالحاجة.

وقد جعل اللّه تعالى في كتابه الكريم وعي هذه الفريضة، وأدائها حين يدعو وضع المجتمع إلى ذلك، من صفات المؤمنين الصالحين، فقال تعالى:

«والمؤمِنُون والمؤمِناتُ بعضهم أولياء بعضٍ يأمرون بِالمعروفِ، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاةَ ويؤتُون الزكاة ويطيعون اللّه ورسوله أُولئك سيرحمهم اللّه إن اللّه عزيز حكيم»١.

فقد دلّت الآية المباركة على تضامن المؤمنين بعضهم مع بعض في عمل الخير والبر والتقوى، وأنّهم جميعاً من جنود هذه الفريضة حين يدعوهم الواجب إليها.

وسياق الآية الكريمة دالّ على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، من حيث أن بقية ما ورد في الآية كلّه من الواجبات المعلومة في الشريعة (الصلاة، والزكاة، وطاعة اللّه ورسوله)٢، وإن لم تكن الدلالة السياقية من الدلالات الّتي لها حجية في استظهار الأحكام الشّرعية.

وكما ورد مدح المؤمنين والمؤمنات - كأفراد - في الآية الآنفة، فقد ورد في آية أخرى مدح المسلمين كافّة - كأمة ومجتمع - من حيث وعيهم لهذه الفريضة وعملهم بها، وتلك هي قوله تعالى:

---

١ . سورة التّوبة (مدنيّة - ٩) الآية: ٧١.

٢ . ربّما يكون المراد من طاعة اللّه ورسوله، بعد ذكر الأمر والنّهي والصّلاة والزّكاة - الطاعة في الشّأن السّياسي، فلا يكون من ذكر العامّ بعد الخاص.

«كُنتُم خير أُمةٍ أُخرجت لِلناسِ تأمرون بِالمعروفِ وتنهون عن المنكر، وتُؤمنُون بِاللّه»١.

وقد مدح اللّه في كتابه الكريم المسلمين من أهل الكتاب، أتباع الأنبياء السابقين قبل بعثة النّبي محمد (ص) بوعيهم لهذه الفريضة والعمل بها، مما يكشف عن أنّها فريضة عريقة في الإسلام منذ أقدم عصوره وصيغِهِ، وأنّها قد كانت فريضة ثابتة

في جميع مراحله التّشريعية الّتي جاء بها أنبياء اللّه تعالى جيلاً بعد جيل. قال تعالى:

«ليسوا سواء مِن أهل الكتابِ أُمة قائمة يتلُون آياتِ اللهِ آناء الليل وهم يسجـدون. يؤمنُون بِاللّه واليوم الآخرِ، ويأمرون بِالمعروف وينهون عن المنكرِ، ويسـارعون في الخيراتِ وأُولئك مِن الصالحين»٢.

*

وقد كان إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمع من شواغل الإمـام الدائمة. وقد تناولها في خطبه وكلامه - كما تعكس لنا ذلك النّماذج الّـتي اشـتمل عليها نهج البلاغة - من زوايا كثيرة:

تناولها كقضية فكرية لا بد أن توعى لتغني الشّخصية الواعية، وباعتبارها قضيـة تشريعية تدعو الأمة والأفراد إلى العمل.

ومن هذين المنظورين عالجها بعدة أساليب.

*

لقد أعطاها منزلة عظيمة، تستحقها بلا شك، بين سائر الفرائض الشرعية، فجعلها إحدى شعب الجهاد الأربع:

«.. والجهاد منها - من دعائِمِ الإيمان - على أربعِ شُعبٍ: على الأمرِ بـالمعروف والنهي عن المنكرِ، والصدقِ في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بـالمعروفِ شد ظُهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكرِ أرغم أنُوف الكافرين ومن صدق فـي المواطن قضى ما عليه، ومن

---

١ . سورة آل عِمران (مدنيّة - ٣) الآية: ١١٠.
٢ . سورة آل عِمران (مدنيّة - ٣) الآية: ١١٣ - ١١٤.

شنِئ الفاسِقين وغضِب للّه غضِب اللّه له وأرضاه يوم القيامةِ»١.

وجعل الإمام هذه الفريضة، في كلام له آخر، تتقدم على أعمال البر كلّها، فقال:

«... وما أعمالُ البِر كُلها، والجهاد في سبيل اللّه عند الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن

المنكر إلا كنفثةٍ[2] في بحرٍ لُجي...»[3].

ومن السهل علينا أن نفهم الوجه في تقدم هذه الفريضة على غيرها إذا لاحظنا أن أعمال البر تأتي في الرتبة بعد استقامة المجتمع وصلاحه المبدئي - الشّرعي والأخلاقي - وأن الجهاد لا يكون ناجعاً إلا إذا قام به جيش عقائدي، وهذه كلّها تتفرع من الوعي المجتمعي للشريعة والأخلاق، ومن الحد الأدنى للإلتزام المسلكي بهما.

*

في بعض كلماته بين الإمام جانباً من الأسباب الموجبة لهذا التّشريع، فقال:

«فرض اللّه... والأمر بالمعروفِ مصلحةً للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاءِ»[4].

فعامة النّاس الّذين قد يقعون في إثم ترك الواجبات لأنّهم لا يعرفونها على وجهها أو يجهلونها، يمكّنهم الأمر بالمعروف من التعلّم والتفقّه، بالإضافة إلى أولئك الّذين يقعون في إثم ترك الواجب وهم يعرفون الواجب والحرام حيث يردهم الأمر بالمعروف إلى جادة الصواب والإستقامة، كما يرد إليها السفهاء الّذين يتجاوزون في لهوهم وعبثهم حدود اللّه.

*

وللأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مراتب متدرجة من الأدنى إلى الأعلى، فهي

---

١ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النّص: ٣١.
٢ . النفثة - كالنّفخة لفظاً ومعنى بزيادة ما يمازج النفس من الريق عند النّفخ.
٣ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النّص: ٣٧٤.
٤ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص: ٢٥٢.

فريضة مرنة تستجيب للحالات المتنوعة، وللأوضاء المختلفة. فرب إنسان تنفع في ردعه الكلمة، ورب إنسان لا ينفع في شأنه إلا العنف.

ولكلّ حالة طريقة أمرها ونهيها الّتي يقدرها الآمر والنّاهي العارف، ويتصرف بقدرها فلا يتجاوزها إلى ما فوقها حيث لا تدعو الحاجة إليه، ولا ينحطّ بها إلى ما

دونها حيث لا يؤثّر ذلك في ردع السفيه عن غيه وحمله على الإستقامة والصلاح.

وثمة حالات من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لا بد فيها من القتال، وهذه حالات تحتاج إلى أن يقود عملية الأمر والنهي فيها الحاكم العادل. وفي هذه الحالات الخطيرة جداً لا يجوز لآحاد الناس أو جماعاتهم أن يقوموا بها دون قيادة حاكم شرعي عادل.

وإذا كانت مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تتدرج صاعدة من الإنكار بالقلب إلى الإنكار باللّسان إلى الإنكار باليد، وللإنكار باللّسان درجات، وللإنكار باليد درجات...

وإذا كانت الحالات العادية للأمر والنّهي تتفاوت في خطورتها وأهميتها بما يستدعي هذه المرتبة من الإنكار أو تلك...

فإن الحالات الكبرى الّتي لا بد فيها من تدخل الحاكم العادل والأمة كلّها قد تبلغ درجة من الخطورة لا بد فيها من الإنكار بالقلب واللّسان وأقصى حالات الإنكار باليد - أعني القتال.

وهذا هو ما كان يواجهه المجتمع الإسلامي في عهد الإمام عليه السلام، متمثلاً تارة في ناكثي البيعة الّذين خرجوا على الشرعية واعتدوا على مدينة البصرة، ولم تفلح دعوته لهم بالحسنى في عودتهم إلى الطاعة واضطروه إلى أن يخوض ضدهم معركة الجمل في البصرة. أو المتمردين على الشرعية في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان الّذي رفض جميع الصيغ السياسية الّتي عرضها عليه الإمام ليعود من خلالها إلى الشرعية. أو المارقين الخوارج على الشّرعية والّذين رفضوا كلّ عروض السلام الّتي قُدمت لهم، وأصروا على الفتنة ومارسوا الإرهاب ضد الفلاحين والآمنين والأطفال والنّساء...

في هذه الحالات وأمثالها على المسلم المستقيم أن يبرأ من الإنحراف في قلبه، وأن يدينه علناً بلسانه، وأن ينخرط في أي حركة يقودها الحاكم العادل لتقويم الإنحراف بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك.

قال عليه السلام، فيما يبدو أنه تقسيم لمواقف النّاس الّذين كان يقودهم من المنكر

المبدئي الخطير الّذي كان يهدد المجتمع الإسلامي كلّه في استقراره، وتقدمه، ووحدة بنيه:

«فمِنهم المنكر للمنكر بيدِهِ ولسانِهِ وقلبِهِ، فذلك المستكمِلُ لِخصال الخـير. ومنهـم المنكِر بِلسانِهِ وقلبِهِ والتارك بيدِهِ فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلةً، ومنهم المنكِر بقلبِهِ والتارك بيدِهِ ولسانِهِ فذلك الذي ضيع أشرفَ الخصلتين من الثلاثِ وتمسك بِواحدةٍ. ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانِهِ وقلبِهِ ويدِهِ فذلك ميتُ الأحياءِ»١.

ونلاحظ أن الإمام سمى التّارك، في هذه الحالة الخطيرة، لجميـع مراتـب الأمـر بالمعروف والنّهي عن المنكر «ميت الأحياء» ونفهم صدى هذا الوصف إذا لاحظنا أن إنساناً لا يستشعر الأخطار المحدقة بمجتمعه، ولا يستجيب لهـا أي اسـتجابة، حتى أقل الإستجابات شأناً وأهونها تأثيراً، وأقلها مؤونةً وهي الإنكار بالقلب الّـذي يقتضيه مقاطعة المنكر واعتزال أهله - أن إنساناً كهذا بمنزلـة الجثـة الّـتي لا تستجيب لأي مثير، لأنّها خالية من الحياة الّتي تشعر وتستجيب.

ويقول عبد الرحمان بن أبي ليلى الفقيه، وهو ممن قاتل مع الإمام في صـفّين، أن الإمام كان يقول لهم حين لقوا أهل الشّام:

«أيها المؤمنُون. إنه من رأى عدواناً يعملُ بِهِ، ومنكراً يدعى إليه فأنكره بِقلبِهِ فقـد سلم وبرئَ، ومن أنكره بِلسانِهِ فقد أُجِر، وهو أفضلُ من صـاحبِهِ. ومـن أنكـره بالسيف لِتكُون كلِمةُ اللّه هي العليا وكلِمةُ الظّالمين هي السفلى فذلك الّذي أصـاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونور في قلبِه اليقين»٢.

---

١ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النص: ٣٧٤.
٢ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النّص: ٣٧٣.

ونلاحظ هنا أن الإمام وضع للإنكار بالسيف - وهو أقصى مراتب الإنكار باليد - شرطاً، هو أن تكون الغاية منه إعلاء كلمة اللّه لا العصبية العائلية أو العنصريـة، ولا المصلحة الخاصة، والعاطفة الشّخصية. وهذا شرط في جميع أفعال الإنسـان،

وفي جميع مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، إلا أن الإمام عليـه السلام صرح به في هذه المرتبة لخطورة الآثار المترتبة على القيام بها من حيـث أنّها قد تؤدي إلى الجرح والقتل.

*

ويقدر الإمام أن كثيراً من الناس يتخاذلون عن ممارسة هذا الواجب الكبـير فـلا يأمرون بالمعروف تاركه ولا ينهون عن المنكر فاعله بسبب ما يتوهمون من أداء ذلك إلى الإضرار بهم: أن يعرضـوا حيـاتهم للخطـر، أو يعرضـوا علاقاتهـم الإجتماعية للإهتزاز والقلق، أو يعرضوا مصادر عيشهم للإنقطاع... وما إلى ذلك من شؤون.

وقد لحظ الشارع هذه المخاوف، فجعل من شروط وجوب الأمر والنهي عن المنكر عدم ترتب ضرر معتد به على الآمر والناهي.

ولكن كثيراً من الناس لا يريدون أن يمسهم أي أذى أو كدر. وهذا موقـف ذاتـي وأناني شديد الغلو لا يمكن القبول به من إنسان يفترض فيه أنـه ملـتزم بقضايـا مجتمعهِ كما هو شأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر. فهو إنسان يستبد بـه القلق لأي انحراف يراه، ويدفعه قلقه وأخلاقه إلى أن يتصدى للإنحراف بالشّكـل المناسب، وهو الّذي قال فيه الامام في النّص السابق «المستكمل لخصال الخير».

لقد نبه الإمام - في موضعين من نهج البلاغة على أن التّخاذل عن الأمر والنهـي خشية التعرض للأذى ناشئ عن أوهام ينبغي أن يتجاوزها المؤمن الملتزم بقضيـة مجتمعه، فلا يجعلها هاجسه الّذي يشلّه فيحول بينه وبين الحركة المباركة المثمرة، فقال الإمام فيما خاطب به أهل البصرة في إحدى خطبه، وقد كانوا بحاجة إلى هذا التّوجيه، لما شهدته مدينتهم، وتورط فيه كثير منهم من فتنة الجمل:

«وإن الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ لخُلُقان مِن خُلُق اللّه سبحانه، وإنهمـا لا يقربان مِن

أجلٍ، ولا ينقصان مِن رزقٍ»١.

ونوجه النظر إلى قوله عليه السلام أن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر خلقـان من خلق اللّه عز وجلّ، فاللّه هو الآمر بكلّ معروف، والناهي عـن كـلّ منكـر،

وإذن، فإن المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه الواعي للأخطار المحدقة به، يمتثل - حين يأمر وينهى - لله تعالى ويتبع سبيله الأقوم.

وقال الإمام في موقف آخر:

«وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يقربان من أجلٍ ولا ينقُصـان مـن رزق»٢.

*

قلنا إن إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمـع الدائمـة، وإحـدى الطّاقات الفكرية الحية المحركة للمجتمع كان من شواغل الإمام الدائمة.

وكان يحمله على ذلك عاملان:

أحدهما أنّه إمام المسلمين، وأمير المؤمنين، ومن أعظم واجباته شـأناً أن يراقـب أمته، ويعلّمها ما جهات، ويعمق وعيها مما علمت، ويجعل الشّريعة حية في ضمير الأمة وفي حياتها.

وثانيهما هو قضيته الشّخصية في معاناته لمشاكل مجتمعه الداخلية والخارجية فـي قضايا السياسة والفكر.

فقد كان الإمام يواجه في مجتمعه حالة شاذة لا يمكن علاجها والتغلب عليها إلا بأن يجعل كلّ فرد بالغ في المجتمع - والنّخبة من المجتمع بوجه خاص - من قضيـة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، في كلّ موقف تدعو الحاجة إليهما وخاصـة في المواقف الخطيرة، قضية التزام شخصي واع وصارم.

لقد شكا الإمام كثيراً من النّخبة في مجتمعه، وأدان هذه النّخبة بأنّها نخبة فاسدة

---

١ . نهج البلاغة - رقم الخطبة ١٥٦.
٢ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النّص ٣٧٤.

في الغالب لأنّها لم تلتزم بقضية شعبها ووطنها وإنّما تخلّت عن هذه القضية سـعياً وراء آمال شخصية وغير أخلاقية...

أكثر من هذا: لقد اتّهم الإمام هذه النخبة مراراً بأنّها خائنة. ومـن مظـاهر عـدم

التزامها بقضية شعبها أو خيانته هو تخليها الّذي لا مبرر له عـن ممارسـة واجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذ يئس الإمام من التّأثير الفعال في هذه النّخبة فقد توجه بشكواه رأساً إلى عامـة الشّعب محاولاً أن يحركه في اتجاه الإلتزام العملي بقضيته العادلة، موجهاً وعيـه نحو الأخطار المستقبلية، محذراً له من تطلّعات نخبته.

نجد هذا التّوجه نحو عامة الشعب مباشرة ظاهراً في الخطبة القاصعة الّتي تضمنت ألواناً من التّحذير، النّابض بالغضب، من السقوط في حبائل النّخبة.

وكانت قضية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر - فيما يبـدو - والتراخـي أو اللامبالاة الّتي تظهرها النّخبة نحو هذه القضية - إحدى أشد القضايا إلحاحاً علـى ذهن الإمام وأكثرها خطورة في وعيه.

وكان أسلوب التّنظير بالتاريخ إحدى الوسائل الّتي استعملها الإمـام فـي تحـذيره لشعبه وفي تعليمه الفكري لهذه الفريضة.

لقد كانت شكواه وتحذيراته المترعة بالمرارة والألم نتيجة لمعاناته اليومية القاسـية من مجتمعه بوجه عام ومن نخبة هذا المجتمع بوجه خاص.

ولا بد أن هؤلاء وأولئك قد سمعوا من الإمام مراراً كثيرة مثل الشّكوى التّالية الّتي قالها في أثناء كلام له عن صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل:

«إلى اللّه أشكُو مِن معشر يعيشُون جهالاً ويموتُون ضلالاً. ليس فيهم سِلعة أبور[1] مِن الكتاب إذا تُلي حق تلاوتِهِ، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً مِن الكِتـاب إذا حرف عن مواضعِهِ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرفُ من المنكر»[2].

---

١ . أبور - على وزن أفعل - من البور، الفاسد، بار الشيء أي فسد، وبارت السّلعة أي كسدت ولم تنفق، وهذا هـو المـراد هنـا: أنّ العمل الحق بالقرآن كاسد لا يقبله الناس ولا يتعاملون معه.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٧.

كان النّهج الّذي سار عليه الإمام في حكمه نهج الإسلام الّذي يستجيـب لحاجـات عامة النّاس في الكرامة، والرخاء، والحرية.

وكان هذا النّهج يتعارض، بطبيعة الحال، مع مصلحة طبقة الأعيان وزعماء القبائل الّذين اعتادوا على الإستماع بجملة من الإمتيازات في العهد السـابق علـى خلافة أمير المؤمنين علي (ع).

وقد كان لهذه الطّبقة ذات الإمتيازات أعظم الأثر في الحيلولة بشتّى الأساليب دون تسلّم الإمام للسلطة في الفرص الّتي مرت بعد وفاة رسول اللّه (ص)، وبعد وفـاة أبي بكر، وبعد وفاة عمر، ولكنه بعد وفاة عثمان تسلّم السلطة على كراهيـة منـه لها، وعلى كراهية من النّخبة له، فقد قبلت به مرغمة لأن الضغط الذي مارسـته الأكثرية الساحقة من المسلمين في شتّى حواضر الإسلام شلّ قدرة النّخبة الماليـة وطبقة الأعيان على التأثير في سير الأحداث، فتكيفت مع الوضع الجديـد الّـذي وضع الإمام علياً - بعد انتظار طويل - على رأس السلطة الفعليـة فـي دولـة الخلافة.

وقد كشفت الأحداث الّتي ولدت فيما بعد عن أن هذا التكيف كان مرحلياً، رجاء أن تحتال في المستقبل، بطريقة ما - لتأمين مصالحها وامتيازاتها.

وحين يئست طبقة الأعيان هذه من إمكان التّأثير على الإمام وتبددت أحلامهم فـي تغيير نهجه في الإدارة وسياسة المال وتصنيف الجماعـات تغيـيراً ينسجـم مـع مصالحهم فيحفظ لها مراكزها القديمة، ويبوئها مراكز جديدة ويمدها بالمزيد مِـن القوة والسلطات على القبائل والموالي من سكّان المدن والأرياف... حيـن يئسـت هذه الطّبقة من كلّ هذا وانقطع أملها.. طمع كثير من أفراد هذه الطّبقة بتطلّعا ته إلى الشّام ومعاوية بن أبي سفيان، فقد رأوا في نهجه وأسلوبه فـي التّعامـل مـع أمثالهم ما يتّفق مع فهمهم ومصالحهم... وتخاذل بعض أفرادها عن القيام بواجباتهم العسكرية في مواجهة النشاط العسكري المتزايد الّذي قـام بـه الخـارجون عـن الشّرعية في الشّام، هذا النّشاط الّذي اتّخذ في النّهاية طابع الغـارات السريعـة وحروب العصابات.

وكان تخاذلاً لا يمكن تبريره بجبنهم فشجاعتهم ليست موضع شك على الإطلاق.

ولا يمكن تبريره بقلّتهم، فقد كانت الأمة قادرة على أن تزود حكومتها الشرعية

بجيوش جرارة وجنود أقوياء مدربين جعلت منهم طبيعتهم، وثقـافتهم، وحـروب

الفتح الّتي خاضوها مدة سنوات طويلة من خيرة المقاتلين في العالم.

ولا يمكن تبريره بنقص في التّسليح وعدة الحرب وعتادها، فقد كانت معامل السلاح نشطة لتأمين إحتياطي ضخم من السلاح لمجتمع كان لا يزال محارباً.

ولا يمكن تبريره بسوء الحالة الإقتصادية، فقد كان المال العام وفيراً بعد أن أصلحت الإدارة المالية في خلافة الإمام.

لم يكن إذن ثمة سبب للتّخاذل سوى الموقف السياسي غير المعلن الّذي صممت النّخبة من الأعيان وزعماء القبائل على التّمسك به والتّصرف في القضايا العامة وفقاً له، إلى النّهاية، وذلك بهدف تفريغ حكومة الإمام علي من قوة السلطة، وجعلها عاجزة عن الحركة بسبب عدم توفّر الوسائل الضرورية لها، وهذا ما يؤدي في النّهاية إلى انتصار التّمرد على الشّرعية.

كان هذا الموقف السياسي غير المعلن هو سبب التّخاذل.

وقد كان هذا الموقف غير معلن، بل كان قادة هذه النّخبة يوحون بإخلاصهم وتفانيهم، لأن هذه النخبة كانت تخاف، إذا أعلنت موقفها وكشفت عن نواياها وأهدافها البعيدة وأمانيها المخزية، من جمهور الأمة أن يكتشف لعبتها ضد آماله ومصالحه، فيدينها ويعاقبها.

وقد حفظ لنا الشريف في نهج البلاغة نصوصاً كثيرة يلوم فيها الإمام نخبة مجتمعه لوماً قاسياً مراً على تراخيهم وتخاذلهم عن القيام بالتزاماتهم العسكرية في الدفاع عن الشرعية، ولا شك أن الإمام في آخر عهده كان مضطراً للإكثار من هذا اللّوم والتقريع، كقوله في إحدى خطبه:

«ألا وإنّي قد دعوتُكم إلى قتال هؤلاءِ القوم ليلاً ونهاراً، وسِراً وإعلاناً، وقلتُ لكُم: اغزوهم قبل أن يغزوكُم، فو اللّه ما غُزي قوم قط في عقر دارهِم[1] إلا ذلوا، فتواكلتُم وتخاذلتُم[2]،

---

١ . عُقر دارهم: أصل دراهم، والعُقر: الأصل، ومنه: العقار للنخل، كأنّه أصل المال.

٢ . تواكلتم: من وكلت الأمر إليك ووكلته إليّ، أي لم يتوله أحد منا، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر.

حتّى شُنت١ عليكُم الغاراتُ، ومِلكت عليكُم الأوطان...

فيا عجباً! عجباً واللّه يميتُ القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هـؤلاء القـوم علـى باطِلِهم، وتفرقِكم عن حقكم! فقُبحاً لكُم وترحاً٢ حين صِرتُم غرضاً يرمـى: يغـار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تغزون، ويعصى اللّه وترضون.

«فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في أيامِ الحر قلتُم: هذه حمارةُ القيظ أمهلنا يسبـخُ عنّـا الحر٣، وإذا أمرتُكُم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم: هذه صبارةُ القُرِ... كُـل هـذا فِراراً من الحر والقُر، فإذا كُنتُم مِن الحر والقُر تفرون، فأنتُم واللّهِ من السيف أفر.

«يا أشباه الرجال ولا رجال ! حلُوم الأطفال، وعقُولُ ربابَةِ الحجال٥ لوددتُ أنّـي لم أركُم ولم أعرفكُم معرفةً - واللّه - جرت ندماً وأعقبت سدماً٦.

«قاتلكُم اللّه! لقد ملأتُم قلبي قيحاً، وشحنتُم صدري غيظاً، وجرعتُموني نُغب التهمامِ أنفاساً٧ وأفسدتُم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قُريش: إن ابن أبي طالبٍ رجل شُجاع ولكن لا عِلم له بالحرب، للهِ أبوهم وهل أحد منهـم أشـد لهـا مراساً وأقدم فيها مقاماً مني لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين وهأنذا قد ذرفتُ٨ على الستين! ولكن لا رأي لِمن لا يطاع»٩.

*

بهذه المرارة، وبهذا الغضب، وبهذه السخرية، وبهذا الإحتقار كان الإمام يواجه هذه النخبة الّتي تخاذلت عن القيام بواجبها، أو خانت قضية شعبها.

ويبدو أن هذه الطبقة - أو فريقاً منها - كانت تحاول، ستراً لمواقفها الّتي عمل

---

١ . شُنّت الغارات: فرقت، أي نشبت الحروب الصّغيرة في أماكن متعدّدة (حرب العصابات).
٢ . دعاء عليهم بالخزي والسّوء: القبح، والتّرح.
٣ . حمارّة القيظ: شدّة حره. ويسبخ عنا الحر: بمعنى يخفّ، ويلطف الهواء.
٤ . صبارّة الشّتاء: بتشديد الرّاء - شدة برد الشتاء. وهذه هي الأعذار الّتي كانوا يبرّرون بها تخاذلهم ويلوذون بها دون كشف موقفهم السّياسي الّذي بيّناه.
٥ . الحجال: جمع حجلة، وهي بيت يزين بالسّتور، والثّياب، والأسرّة.
٦ . السّدم: الحزن والغيظ.
٧ . النّغب: جمع نغبة: وهي الجرعة، والتّهمام: الهمم، أنفاساً: جرعة بعد جرعة.
٨ . ذرّفت: زدت على السّتين.
٩ . نهج البلاغة - الخطبة رقم: ٢٧.

الإمام على فضحها، أن تتظاهر في بعض الحالات بالغيرة والحمية الدينيـة، فتتخذ مواقف لفظية آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر دون أن تترجم ذلـك إلـى أفعال وممارسة عملية، شأنها في ذلك شأن الكثـيرين ممـن يسـترون خياناتهـم وأنانيتهم، وحرصهم على المتاع الدنيوي بالمواقف الأخلاقية اللّفظية.

ولكن الإمام علياً كان يعرف هؤلاء، ومن السهل معرفتهم في كلّ زمـان، وكـان يفضح هذه المواقف المنافية بقسوة، لأنها تضيف إلى جريمة الخيانة السياسية رذيلة النّفاق والتّمويه على بسطاء النّاس، فيقول مبصراً مجتمعه بفساد العلاقات الناشـئ من فساد النّخبة:

«... وهل خُلقتُم إلا في حثالةٍ[1] لا تلتقي إلا بذمهم الشفتان، اسـتصغاراً لقـدرهِم، وذهاباً عن ذكرهِم، فإنّا للّه وإنا إليه راجعون.

«ظهر الفساد فلا منكر مغير، ولا زاجر مزدجِر. أفبهذا تُريدون أن تجاوروا اللّـه في دار قُدسهِ، وتكُونوا أعز أوليائهِ عنده ؟ هيهات! لا يخدع اللّه عـن جنتـهِ، ولا تُنالُ مرضاتُه إلا بطاعتهِ.

«لعن اللّه الآمرين بالمعرف التّاركين له، والنّاهين عن المنكر العاملين بهِ»[2].

*

وإذا كانت مصلحة الحكم المستبد الطبقي أو الفئوي تقضي بأن يصمت الشعب ولا يرتفع منه صوت اعتراض أو احتجاج، أو إدانة مهما أصابه من مظالم، ومهما حلّ بحقوقه من انتهاكات، فإن مصلحة الحكم الشّعبي الملتزم بالمصالح الحقيقية للنـاس العاديين البسطاء هي على العكس من ذلك... إن مصلحة هذا الحكم الّذي يستمـد فاعليته وقوته من مجموع الشعب هي في أن يتكلّم النّاس فـي الشّـأن السياسـي مؤيدين أو منتقدين لحماية مصالحهم الحقيقية في مواجهة البنى العليا في المجتمـع الّتي تتبع سياسات مضادة لمصالح مجموع الشعب على المدى القريب أو البعيـد، والّتي تعمل

---

١ . الحثالة: الرديء من كلّ شيء.
٢ . نهج البلاغة - الخطبة رقم ١٢٩.

باستمرار لتكوين حالات اجتماعية، ومشاغل واهتمامات فكريـة تصـرف فئـات الشعب عن مصالحها الجوهرية١ وتقعد بها عن مساعدة الحكم الشّعبي الّذي يمثـل هذه المصالح ويعمل لتحقيقها، هذا إذا لم تفلح هذه البنى العليا في أن تؤلّب بعـض فئات الشّعب - نتيجة للتّضليل - ضد هذا الحكم.

وسكوت الشّعب في حالة النّشاط المعادي الّذي تقوم به البنى العليا، أو عدم مبالاته، بترك الساحة خالية أمام هذه القوى لتفسد على الحكم الشّعبي سياسـاته المستقبليـة دون أن تخشى عقاباً، لأن الحكم في هذه الحالة يقف في مواجهة تلك القوى وهـو أعزل، وهذا يمنعها من التّغلب عليه أو من تجاوزه. وهذا ما كان يحدث في كثيـر من الحالات في عهد الإمام عليه السلام، وكان يثير غضبه على النّخبة لفسادهـا، ويحمله على كشف عيوبها أمام أعين النّاس.

لقد كان الإمام عليه السلام حريصاً أشد الحرص على أن يحرك الجماهير ويدفـع بها دوماً إلى أن تعبر عن رأيها، وتعلن عن مواقفها.

وتعكس لنا النّصوص إدراك الإمام العميق للأهمية الكبرى والحاسمة الّتي تبينهـا هذه المسألة في عمله السياسي، وذلك في مظهرين:

الأول:

كثرة المناسبات الّتي أثار فيها الإمام موضوع الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وتنوع الأساليب الّتي شرحه بها. وهذا أمر ملفت للنّظر بالنّسبة إلى حكم شـرعي ثابت في القرآن الكريم والسنّة النبوية ويعتبره الفقهـاء مـن الأحكـام القطعيـة الضرورية، إن هذا الإهتمام المستمر على مسألة الأمر والنّهي يكشـف عـن أن الإمام كان يواجه في المجتمع حالة غفلة عن الحكـم الشّرعـي بوجـوب الأمـر والنهي، وحالة تراخ عن القيام

---

١ . في المؤتمر الّذي عقده الخليفة عثمان بن عفان، عند تعاظم موجة الإحتجاج والتّذمر - وجمع الولاة والعمال الكبار - لمعالجة الموقف المتفجّر بالغضب والنّقمة على سياسة الدّولة - كان اقتراح عبد اللّه بن عـامر، حـاكم ولايـة البصـرة أن تحبـس الجيـوش حيث هي (تجمر) ولا يؤذن لها بالعودة ليشغل الجنود بمشاكل حياتهم اليوميّة عن النشاط السّياسي - ومن المؤسـف أنّ هـذا الإقتراح هو الّذي تمّ العمل به فأدى إلى الفتنة الكبرى.

بهذه الفريضة الإسلامية على وجهها، وهذه الغفلة وهذا التّراخي حمـلاه علـى أن يذكّر المسلمين بفريضة الأمر والنّهي ما استطاع.

الثّاني:

عنف الأسلوب الّذي عبر به الإمام عن أفكاره وعن معاناتـه حيـن كـان يوجـه خطاباته إلى المسلمين في هذا الموقف أو ذاك مقرعاً لائماً، أو مشجعاً حاثـاً لهـم على أداء هذه الفريضة... وهو ما يكشف عن أن الإمام يعاني مـن قلـق عميـق وغضب مكبوت نتيجة لما يراه في المجتمع من إهمال. وتراخ.

*

وقد حثّ الإمام المسلمين على الإلتزام العملي بفريضة الأمر بـالمعروف والنّهـي عن المنكر في حياتهم العامة وعلاقاتهم الإجتماعية والسياسية بأسـاليب متنوعـة، ونظر إليها من زوايا متعددة.

ومن جملة الأساليب الّتي اتّبعها في تعليمه الفكري والسياسي بِالنّسبـة إلـى هـذه الفريضة أسلوب التّنظير التّاريخي، فمن ذلك قوله في الخطبة القاصعة:

«وإن عِندكُم الأمثال مِن بأسِ اللّه وقوارعِهِ، وأيامِهِ ووقائعِهِ، فلا تستبطئُوا وعيـده جهلاً بأخذِهِ، وتهاوناً ببطشهِ، ويأساً من بأسِهِ، فإن اللّه سبحانه لـم يلعـن القـرن الماضي بين أيديكُم، إلا لتركِهم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فلعـن اللّـه السفهاء بِاركُوبِ المعاصي، والحلماء لترك التناهي»١.

نلاحظ أن الإمام عبر في هذا النّص، كما في نصوص أخرى - عن إنكاره بشـأن ما يراه في مجتمعه من تهاون وتراخ في امتثال فريضة الأمر والنّهـي، بأسـلوب شديد الوقع يتجاوز النصيحة الرقيقة الهادئة إلى الإنذار الشّديد، والتّحذير من أهوال كبرى مقبلة، واستعان على تصوير ذلك بالتذكير بما حلّ في القرن الماضي مـن اللّعن نتيجة لإهماله هذه الفريضة أو تراخيه عن القيام بها.

---

١ . نهج البلاغة: الخطبة رقم: ١٩٢.

واللّعن هنا ليس عقاباً روحياً وأخروياً فقط، إنّه هنا يأخذ معنى سياسياً، إن اللّعـن هو البعد عن رحمة اللّه ورعايته، وهذا يعني أن الملعون يتعرض للنّكبات السياسية والإجتماعية الّتي تؤدي به في النهاية إلى الإنحطاط والإنهيار.

والظاهر أن الإمام يعني بالقرن الماضي الإسرائيليين، فإن في كلامه هنا قبساً من الآية الكريمة:

«لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيلَ على لِسان داود وعيسى بن مريم، ذلـك بمـا عصوا وكانُوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلُوه لبئس ما كانُوا يفعلُون»١.

*

في النّص التالي اتّبع الإمام أسلوب التّنظير بالتاريخ أيضاً فـي تعليمـه الفكـري لمجتمعه بشأن فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، معيـداً إلـى أذهـان مستمعيه قصة ثمود القرآنية، والنّكبة المرعبة الّتي أبادتهم حين عصوا أمـر اللّـه تعالى إليهم في شأن ناقة نبيهم صالح (ع).

وليس من همنا هنا عرض الحادث التاريخي القرآني، وإنّما نبغـي الكشـف عـن استخدام الإمام للتاريخ في تعليمه الفكري.

والإمام في التّنظير الوارد في النّص التّالي يثير مسألة ذات أهمية بالغة في العمـل السياسي، وهي أن حركة التاريخ تقودها دائماً جماعة قليلة العدد من الناس تملـك القدرة على الحركة فتبادر إلى اتخاذ المواقف، في حين أن غيرها من الناس يكون في حالة سكون، فتكون بحركتها وقائع جديدة تحمل الناس على قبولهـا، وتضـع السلطة أمام أمر واقع.

وحين تكون هذه الجماعة المتحركة القليلة العدد ملتزمة بقضايا مجتمعها، عاملة في سبيل مصلحته، فإن واجب المجتمع أن يساندها ويقدم لها العون المعنوي والمـادي في جهادها.

---

١ . سورة المائدة (مدنيّة - ٥) الآية: ٧٨ - ٧٩.

أما حين تعمل هذه الجماعة ضد مصالح المجتمع العليا والحقيقة - رغم ما توشّـي به عملها من ألوان خادعة - فإن على المجتمع أن يتحرك ويقف في وجهها، ويلجم اندفاعها ذوداً عن مصالحه.

أما سكوت المجتمع وسكونه وسلبيته تجاه مواقف هذه الجماعة فإنّه جريمة يرتكبها في حق نفسه، لأن الكارثة حين تقع في النهاية نتيجة لأعمال الجماعة المتحركة لا تميز بين المسببين لها وبين الساكتين عنهم. إنّها حيـن تقـع تصيـب بشرورهـا المجتمع كلّه، بل لعلّها، في قضايا السياسة والفكر، تصيب الساكتين عنها أكثر مما تصيب المسببين لها، والّذين تكمن مصلحتهم في الإنحراف والتزوير.

ومن هنا فإن ما اصطلح عليه في لغة السياسة في هـذه الأيـام باسـم الأكثريـة الصامتة، هذه الأكثرية الّتي لا تبدي فيما يجري أمامها وعليها ولا تعيد، وإنما تقبل ما يقوم به الآخرون مختارة أو مرغمة، راضية أو سـاخطة،... هـذه الأكثريـة الصامتة بموقفها هذا تقوم بدور الخاذل للحق أو المتواطئ على الجريمة.

وذلك لأن الصمت في هذه الحالات ليس علامة على البراءة والطّيبة، وإنّمـا هـو علامة الجبن والغفلة والفرار من المسؤولية.

وهذه السلبية الّتي هي في مستوى الجريمة لا تعفى من العقاب، والعقاب في هـذه الحالة لا تقوم به السلطة وإنّما تقوم به القوانين الإجتماعية الّتي تصنـع الكارثـة، يقوم به القدر الّذي لا يميز بين الساكن والمتحرك وإنّما يجرف الجميع، يقوم بـه اللّه تعالى الّذي يؤاخذ الجميع بذنوبهم: المتحركين بذنب المعصية، والساكتين بذنب توفير أجواء الجريمة أمام المجرمين ليرتكبوا جرائمهم.

ولذا، فإن الأكثرية الصامتة، من هذا المنظور، لا تضـم أبريـاء، وإنّمـا تضـم متواطئين وجبناء، سببوا، بإيثارهم للسلامة الشخصية العاجلـة، كـوارث عامـة مستقبلية، وجبنهم الّذي يكشف عن أنانيتهم الرخيصة والذّليلة يكشف عن أنّهم ليسوا جيلاً صالحاً لأن يبني حياة مزدهرة.

إن الكوارث الإجتماعية، كالكوارث الطّبيعية، تجرف في طريقها، حين تقع النّبات النّافع والنّبات الضار، ولا تميز بينهما في الدمار.

قال عليه السلام:

«... وإنّه سيأتي عليكُم من بعدي زمان ليس فيه شيء من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذبِ على اللّه ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرفَ عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب يومئذٍ حملتُه، وتناساه حفظتُه فالكِتاب يومئذٍ وأهلُه طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريقٍ واحدٍ لا يؤويهما مؤو... فالكتاب وأهلُه في ذلك الزمان في النّاس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالةَ لا تُوافِق الهدى وإن اجتمعا...»١.

وتصور الفقرة الأخيرة من هذا النّص أبلغ تصوير واقع الإنفصال بين الأمة وبين قيادتها الفكرية نتيجة لاغترابها الثقافي، وانفصالها - في مجال تكوين المفاهيم والتوجيه - عن أُصولها الفكرية.

وهذا الإغتراب الثّقافي - الحضاري النّاشئ عن هجر الأصول - وليس عن التّفاعل مع الآخرين - يؤدي إلى موقف في المنكر والمعروف خطير، فإن ثمة مقياسين للقيم والمثل الأخلاقية. أحدهما المقياس الموضوعي، والآخر المقياس الذّاتي.

المقياس الموضوعي هو الّذي يجعل شريعة المجتمع وعقيدته منبعاً للقيم الأخلاقية ففي مجتمع إسلامي، مثلاً، يكون منبع القيم هو العقيدة والشّريعة الإسلاميتان.

وكذلك الحال في مجتمع مسيحي مثلاً أو بوذي.

وهذا المقياس يقضي بأن يكون المجتمع ملتزماً بعقيدته وشريعته في مؤسساته ونظمه وعلاقاته بدرجة تجعله تعبيراً عن تلك العقيدة والشّريعة.

والمقياس الذّاتي هو الّذي يجعل منبع القيم الأخلاقية شخص الإنسان، فالإنسان في هذه الحالة هو الّذي يخترع أخلاقياته وقيمه الّتي تكيف سلوكه تجاه المجتمع وعلاقاته في داخل المجتمع، ويستبعد هذا المقياس أي مصدر للقيم خارج الذّات للقيم والأخلاقيات.

١ . نهج البلاغة - الخطبة رقم ١٤٧.

١٣١

قال عليه السلام:

« أيها النّاس. إنما يجمع النّاس الرضى والسخْطُ ،وانما عقَر نَاقَةَ ثَمود رجل واحِد، فَعمهم اللّه بِالعذابِ لَما عموه بِالرضى »١.

*

وقد حذر الإمام بجتمعه في إحدى استبصاراته نحو المستقبل من وضعية فكرية وثقافية تودي إالى هجر الأصول الثقافية والفكرية التي تكون روح المجتمع الإسلامي وتسمه بطابعه الخاص المميز له عن سائر التجمعات الثقافية - الحضارية ، وتعطيه دوره المميز والخاص في حركه التاريخ العالمي وبناء الحضارة ... وتؤدي به - نتيجة لانبثاقه عن أصوله - إلى أن يكون نسخة من ثقافة أُخرى ، ووحدة من وحدات حضارة اخرى ، وتغدو الاصول الثقافية التي ترجع كلّها الى الكتاب والسنّة مجرد أشكال يتداولها النّاس دون أن يكون لها دور في تكوين المفاهيم، وبناء الشخصية، ورسم طريق العمل.

إن المسلمين أنفسهم، يومئذٍ سينبذون الكتاب باعتباره مصدراً للمفاهيم الفكرية، ويتّجهون نحو منابع غريبة عن ثقافتهم وحضارتهم، وعقيدتهم وشريعتهم، وتاريخهم، يستمدون منها الغذاء العقلي والنفسي، والتوجيه السلوكي.

وننبه هنا إلى أن الإغتراب الثقافي النّاشئ عن هجر الأُصول - وهو ما حذّر الإمام منه - غير الإنفتاح الثقافي- الحضاري الذي يتولّد من الطموح إلى التّفاعل مع الآخرين واكتشاف صيغهم الحضارية والتعرف على فتوحهم الفكرية مع الحفاظ على الأصول، والأمانة للذّات ومقوماتها...فهذا الإنفتاح أمر مطلوب مرغوب، وقد مارسه المسلمون وكانوا سادة فيه حين أنشأواالحضارة الإسلامية العظيمة التي انفتحت على كلّ الإنجازات الخيرة في الحضارات الأخرى، فاكتشفوها وكيفوها وفقاً لقيم الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وأخلاقيات الإسلام المستمدة من الكتاب والسنّة والفقه.

———

١- نهج البلاغة - رقم النص ٢٠١.

وحينئذٍ يقع التعارض بين عقيدة المجتمع الرسمية وشريعته، وبين أخلاقيات وقيـم أفراده وفئاته، ففي مجتمع إسلامي، مثلاً، أو مسيحي أو بوذي، لا بد أن نكتشف - في حالة شيوع المقياس الذاتي للقيم بين الأفراد - أن الـتزام المجتمـع بعقيدتـه وشريعته التزام شكلي يرافق الإلحاد العملي.

والأثر الذي يترتب على التزام المقياس الموضوعي للقيم في المجتمع أو المقيـاس الذّاتي هام جداً.

أولاً:

يؤدي اعتماد المقياس الموضوعي إلى نمو الفرد دون عقد وتمزقات داخلية، لأنـه يوفّر حالة التّجانس والتّكامل بين محتوى الضمير والعقل وبين التعبير السلوكي في العلاقات مع المجتمع وفي داخله.

أما اعتماد المقياس الذّاتي فإنّه يؤدي إلى خلاف ذلك، لأن اتباع المقيـاس الذّاتـي يحدث للفرد تمزقات داخلية وعقداً في نفسه، لأنّه يجعله دائماً في حالـة تعـارض وتجاذب بين الزام العقيدة والشّريعة وبين رغبات الذّات باعتبارها مصدراً للقيـم، ويؤدي ذلك إلى انعكاسات ضارة لا تقتصر على الأفراد، وإنّما تتجـاوزهم إلـى المجتمع نفسه.

وثانياً:

إن المقياس الموضوعي بما يوفّره من تجانس في داخل الفرد بين أخلاقياتـه مـن جهة ومعتقده وشريعته من جهة أخرى يؤدي إلى تلاحـم واسـع النطـاق داخـل المجتمع، ويكون لدى المجتمع نظرة إلى المشكلات، ويؤدي أيضـاً إلـى تكويـن مواقف واحدة أو متقاربة بين الجماعات تجاه التّحديات الّتي تواجه المجتمع.

أما اعتماد المقياس الذّاتي فإنّه يؤدي إلى العكس من ذلك. إنّه يؤدي إلـى تخلخـل البنية الإجتماعية، وتعدد الفئات ذات المنازع الفكرية والسياسية المختلفة، ويكـون مناخاً ملائماً لتولّد المشاكل الإجتماعية وتعاظمها، لأن المقياس الذّاتي لدى الأفراد

والجماعات شديد التنوع والإختلاف.

وهذا التّشرذم يؤدي: أما إلى العجز عن اتخاذ مواقف موحدة على الصعيد القومي أو الوطني نتيجة لتعدد الإرادات والميول، وأما إلى الإستسلام للدعاية السياسية التّي يخطط لها وينفذها فريق من ذوي الأغراض والغايات الخاصة يخضع عقول الناس لمفاهيمه وقناعاته، ويحملها على قبول اختيارات قد لا تنسجم مع المصالح الحقيقية للأمة، وإنّما تنسجم مع مصالح هذا الفريق الّذي يملك وسائل الدعاية والإعلان والإعلام، وهذا هو ما يحدث في العصر الحديث، ويؤدي إلى كوارث كبرى على الأصعدة الوطنية في بعض الحالات، وعلى الصعيد العالمي في بعض الحالات الأخرى، حيث يعرض سلام العالم كلّه أو سلام قارة بكاملها لمطامح ومطامع حفنة صغيرة من الناس تكيف عقول شعوب بكاملها، دافعة بها إلى اتخاذ مواقف سياسية تناقض مصالحها الوطنية، ومصالح جميع الشّعوب، وقضية فلسطين أكبر شاهد على ما نقول.

لقد نبه الإمام عليه السلام إلى هذا الخطر، وحذّر منه مجتمعه، فقال:

«فيا عجباً، وما لي لا أعجب مِن خطإِ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيبٍ، ولا يعفون١ عن عيبٍ. يعملُون في الشبهات ويسيرون في الشهواتِ. المعروفُ فيهم ما عرفُوا والمنكر عندهم ما أنكروا. مفزعهم في المعضلاتِ إلى أنفُسهم وتعويلُهم في المهماتِ على آرائهم، كأن كُل امرئٍ منهم إمام نفسهِ، قد أخذَ منها فيما يرى بعرى ثقاتٍ وأسبابٍ محكماتٍ»٢.

*

وأخيراً، لقد بلغ من خطورة فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر عند الإمام علي (ع) أنّه جعلها إحدى وصاياه البارزة الهامة لابنيهِ الإمامين الحسن والحسين. وقد تكررت هذه الوصية مرتين. إحداهما لابنه الإمام الحسن في وصيته الجامعة

---

١ . ولا يعِفّون: أي يستحسنون ما بدا لهم استحسانه، ويستقبحون ما خطر لهم قبحه بدون رجوع إلى دليلٍ بيّن، أو شريعة واضحة. يثق كلّ منهم بخواطر نفسه، كأنّه أخذ منها بالعروة الوثقى على ما بها من جهل ونقص

٢ . نهج البلاغة - الخطبة رقم ٨٨.

١٣٤

الّتي كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفّين. والأخرى في وصيته للإمامين الحسن والحسين في وصيته لهما وهو على فراش الإستشهاد بعد أن ضـربه ابـن ملجم المرادي بالسيف.

قال عليه السلام في الوصية الأولى:

«... وأمرِ بِالمعروفِ تكُن من أهلِه، وانكرِ المنكر بيدك ولِسانِك وباين١ من فعلـه بجهدك وجاهد في اللّه حق جهادِه ولا تأخُذك في اللّه لومةُ لائِمٍ٢.

وقال عليه السلام في الوصية الثّانية:

«... أُوصيكُما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي... وعليكُم بالتّواصل والتّباذُل، وإياكُم والتّدابر والتّقاطُع، لا تتركُوا الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكـر فيولـى عليكُم شراركُم، ثُم تدعون فلا يستجاب لكُم»٣.

*

سلام اللّه على علي في الخالدين.

---

١ . باين: أي باعِد وجانِب.
٢ . نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النّص: ٣١.
٣ . نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النّص: ٤٧.

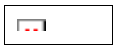

التّاريخ في مجال السّياسة

تمهيد

السياسة لدى رجل العقيدة ورجل الدولة الحاكم القائد - وهو ما كانه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - أداة للتّغلّب على سلبيات الماضي والحاضر من أجل التّوصل إلى أوضاع حياتية أفضل في المستقبل لأكبر قدر من النّاس.

والسياسة، في الوقت نفسه، أداة للمحافظة على إيجابيات الماضي والحاضر أمـام عواصف التغيير والتقلّبات المفاجئة التي قد تحمل للمجتمع السياسي في ثناياها نذر كارثة.

السياسة، إذن، ليست فن التغيير فقط، إنّها فن الثّبات أيضاً.

إن السياسي الأمين على قضية مجتمعه، يعيش في أبعاد الزمان كلّهـا - ماضـيه وحاضره ومستقبله - ويتعامل مع حقائق الماضـي، وواقـع الحاضـر، وآمـال ومخاوف ومطامح المستقبل، يقود، بحذر لا يبلغ الجمود ومغامرة لا تبلغ التّهـور، مجتمعه نحو آفاق جديدة دون أن يبتر استمراريته وبعده في الماضي.

نقول هذا في مواجهة دعاة التغيير منا في عصرنا هذا، التغيـير الّـذي يستهـدف استئصال جذورنا لقذفنا في الفراغ تحت شعار: ريادة المستقبل، جاعلين منا ساحة لتجربة النّظريات والأفكار الّتي توضع في مراكز الحضارة الحديثة فـي أوربـا وأمريكا والإتحاد السوفياتي.

١٣٨

نقول هذا داعين إلى إعادة النّظرة في هذا النهج لمصلحة نهج آخـر أقـلّ غلـواً، وأكثر واقعية، وأوثق صلة بتكويننا العقيدي والحضاري والثّقافي، وأشـد مواءمـة لمصالحنا في الحاضر والمستقبل، وأوفق بدورنا الّذي نطمح إلى استعادته لنساهـم به في إنقاذ الإنسان الحديث بتقويم الحضارة الحديثة، وتصحيـح مسارهـا نـحو وضعية ملائمة لتكوين الإنسان.

*

لقد كانت سياسة أمير المؤمنين علي (ع) - كما سنرى وجوهاً منها في الفصـول

التالية.. محكومة بهاجس واحد كبير ونبيل: تكوين الإنسان المسلم المتكامـل القوي السعيد، والمجتمع المسلم المتكامل القوي السعيد، الإنسان والمجتمع المؤهلين ليكونا قوة خيرة في العالم، يمثلان طموح الإنسانية الدائم المتوهج نحو مثل أعلى.
وقد كانت، لذلك سياسة لا تستمد مقوماتها من الحفاظ على الذّات وعلـى مصالـح الحاكم وأُسرته، فلقد كانت أُسرة أمير المؤمنين علي أكثر النّاس حرماناً من خيرات حكمه، وكان هو عليه السلام أكثر حرماناً من أسرته.
وكانت سياسته تستضيء بنور الفكر، وتستهدي تعليم اللّه، وتنفلق من قيم الأخلاق والمناقب الّتي تشرف الإنسان، ولذا فقد كانت سياسة الإمام إنسانية بكلّ مـا لهـذه الكلمة من محتوى.
لم تكن أبداً سياسة الأفعال وردود الأفعال، وحسابات الأرباح والخسائر للحاكم وآله وبطانته... هذه السياسة التي تحمل روح الطيش والغريزة، وتوجه بعقلية مزيج من روح الغاية وروح التّجارة.
وقد كان أمير المؤمنين علي في سياسته أميناً لعقيدته، أميناً لشريعته، فلا ينحـرف عنهما أبداً، ولا يتجاوزهما - كما لا يقصر عنهما - في أمر من الأمـور أو فـي حالة من الحالات.
أميناً لأخلاقياته القرآنية - النّبوية، ولذا فقد جعل من العمل السياسي ممارسة رفيعة للمناقب، أميناً لمجتمعه، فيشركه في اتخاذ القرارات بعد أن يبصره بعواقب سـوء الإختيار:
١٣٩
«... ولقد أصبحنا في زمانٍ قد اتخذَ أكثر أهلِهِ الغدر كَيساً١ ونسبهم أهلُ الجهل فيهِ إلى حسن الحِيلةِ. ما لهم! قاتَلهم اللّه! قد يرى الحولُ القُلّب٢ وجه الحِيلةِ ودونهـا مانِع من أمرِ اللّه ونهيهِ، فيدعها رأي عينٍ بعد القُدرةِ عليها، وينتهز فُرصتها من لا حريجة٣ له في الدين»٤.
وقال في موقف آخر:
«واللّه ما معاويةُ بِأدهى مِني، ولكُنه يغدِر ويفجر. ولولا كراهِيةُ الغدرِ لكُنتُ مِـن أدهى النّاسِ. ولكِن كُل غُدرةٍ فُجرة، وكُل فُجرةٍ كُفرة «ولِكُل غادرٍ لِواء يعرفُ بـه يوم القيامةِ»٥ واللّه ما أُستغفلُ بالمكيدةِ، ولا أُستغمز٦ بالشديدةِ»٧.

*

وبعد هذا التمهيد، كيف تعامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع التّـاريخ فـي مجال تعليمه السياسي.

---

١ . الكيس: الفطنة والذّكاء.
٢ . الحوّل القلّب: هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها.
٣ . الحريجة: التحرج والتحرز من الآثام.
٤ . نهج البلاغة - الخطبة رقم: ٤١.
٥ . حديث مروي عن النّبي (ص).
٦ . لا أستغمز على البناء للمجهول - لا يستضعفني الرّجل القوي. والغمز - بفتح الميم - الرّجل الضّعيف.
٧ . نهج البلاغة - رقم النّص: ٢٠٠.

١ ـ حركة التاريخ في مظهر التّفاعل الإجتماعي الثوري

البشر يتحركون دائماً في الزمان والمكان: يبدعون، ويتواصـلون بالتّجـارة والصداقة تارةً، وبالعداوة والحرب تارةً، وبالفكر دائماً.

ويتعاملون مع الطّبيعة دائماً. يكيفونها ويتكيفون معها، ويحبونها ويهربون منها في بعض الأحيان.

وهم يواجهون الإخفاق وخيبات الأمل في حالات، ويسعدون بنشوة النصـر فـي حالات أخرى. ويشلّهم اليأس عن الحركة في بعض الحالات، ولكن سـرعان مـا يؤجج الأمل في التّقدم والمستقبل الأفضل في قلوبهم جذوة الرغبـة فـي التغييـر فيعودون إلى الحركة من جديد.

وهكذا يصنع البشر تاريخهم باستمرار. ينسجونه خيطاً فخيطاً، ويبنونه ذرةً فـذرةً من ملايين الآمال الصغيرة، والمخاوف الصغيرة، والأحقاد الصغيرة، والشّهـوات الصغيرة، الّتي تنكر لهم كلّها وتتراكم فتتكون منها عجينة التاريخ.

ولكنها ان تكون تاريخاً ما لم تأخذ قواماً معيناً وما لم تتشكل بهيئة معينة... ما لـم تتضمن فكرة تغيير، وروح تغيير، وعزيمة تغيـير، تجعـل مـن آحـاد الآمـال والمخاوف والأحقاد والشّهوات التي تبلغ الملايين شيئاً واحداً كبيراً تنبض فيه روح واحدة تلفّ بوهجها كلّ المجتمع والجماعة، وتدفع بهم - لا في طريق الحركـات الأحادية المبعثرة - في طريق حركة متدفقة هادرة، تحدوها رؤيا واحـدة أو رؤى متقاربة تلتقي على التّغيير. حينئذٍ تنشط حركة التّاريخ الّتي كانت هادئة أو أمينـة، وتتعاظم، وتلد الأحداث الكبيرة، وتدخل المجتمع والجماعة في منعطف من التاريخ جديد.

١٤٢

قد يتم هذا التّفاعل في حال السلم والإستقرار الإجتماعي فتكون الفترة الزمنية الّتي يستغرقها التّغيير - بعد فترة الإعداد والإختمار - طويلـة نسبيـاً، لأن التّغييـر التّاريخي يتم في هذه الحالة وفقاً لمعادلات السلم والإستقرار الّتي تجعل الإنسـان أكثر أناة وتؤدة في حركته، وأكثر قدرة على الإختيار.

وقد يتم هذا التّفاعل في حال الغليان الإجتماعي والقلق العام. في هذا الحـال تنشأ ظاهرتان:

الأولى - ظاهرة رفض وتمرد في الجماهير، يغذيها ويؤججها اليأس من العدالـة الرسمية، وينعشها الأمل في مستقبل أفضل لهذه الجماهير يتوصـل إليـه دعـاة التّغيير.

الثّانية - تقابل الأولى وتتولّد منها، وهي إجراءات القمع التي تلجأ إليهـا السلطـة الرسمية من أجل أن تضمن سيادة وثبات نظامها وقيمها.

إن هذا القمع يعزز روح اليأس والغضب، ويدفع إلى مزيد من التّمرد والـرفض، ويرص - بدرجة أعلى من الصلابة والتّماسـك - ملايين الآمـال والمخـاوف والأحقاد والشّهوات، ويؤجج روح الغضب، ويدفع الجماهير، أكثر فـأكثر، نـحو العنف باتجاه التغيير.

في هذه الحالة تقصر نسبياً، الفترة الحاسمة الّتي يستغرقها التّغيـير - بعـد فـترة الإعداد والإختمار -.. إن الأحداث تتسارع، ويتعاظم حجمهـا، وتتسـع مساحـة الفئات الإجتماعية الّتي تشارك فيها، وتتصاعد إلى أن تبلغ الذّروة الّتي ينهار عندها العهد التّاريخي الّذي كان سائداً، ويدخل المجتمع في منعطف من تاريخه جديد.

*

إذن البشر لا يتوقفون عن صنع التأريخ، لكنّهم قد يصنعون تـاريخهم فـي حـال السلم، وقد يصنعونه في حال الغليان والتّوتّر الإجتمـاعي، كمـا قـد يصنعونـه بالحرب.

وقد لاحظ الإمام علي عليه السلام حركة التّاريخ في مظهرها الثّاني لأن الظّروف السائدة في مجتمعه كانت تدفع بهذا المجتمع نحو هذا المسار الدامي في مواجهـة مستقبله المكفهر، الحافل بالأنواء.

*

١٤٣

لقد تسببت أخطاء الحكم في عهد الخليفة عثمان بن عفان في خيبـة آمـال فئـات واسعة من المسلمين وغضبها. كما تسببت - إلى جانب ذلك - في انبعاث كثير من القيم والأخلاق والمطامح الجاهلية الّتي نَشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزهـا

في قمة السلطة في مجالات السياسة والإقتصاد والإجتماع. وقد أدى انبعـاث هذه القيم الجاهلية إلى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيـم وبيـن أكثريـة المسلمين الّذين كانت تغتذي نفوسهم بالآمال الّتي تولدها قيم الإسلام فـي العدالـة الخالصة والمساواة... هذا التعارض المأساوي الّذي ما فتئت تغذيه أخطاء الحكـم وسياسات الرموز الجاهلية العائدة، فتعمقه، وتزيده حدة، وتدفع به إلى مزيـد مـن الإتساع والإنتشار.

وقد تراكم كلّ ذلك على مدى سنين، واتسع إلى أن شمل حواضر الدولـة كلّهـا. وأدى في النّهاية إلى عاقبته الوخيمة وثمرته المرة: ثورة شـارك فيهـا الأغنيـاء والفقراء، الساخطون بلا حقد والحاقدون من علية القوم. وأدت الثورة إلـى مقتـل الخليفة عثمان، وإلى دخول المسلمين في منعطف من تاريخهم جديد طلبوا من علي بن أبي طالب أن يقودهم فيه، ولكنّه رفض طلبهم، لأنّـه أدرك - وهـو الراعـي للتاريخ وأفاعليه وآلية حركته - أن حجم الحاجات الّتي يفتقر إليها النّاس والآمـال الّتي تعمر قلوبهم أكبر بكثير من حجم الإمكانات الّتي توفرها مؤسـسات الدولـة، وأن حجم المعوقات الّتي يمثّلها رموز العهد الماضي وقواه الّـتي شـلّتها الثـورة فاضطرت إلى الإنكماش... حجم هذه المعوقات كبير وخطير، لأنّها مستشرية فـي جميع مراكز السلطة، وقد قال لهم معلناً رفضه:

«دعوني والتمِسوا غيري، فإنا مستقبِلُون أمراً له وجوه وألوان، لا تقُوم له القُلُوب، ولا تثبتُ عليهِ العقُولُ١. وإن الآفاق قد أغامت٢، والمحجة قد تنكرت٣. واعلمـوا أني إن أجبتُكُم

---

١ . لا تقوم له القلوب: لا تجرئ عليه. لا تثبت عليه العقول: لا تكاد تفهمه وتحققه، يومئ بذلك إلى المشكلات الإجتماعية والأزمات الّتي عصفت بالمجتمع كلّه.
٢ . أغامت: حجبها الغيم، كناية عن صعوبة إيجاد الحلول المقبولة من الجميع.
٣ . المحجّة: الطّريقة الواضحة - وتنكرت: التبس أمرها على النّاس.

ركِبتُ بِكُم ما أعلم، ولم أُصغِ إلى قول القائل وعتبِ العاتبِ، وإن تركتُموني فأنـا كأحدِكُم، ولعلي أسمعكُم وأطوعكُم لِمن وليتُموه أمركُم، وأنا لكُم وزيراً، خير لكُـم

منّي أميراً»١.

وقد ذكّر الإمام، فيما بعد، بموقفه هذا في مناسبات كثيرة، منها قوله في كلام لـه عند خروج طلحة والزبير عليه:

«فأقبلتُم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادِها٢، تقُولُون: البيعة البيعة!! قبضـتُ كفي فبسطتُموها، ونازعتكُم يدي فجاذبتُموها٣.

ومنها قوله لطلحة والزبير أيضاً:

«واللّه ما كانت لي في الخِلافةِ رغبة، ولا في الولايةِ إربة٤، ولكِنكُم دعوتُمونـي إليها، وحملتُموني عليها...»٥.

وقال في موقف آخر:

«... وبسطتُم يدي فكففتُها، ومددتُموها فقبضتُها. ثُم تداكَكتُم عليَّ٦ تَداك الإبل الهيم ٧ على حِياضِها يوم وردِها، حتى انقطعتِ النعلُ، وسقط الرداء، ووطئ الضعِيفُ، وبلغَ مِن سرور الناسِ ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليهـا الكبـير٨، وتحامل نحوها العليلُ، وحسرت٩ إليها الكِعاب»١٠.

---

١ . نهج البلاغة - رقم النّص: ٩٢.
٢ . العوذ المطافيل: الإبل والضّباء ذات الأولاد، وهي جمع عائذة، ومطفل كناية عن اللّهفة الّتي توجهوا بها إليه طالبين منه قبول بيعتهم، كما اللّهفة الّتي تقبل بها أمّ الطّفل على ولدها.
٣ . نهج البلاغة - رقم النّص: ١٣٧.
٤ . الإربة: الغرض والرّغبة.
٥ . نهج البلاغة - رقم النّص: ٢٠٥.
٦ . التّداك الإزدحام - تصوير لحالهم في الإقبال على البيعة.
٧ . الهيم: العطاش: تصوير لرغبتهم العارمة في إنجاز البيعة.
٨ . الهدج: مشي الضّعيف. بيان لإقبال الجميع على البيعة، حتّى أولئك الذين لهم من سنهم العالية أو مرضهم عذر يعفيهم من مشقة التّزاحم على البيعة.
٩ . الكعاب: جمع كاعبة: الفتاة ينهد ثدياها. وحسرت كشفت عن وجهها كناية عن إقبال النّاس جميعاً وفرحتهم بالبيعة.
١٠ . نهج البلاغة - رقم النّص: ٢٢٩.

لماذا أبى علي بن أبي طالب أن يستجيب... ؟

لعلّه كان يأمل أن يمر المجتمع - بعد ما أصاب علاقاته من اهتزاز وتشويه فـي العهد الماضي - في مرحلة انتقال يقوده فيها رجال لا تتألّب عليهم مراكز القـوى الجديدة الّتي تمثّل قيم الجاهلية...

ولكن تيار الرغبة كان عارماً، كما تعكسه لنا النّصوص الآنفة الذّكر، ولم يكن من الممكن تحويل ولاء الجماهير وثقتها إلى بديل. لقد كان الرفض يعني الكارثة، لأن القوى الجاهلية كانت قادرة - إذا استمر الفراغ في السلطة - أن تعـود مـن جديد بعد أن تكتّل قواها المبعثرة، وحينئذٍ يحرم المجتمع الإسلامي حتّى من تجربة تكون في المستقبل نموذجاً وملهماً...

ولا نعدم في نهج البلاغة نصوصاً تضيء هذه المسألة، وتوحي بقوة أن الإمام كان يفكر على هذا النّحو، وذلك كقوله في كلام له عنونه الشّريف الرضي ب«... يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحق»:

«... اللّهم إنك تعلم أنّه لم يكُن الذّي كان مِنّا منافسةً في سلطانٍ، ولا التِماس شيءٍ مِن فُضول الحطامِ، ولكن لنرد المعالم من دينك ونُظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلُومون مِن عبادِك، وتُقام المعطلةُ من حدودك»١.

وقوله في كتاب منه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها:

«... ولكنني آسى٢ أن يلي٣ أمر هذِهِ الأمةِ سفهاؤُها وفُجارها، فيتّخِذُوا مال اللّـه دولاً وعِباده خولاً٥ والصالحين حرباً٦، والفاسقين حزباً...»٧.

---

١ . نهج البلاغة - رقم النّص: ١٣١.
٢ . آسى: أحزن - الماضي منه: أسيت بمعنى حزنت.
٣ . يلي: يكون والياً وحاكماً على الأمة.
٤ . دولاً: جمع دولة، يعني: لئلا يكون المال العام بأيدي السّفهاء والفجّار يتداولونه بينهم لمصالحهم مهملين مصالح الأمّـة فيـه. والعبارة تومئ إلى قول اللّه عزّ وجلّ (كي لا يكُون دُولةً بين الأغنياءِ مِنكُم - سورة الحشر - الآية ٧).
٥ . خولاً: عبيد، يعني لئلا يستعبدوا النّاس ويذلّوهم.
٦ . حرباً - أعداء يحاربونهم.
٧ . نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النّصّ: ٦٢.

وهكذا استجاب علي بن أبي طالب للرغبات الملحة المتلهفة، فقبل كارهاً - على ما يبدو - أن يتولّى السلطة ويقود الأمة. وقد تبلورت وتحـددت باسـتجابته وتولّيـه للسلطة ثلاث قوى سياسية - فكرية، هي:

١ - النّهج الإسلامي الصافي النّبوي: تمثّله السلطة الشرعيـة (الخلافـة) وعلـى رأسها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع).

والهدف الآني المباشر والملح لهذا النهج كان تصحيح الأوضـاع السياسـية والإدارية والإقتصادية في المجتمع الإسلامي الّذي يتطلّع بلهفة إلى تغييرات تحقق آماله. كما كان هذا الهدف يستبطن هدفاً آخر هو إعادة الإعتبار النّظري والعملـي للمفاهيم والقيم الإسلامية.

٢ - النهج الجاهلي المموه بالإسلام: وقد كان هذا النّهج يتمتع بسلطة واسعة وثابتة في المنطقة السورية. وكانت له جيوب في الحجاز، والعراق، ومصر، وغيرها من بلاد الإسلام.

وقد بدا منذ اللّحظة الأولى أن قائد هذا النّهج هو معاوية بن أبي سفيان، والهـدف الآني والنّهائي لهذا النّهج هو تثبيت الأوضاع القديمة، وإجهاض النّهج النّبـوي أو قمعه بإثارة المشاكل والفتن في وجهه.

إنّه الثّورة المضادة. إنّه قطع الطّريق على حركة التغيير.

.. وقد عبر الإمام عن قادة هذا النّهج بأنهم «أرادوا رد الأمور على أدبارها» وذلك في كلام له عن أصحاب الجمل:

«إن هؤُلاءِ قد تمالأوا١ على سخطةِ٢ إمارتي، وسأصـبِر مـا لـم أخـف علـى جماعتِكُم، فإنهم إن تمموا على فيالةِ٣ هذا الرأي انقطع نِظام المسلمِين، وإنما طلبوا هذِهِ الدنيا حسداً لِمن

---

١ . تمالأوا: تواطأوا واتفقوا وتعاونوا.
٢ . السّخطة: البغض والنّعرة.
٣ . فيالة الرّأي: ضعفه وسخفه.

أفاءها١ اللّه عليهِ، فأرادوا رد الأُمور على أدبارها. ولكُم علينا العملُ بكتابِ اللّـه، تعالى، وسِيرةِ رسول اللّه (ص)، والقيام بِحقهِ، والنعشُ٢ لِسنتهِ»٣.

٣ - الموقف المتردد الحائر - إذا صح أن يسمى التّردد موقفاً -.

وتمثّل هذا الموقف بعض القيادات الثّانوية: (سعد بن أبي وقاص، عبـد اللّـه بـن عمر.. وآخرون).

هذا النّهج لم يبلغ من الصفاء والوعي درجة تحمله على أن ينضوي في النّهج النبوي وكانت مصالح رجاله من جهة وأثارة من التّقوى في أنفس بعضهم من جهة أخرى، قد حملتا هؤلاء الرجال على التزام جانب الحيطـة والحـذر مـن النهـج الجاهلي فلم ينحازوا إليه في هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قد والى النّهـج فـي النّهاية.

هؤلاء قال عنهم الإمام (ع):

«خذلُوا الحق، ولم ينصروا الباطِلَ»٤.

ولما قال له الحارث بن حوط: أتُرانِي أظُن أصحاب الجمل كانُوا على ضـلالة ؟ قال له الإمام:

«يا حارث إنك نظرت تحتك ولم تنظُر فوقك فحِرت٥، إنّك لم تعرفِ الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرفِ الباطِلَ فتعرفَ من أتاه».

فقال له الحارثُ بن حوط: فإنّي أعتزلُ مع سعيدِ بن مالِك وعبد الله بـن عمـر...

فأجابه الإمام قائلاً:

«إن سعيداً وعبد اللهِ بن عمر لم ينصروا الحق، ولم يخذُلا الباطِلَ»٦.

---

١ . أفاءها اللّه.. أرجعها إليه، من فاء بمعنى رجع.
٢ . النّعش، من نعش ينعش: بمعنى رفع السنة إلى مقام العمل والتّطبيق.
٣ . نهج البلاغة - رقم النّص: ١٦٩.
٤ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم: ١٨.
٥ . حِرتَ: من «حار» أي تحيّر.
٦ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم: ٢٦٢.

وكان بعض ممثلي هذا الموقف يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبلية، وهذا الإحترام لم ينبع من ولاء فكري بل من ولاء قبلي، كما كانوا يتمتعـون بـاحترام محدود من جماهير المسلمين نابع من صحبتهم للنّبي (ص) ومن غموض موقفهـم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية.

*

وقد أدرك الإمام منذ اللّحظة الأولى صعوبة موقفه، فكشف للأمة عـن أن حركـة

التّاريخ قد عادت ذات نبض جاهلي، فقد عاد التاريخ السابق على النّبوة.. كما صارح الأمة بأن المواجهة مع القيم البائدة العائدة تقتضي الحكم بأن يكـون قويـاً وصارماً... كما صارحهم بأن الآمال في تغيير سريع وكامل نحو الأفضل ينبغـي أن تتضامن قليلاً ليتاح للسلطة الشّرعية أن تواجه قوى الجاهلية بمرونة.

هذه الرؤية السياسية عبر عنها الإمام في خطبة خطبهـا فـي أول خلافتـه، فـي المدينة، أو هي - حسب رواية الجاحظ في كتابه «البيان والتّبيين» عن أبي عبيدة معمر بن المثنى - أول خطبة خطبها بالمدينة، قال فيها حسب رواية الجاحظ عـن أبي عبيدة:

«ألا لا يرعين مرعٍ على نفسهِ١ شُغِلَ من الجنةُ والنار أمامه. ساعٍ مجتهد ينجـو، وطالِب يرجو، ومقصر في النار...

«اليمين والشمالُ مضلة، والوسطى الجادةُ٢ منهج عليهِ باقي الكِتابِ والسنةِ وآثـارِ النبوةِ. إن اللّه داوى هذهِ الأُمةَ بدوائين: السوط والسيف، لا هوادةَ٣ عنـد الإمـامِ فيهما. استتِروا في بيوتِكُم٤ وأصلِحوا ذات بينِكُم، والتوبةُ من ورائكُم. مـن أبـدى صفحته لِلحق هلك٥... انظُروا: فإن أنكرتُم فانكروا، وإن عرفتُم فآزرروا... وقلما أدبر شيء فأقبلَ. ولئن رجِعت

---

١ . لا يرعين.. أي لا يبقين، أرعيت عليه أي أبقيت: يقول: من سالم وهدأ فإنّما سلّم نفسه وأبقى عليها.
٢ . الجادّة: الطريق المستقيمة الواضحة.
٣ . الهوادة: الرفق والصلح، وأصله اللّين.
٤ . استتروا في بيوتكم: لا يريد منع التّجول كما يقولون في أيّامنا، وإنّما يريد النّهي عن التّجمعات ذات الطابع التّحزبي القبائلـي الّتي تدفع إليها العصبية القبلية كما إنّه لا ينهاهم عن النقد السّياسي لأنه قال (فإن أنكرتم فانكروا).
٥ . الصّفحة: جانب الوجه، أو هي الوجه. يريد الإمام أنّ من تعرّض للحق بمخالفته وتجاوزه يهلك، لأنّه سيعاقب.

إليكُم أموركُم إنّكم لسعداء وإنّي لأخشى أن تكُونُـوا فـي فـترةٍ، ومـا علينـا إلا الإجتهاد...»١.

حذّرهم، أولا، من إثارة القلاقل والإضطربات.

ثم أثار في عقولهم وقلوبهم عقيدة البعث واليوم الآخر.

ثم بين لهم أن الإنحراف عن منهج الكتاب والسنة إلى اليمين أو إلى الشمال يؤدي

بصاحبه إلى الضلال والتّيه، ولذا فإن نبض الجاهلية العائد ضلال.

ثم كشف لهم عن أن المرحلة تقتضي الحكم أن يكون صارماً (السوط والسيـف)، ولذا، فإن على النّاس ألا يخوضوا في أي شأن يزيد الوضع سوءاً بإثارة العصبيات القبلية والنّزعات العشائرية، داعياً إياهم إلى أن يكفّوا ويتوبوا عما سلف منهم مـن إفساد.

ثم أعطاهم حق الرقابة، وطالبهم بحقه في تأييدهم ومؤازرتهم.

ثم أبدى تشاؤمه من المستقبل وشكّه في عودة النهج النّبوي إلى سابق قوته (قلمـا أدبر شيء فأقبل)، ولكنه، مع ذلك، لم يفقد الأمل في تحسـن الأوضـاع، (لئـن رجعت إليكُم أُموركم إنكُم لسعداء).

ثم حذرهم من أن على الآمال المشرقة في التغيير نحو الأحسـن... نحـو النّهـج النّبوي الصافي، أن تضامن نفسها، وأن يعود أصحابها إلى شيء من الواقعية فـي تطلعاتهم: «... وإنّي لأخشى أن تكُونُوا في فترةٍ».

قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الفترة:

«الفترة هي الأزمنة الّتي بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها، كالفترة بين عيسـى عليه السلام ومحمد صلّى اللّه عليه وآله، لأنّه لم يكن بينهما نبي، بخـلاف المـدة الّتي كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام لأنّه بعث فيها أنبياء كثيرون. فيقـول عليه السلام: إني لأخشى ألا أتمكن من الحكم بكتاب اللّه تعالى فيكم، فتكونوا

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١ / ٢٧٥ - ٢٧٦. ورواها الشّريف الرّضـي فـي نهـج البلاغـة بتغيـير بعـض العبـارات، انظـر الخطبة رقم ١٧٦: «ومن خطبة له عليه السّلام في الشّهادة والتّقوى» وقيل: إنّه خطبها بعد مقتل عثمان في أوّل خلافته.

كالأمم الّذين في أزمنة الفترة لا يرجعون إلى نبي يشافههم بـالشّرائع والأحكـام. وكأنّه عليه السلام كان يعلم أن الأمر سيضطرب عليه.

«ثم قال: (وما علينا إلا الإجتهاد) يقول: أنا أعمل ما يجب علي من الإجتهاد فـي القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين، فإن تم مـا أُريـده فذاك، وإلا كنت قد أعذرت»١.

*

إن الإمام عليه السلام قبل الحكم، إذن، بمزيج من التّشاؤم والأمل، ولكن سرعان ما تسرب الذّبول إلى شعلة الأمل، فإن القوى المترددة سرعان ما أخذت تنحاز رويداً رويداً نحو المعسكر المناهض للنهج النّبوي، إن لم يكن في العلن ففي السر... هذا من جهة، ومن جهة أخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التّغيير تضغط في سبيل التّغيير دون أن تقدر ظروف المرحلة. وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيوية لئلا ينفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوى موالية للنّهج النّبـوي، ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثّورة المضادة.

*

وهكذا، فبعد الصدمة الّتي شلّت قوى الثّورة المضادة، وبعد فترة الإنتظـار الّتـي مرت بها الفئات الأخرى من الأمة، تفجر الموقف من جديد، وعاد الغليـان إلـى المجتمع، وعادت حالة الإختلاط والإضطراب المحمومة.

وظهرت للإمام علي في هذه المرحلة الّتي بلغت فيها أزمة الحكم وأزمـة الفكـر الذّروة - ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تاريخ المستقبـل للأمـة الإسلامية حافلاً بالأهوال والمآسي، وبكلّ ما فيه من ظـلام ودمـاء، وتمزقـات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نـور وحـالات سـلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة، وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى، رأى بحدس يضيئه نور نبوي، وعقل مستوعب لحركة التاريخ وآليتها

---

(١) المصدر السابق: ١ / ٣٨١.

الّتي تكاد أن تكون رياضية - رأى الفتنة آتية بكلّ ظلامها، وحيلها، وتلبيسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الردة بقيمها الجاهلية، بلبسها للإسـلام (لبـس الفـرو مقلوباً).

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الّذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدماء من ضحاياها، وأحـس بأعمـق أعماق كرامته الإنسانية ذلّ الإنسان المسلم في مجتمع الردة، وبكى بحرارة ومرارة لكلّ ما سيصيب الناس بعده.

ورأى بعد ذلك نار الثّورة تحرق كلّ شيء، وتهدم كلّ شيء، تستلهم حـقّ النـاس ومرارتهم... ولكنها ثورة تقع في أخطاء الفتنة في أحيان،وفي مهاوي الـردة فـي أحيان، وقلّما تهتدي الطّريق الوسطى...

ورأى أخيراً، في البعيد البعيد... بعد طول عذاب وعناء، نور الأمل الآتـي فـي النّهاية... نور الخلاص.

٢ ـ الفتنة

فتنة: تعبير قرآني يدلّ، حين يسند إلى اللّه تعالى ويصدر عنه، تـارة علـى الإختبار والإمتحان الرباني بالنّعمة، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى:

«واعلَموا أنما أموالُكُم وأولادكُم فِتنة وأن اللّه عِنده أجر عظيم»١

أو يدلّ في موارد أخرى على الإختبار والإمتحان الرباني بالمصاعـب والشدائـد، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى:

«أحسِب الناس أن يتركُوا أن يقُولُوا آمنا وهم لا يفتنُون. ولقد فتنا الّذِين مِن قبلِهـم فليعلمن اللّه الذِين صدقُوا وليعلمن الكاذِبين»٢

وهذه الفتن ذات وظيفة تربوية تعزز صلابة المؤمنين، وترفع درجة وعيهم، وتميز عنهم الدخلاء والمنافقين.

هذا التعبير القرآني ذو المضمون التربوي الإيجابي، غدا عند الإمام علي مصطلحاً سياسياً - تاريخياً ذا مدلولات متنوعة يتّصل بالحركة التّاريخية للمجتمعـات فـي الحاضر وفي المستقبل.

وهو ذو مدلول سلبي بالنّسبة إلى حركة التّقدم النّبوية.

إن الفتنة عند الإمام - باعتبارها ظاهرة سياسية - معوق لحركة التّقدم، ونكسة في

---

(١) سورة الأنفال (مدنية - ٨) الآية: ٢٨ - ووردت آية أخرى مماثلة في سورة التّغابن _مدنيّة - ٦٤) الآية: ١٥.
(٢) سورة العنكبوت (مكّية - ٢٩) الآية: ٢ - ٣.

سير حركة النبوة، وهي، والحال هذه، ليست من صنع اللّه تعالى، وإنّما هي مـن صنع البشر.

*

قسم الإمام الفتنة إلى قسمين:

أحدهما: الفتنة بالمعنى القرآني التّربوي، واعتبر أن الفتنة بهذا المعـنى ذات دور

إيجابي، بشرط أن تكون استجابة الإنسان لها بروح إيماني ملـتزم، ووعـي أخلاقي مسؤول، ولذا فلا معنى للإستعاذة باللّه من الفتنة بهذا المعنى فـإن ذلـك سخف، لأنّها تلازم طبيعة الحياة ووجود الإنسان، فلا توجد حياة مكتملـة دون أن توجد معها فتنة بهذا المعنى.

وثانيهما: الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسية، وهذه هي الفتنة التي يحذر منها ويستعاذ منها، وهي الّتي أعطاها الإمام في تعليمه الفكري مدلولاتها السياسية - التّاريخية. وسماها (مضلات الفتن).

وقد شرح الإمام ذلك بقوله:

«لا يقُولَن أحدكُم: اللّهم إني أعوذُ بِك من الفتنَةِ، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمِل على فِتنةٍ، ولكِن من استعاذ فليستعِذ من مضلاتِ الفِتن، فإن اللّه سبحانه يقُولُ: (واعلموا أنما أموالُكُم وأولادكُم فِتنة) ومعنى ذلك أنه سبحانَه يختبِر عِباده بِالأموال والأولادِ لِيتَبين الساخِطَ لِرزقِهِ والراضي بِقسمِهِ، وإن كان سبحانه أعلم بِهِم مِـن أنفُسِهِـم، ولكِن لِتظهر الأفعالُ التِي بِها يستَحق الثواب والعِقاب، لأن بعضهم يحِب الـذكُور ويكره الإناثَ، وبعضهم يحِب تثمِير المال ويكره انثِلام الحالِ»١.

*

وليس من أهداف هذه الدراسة البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحاً تربوياً، وإنّمـا الهدف منها هو البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحاً سياسياً - تاريخياً، فلنر فيمـا يأتي تقسيم الإمام لها باعتبارها ظاهرة سياسية، وتحليله لآلية حركتها: كيف تبدأ

---

(١) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النّص: ٩٣.

وتنمو وتنتشر، وتوجيهه في شأن الموقف الّذي ينبغي اتخاذه حين تقع. ولـنر دور علي في مواجهة الفتنة الّتي بدأت طلائعها في عهده، وأخيراً رؤيته لفتنة بني أمية بعده.

*

يبدو من تحليل النصوص الّتي اشتمل عليها نهج البلاغة بشأن الفتنة والمقارنة بينها أن ثمة ثلاثة أنواع من الفتن:

١ - الفتنة الشّاملة.

٢ - الفتنة العارضة.

٣ - الفتنة الغالبة.

وهذه التّسميات وضعناها نحن، ولم ترد في كلمات الإمام علي، على ضوء ما لاحظناه عن اتساع المساحة الفكرية الّتي تطبعها الفتنة بطابعها، وتؤثّر بالتّالي على الوضعية السياسية والعلاقات الإجتماعية والإنسانية داخل المجتمع.

أ - الفتنة الشّاملة

تكون الفتنة شاملة حين تكون نظاماً فكرياً يسود مجتمعاً من المجتمعات ذات الحضارة أو البدوية - الرعوية، فالحضارة التي تقوم الحياة فيها على قيم الضلال في الفكر والأخلاق والضياع، وتنبني مؤسساتها السياسية والإجتماعية على الإعتبارات الّتي تنشأ من هذه القيم، وتحكم المجتمع السياسي فيها علاقات فاسدة... هذه الحضارة تكون فتنة شاملة تصل إلى كلّ إنسان، وتنشر ظلالها خارج حدودها. إنّها الجاهلية قديمها وحديثها في ذلك سواء.

وكذا الحال فيما إذا كان نظام فكري كهذا يكون روح وعقل مجتمع بدوي - رعوي، لم يبلغ مرحلة الحضارة ذات الإنجازات في مجال التّعامل مع الطّبيعة والمؤسسات التّنظيمية.

وقد صور الإمام عليه السلام هذه الفتنة الشّاملة في حديثه عن حال العالم، والعرب بوجه خاص - قبل بعثة رسول اللّه (ص) قال:

«... وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه، أرسلَه بالدين المشهور، والعلَمِ المأثُور، والكِتابِ المسطُور... والنّاس في فتنٍ انجذَم١ فِيها حبلُ الدين، وتزعزعت سواري اليقين٢ واختَلَف النجر٣ وتشتتَ الأمر، وضاقَ المخرج، وعمِي المصدر، فالهدى خامِل، والعمى شامِل. عصِي الرحمان، ونُصِر الشيطان، وخُذِلَ الإيمان فانهارت دعائمه وتنَكرت معالِمه، ودرست سبلُه٤ وعفَت شُرُكُه٥، أطاعوا الشيطان فسلكُوا

مسالِكه ووردوا مناهِلَه٦، بِهم سارت أعلامه وقام لِواؤُه، فـي فِتَـنٍ داسـتهم بِأخفافِها ووطِئتهم بِأظلافِها٧ وقامت على سنابِكِها٨، فهم فيهـا تـائهون حـائرون جاهِلُون مفتُونُون، في خيرِ دارٍ وشّر جِيرانٍ. نومهم سهود، وكُحلُهم دموع، بِأرضٍ عالِمها ملجم، وجاهِلُها مكرم»٩.

في هذا النّص فصل الإمام علي نظرته إلى نموذج من نمـاذج الفتنـة باعتبارهـا ظاهرة سياسية لمجتمع ما.

والسمات الّتي تميز الفتنة الشّمالة فيما يفيده هذا النّص هي:

١ - مجتمع لا يحكمه نظام أخلاقي، وخالٍ من الحياة الروحية السليمة. وهـذا لا ينفي أن يتمتع المجتمع المذكور بنظام سياسي.

وهذه السمة يدلّ عليها قول الإمام «انجذم فيها حبل الدين» فالمجتمع منقطع الصلة بالوحي، ومن ثم فهو لا يتمتع بنظام روحي وأخلاقي.

٢ - مجتمع تسيطر على أفراده وفئاته روح الشّك. ويتبع فيه - في مجال القيم - المقياس الذّاتي، لأنّه لا يتمتع بمقياس موضوعي نتيجة لخلوه من النّظام الأخلاقـي والحياة الروحية.

---

(١) انجذم: انقطع.
(٢) السّواري: جمع سارية، وهي الدّعامة.
(٣) النّجر: الأصل.
(٤) درست: انطمست.
(٥) عفت شركه: عفت: انمحت، وشركه جمع شراك: الطّريق.
(٦) المناهل: جمع منهل، هو مورد النّهر.
(٧) الخف للبعير: والظلف للبقر والشّاء: كالقدم للإنسان.
(٨) السّنابك جمع سنبك: طرف الحافر.
(٩) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٢.

وهذه السمة الثّانية يدلّ عليها قول الإمام في النّص الآنف «تزعزعت فيها سواري اليقين».

٣ - مجتمع منقسم على نفسه إلى شيع وأحزاب، تمزقه الصراعـات والنّزاعـات وتجعله خالياً من روح التّضامن والتّكافل. ومن ثم فلا توجه حركته آمال متحـدة

وهدف أخلاقي كبير، وإنّما توجهه الرغبات الفردية والفئوية بسبب عدم وجود نظام أخلاقي من جهة، وانتشار روح الشّك واتباع المقياس الذّاتي في القيم من جهة أخرى.

وهذه السمة يدلّ عليها قول الإمام «واختلاف النّجر، وتشتّت الأمر، وضاق المخرج وعمي المصدر...».

هذه هي السمات الّتي تميز الفتنة الشّاملة، وتطبع المجتمعات المفتونة بطابعها. وما جاء من أوصاف للمجتمع في الفقرات التالية من النّص الآنف هـي نتـائج لهـذه السمات الثّلاث الكبرى: فقدان النّظام الأخلاقي والحياة الروحيـة / شـيوع روح الشّك واتباع المقياس الذّاتي في القيم / الإنقسامات الطبقية والفئوية والعائلية، وعدم وجود هدف عظيم ونبيل يوجه حركة المجتمع التاريخية.

هذه هي الفتنة الشّاملة.

وتسميتنا لهذه الفتنة ب(الشّاملة) ناشئ من ملاحظة أنّها مستوعبة لكـلّ المجتمـع بحيث لا يخلو منها أي مستوى من مستوياته وأي مظهر من مظاهر الحياة فيـه، فهي روحه وعقله: روحه الملهمة، وعقله الموجه.

ب - الفتنة العارضة

الفتنة العارضة: عثرة تعترض سير المجتمع أثناء حركته التّقدمية فتشيـع الحـيرة والإلتباس في بعض المواقف، وتعرض بعض الأشخاص القياديين وبعض فئـات المجتمع لاختبارات حرجة، وتحفّز بعض القيم القديمة للتّعبير عن نفسها، ولكن قوة اندفاع المجتمع في حركته التّقدمية، وقوة المبادئ الّتي تحكم سـيره فـي قلـوب وعقول أفراده - تحول بين الفتنة وبين أن تنتشر وتتعمق وتضرب بجذورها فـي ثنايا المجتمع، فسرعان ما ينكشف وجه الحقّ فيها، وتذبل حركتها، ويخفت صوت الداعين إليها بين

الناس، بل يغدون موضعاً للنقد والتّجريح، وتجف الروافد الرجعيـة الّـتي تمدهـا بالحياة والحركة، ويتعافى المجتمع من نكسته، ويخرج من التّجربـة أكـثر وعيـاً ويقظةً.

وقد مرت على المسلمين في عهد رسول اللّه (ص) بعض الفتـن العارضـة الّتي تجاوزوها، بتوجيه رسول اللّه (ص)، بنجاح، وخرجوا منهـا دون أن تؤثّـر على حركة المجتمع الإسلامي المندفعة إلى الأمام.

ولعلّ أشد هذه الفتن العارضة الّتي واجهت المجتمع الإسلامي في عهد النّبي (ص) خطورة كانت فتنة الإفك، في سنة ست للهجرة، في أعقاب غزو رسول اللّه (ص) والمسلمين لبني المصطلق من خزاعة.

وقبل الإفك ما حدث أثناء العودة من الغزوة المذكورة، حين أدى تزاحم على الماء في بعض منازل الطّريق بين أجير لعمر بن الخطاب من بني غفار اسمه (جهجاه)، وبين أحد حلفاء الخزرج واسمه (سنان بن وبر الجهني)، واقتتلا، فصرخ حليـف الخزرج: «يا معشر الأنصار» وصرخ أجير عمر بـن الخطـاب «يـا معشـر المهاجرين». ونشط المنافقون، وعلى رأسهم (عبد اللّه بن أبي سلول)، لاسـتغلال التّوتّر الّذي ولّده هذا النّزاع البسيط بين المهاجرين والأنصار، وهدد ابن أبي سلول بأنهم إذا عادوا الى المدينة (ليخرجن الأعز مِنها الأذل)، وكادت الفتنة أن تجـرف كثيرين...

ولكن حكمة رسول اللّه (ص) قضت على الفتنة في مهدها.

وأنزل اللّه في شأن هذه الفتنة الصغيرة العارضة سورة المنافقين (رقـم ٦٣ فـي المصحف) فضح فيها نوايا المنافقين وأساليبهم، وجعل منها درساً تربويـاً إيمانيـاً وسياسياً للمسلمين عمق وعيهم، وزاد يقظتهم، وعزز صلابتهم أمام أساليب النّفاق.

أما فتنة الإفك فكانت أشد خطورة وأوسع انتشاراً.

لقد كانت مرتعاً خصباً للمنافقين يوهنون من خلالهـا مقـام رسـول اللّـه (ص)، ويشوهون سمعته، ويلقون ظلالاً من الريبة على طهارة بيته، في مجتمع يقوم على قيم صارمة فيما يتعلق بالطّهارة الجنسية، بما يؤدي إليه الهمس الخفي فـي شـأن كهذا في مجتمع كهذا من سخريات وظنون والاشاعات تضعـف التّـأثير النّفسـي لتوجيهات رسول اللّه (ص).

وما هو أشد خطورة في دس المنافقين واستغلالهم للإمكانات الّتي يتيحها الإفك، هو

أن الفتنة أدت إلى تصدع تلاحم المسلمين أنفسهم، حيث استغل زعماء قبيلـة الأوس تورط بعض أفراد قبيلة الخزرج في إشاعة الحديث عن الإفك، للتّعبير عن أحقاد قبلية جاهلية تحت ستار الغيرة على رسول اللّه (ص)، والتّمسـك بأهـداب الدين.

فقال رئيس الأوس (أسيد بن حضير) مخاطباً رسول اللّه (ص) حين وجـه عتابـاً رقيقاً للّذين روجوا الإشاعة الكاذبة، دون أن يسمي أحداً:

«يا رسول اللّه: إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فو اللّه إنّهم لأهل أن تضرب أعناقهم».

فقال سعد بن عبادة زعيم الخزرج راداً عليه:

«كذبت لعمر اللّه، لا تضرب أعناقهم. أما واللّه ما قلت هذه المقالة إلا أنّك عرفت أنّهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا...».

فقال أسيد بن حضير:

«كذبت لعمر اللّه، ولكنّك منافق تجادل عن المنافقين...».

وتساور النّاس١ حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر٢.

وهكذا وجدت القيم الجاهلية القديمة متنفساً تعبر به عن نفسها من خلال هذه الفتنة متستّرة بشعارات إسلامية.

ولكن حكمة رسول اللّه (ص)، ووعي المجتمع، ورسوخ المبادئ والقيم الإسـلامية في نفوس النّخبة حصرت الفتنة في نطاق ضيق، وحالت دون تأثير فـي إحـداث تفاعلات سيئة بالنّسبة إلى حركة التّقدم النّبوية. وجاء الوحي بعد ذلك فقضى على الفتنة، حيث أنزل اللّه تعالى في هذا الشّأن سورة النّور (السـورة رقـم ٢٤ فـي المصحف) وجعل منها درساً تربوياً، ومناسبة لسن تشريعات تتعلق بالعلاقات بين الجنسين

---

(١) تساور النّاس: قام بعضهم إلى بعض ليتقاتلوا.

(٢) تراجع سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السّقا ورفيقيه (الطّبعة الثّانية) ١٣٧٥ هجـري = ١٩٥٥ م / القسـم الثّاني - ص: ٢٨٩ - ٣٠٧.

داخل المجتمع الإسلامي، في نطاق الزوجية - من حيث العلاقات الزوجية وغيرها - وخارج الحياة الزوجية.

*

هذان نموذجان للفتنة العارضة في المجتمع الإسلامي في عهد رسول اللّـه (ص) وقد واجه المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول (ص) فتنـة عارضـة ذات طابـع سياسي محض هي فتنة السقيفة.

وقد بدأت هذه الفتنة حين تجاوز بعض كبار الصحابة من المهـاجرين والأنصـار وصية رسول اللّه (ص) بإسناد الخلافة بعده إلى الإمام علي بن أبي طالب، لأنّـه كان الشّخصية الإسلامية الوحيدة الّتي تجمعت فيها المواهـب والمـؤهلات الّتـي جعلتها قادرة على قيادة الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول اللّه (ص).

وقد حسم النّزاع على منصب الخلافة بين المهاجرين والأنصار، في سـقيفة بنـي ساعدة١، بمعزل عن الإمام علي بن أبي طالب، لمصلحة قبيلة قـريش، بمبايعـة الخليفة الأول (أبي بكر) على أثر مناورات سياسية استخدم فيهـا منطـق قبلـي، وكادت تؤدي إلى انشقاق خطير داخل المجتمع الإسلامي الوليد٢.

وقد كان العامل الأكبر والأبعد أثراً في التّغلّب على فتنة السقيفة وآثارها الخطـيرة هو موقف علي بن أبي طالب.

فقد كان الإمام علي بمؤهلاته المتفوقة بشكل مطلق على نخبة الصحابة، وبمواهبه النادرة الفريدة، وبالنّص عليه من رسول اللّه (ص) خليفة من بعده... كـان لذلـك كلّه رجل الشرعية الإسلامية الأصيل.

وكان هذا الوضع الحقوقي المؤاتي بالنّسبة إليه يخوله حـق المعارضـة، ونقـض القرار والإنجاز الّذي اتخذ خارج الشّرعية في اجتماع السقيفة، سعياً وراء حقه في تسلّم السلطة.

---

(١) سقيفة بني ساعدة، مكان مسقوف بسعف النّخل في المدينة (يثرب)، وكانت مجمع الأنصار بعد الإسلام، ودار ندوتهم لفصل القضايا وإجراء المناورات.

(٢) يراجع للمؤلف: نظام الحكم والإدارة في الإسلام. كما يراجع للمؤلف أيضاً: ثورة الحسين - ظروفها الإجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة (الطبعة الخامسة) الفصل الأوّل.

ولكن هذا الوضع الحقوقي النّظري بالنّسبة إليه، كان يوا جه وضعاً اجتماعياً وسياسياً واقعياً.

فمن ناحية كان المجتمع الاسلامي الوليد لا يزال مجتمعاً هشّاً من حيث التّلاحم الداخلي النّاشئ عن العقيدة الواحدة، لأن القيم الجاهلية كانت لا تزال سائدة في الحياة العامة للقبائل الّتي دخلت في الإسلام في عام الوفود قبل وفاة النّبي (ص) بسنة وأشهر - أو أقل من سنة بالنّسبة إلى إسلام بعض هذه القبائل - وكانت هذه القيم الجاهلية في أحسن الحالات مستكنّة تحت قشرة رقيقة من الإسلام، وكان لا بد من مضي وقت طويل قبل أن تذبل هذه القيم الجاهلية وتفقد حرارتها وفاعليتها.

وفي حالة كهذه كان أي عمل سياسي يتّسم بطابع العنف سيؤدي في الراجح إلى تصدع خطير في بنية المجتمع الإسلامي وتماسكه، وقد يؤدي إلى ردة واسعة النّطاق في أوساط حديثي العهد بالإسلام.

ومن ناحية أخرى كان فريق من القبائل قد ارتد فعلاً عن الإسلام، واتّبع بعض أدعياء النّبوة، وغدا يشكّل تهديداً حقيقياً للإسلام حين انتشرت ظاهرة التّنبؤ واتّجه قادتها إلى تحالف يوحد قواهم، فسيطروا على اليمن تقريباً في الجنوب، وعلى مساحات واسعة من الحجاز ونجد في الشّمال.

وقد اتّجه الإمام علي إلى المعارضة والإحتجاج أول الأمر. ورفض الإعتراف بالنّتيجة الّتي أسفر عنها اجتماع السقيفة، واعتصم في منزله، وبدا بوضوح أن موقفه سيثير تفاعلات خطيرة في وجه اختيار السقيفة داخل المدينة وخارجها... ولكن الإمام علياً سرعان ما واجه الواقع السياسي والإجتماعي للمجتمع الإسلامي الوليد، والأخطار الّتي ربما تعرض لها الإسلام نفسه نتيجة لهذا الموقف.

ولو لم يكن علي بن أبي طالب رجل العقيدة الأول، ورجل الرسالة الأول، الأكثر وعياً والأعظم شعوراً بالمسؤولية، لما ألقى بالاً إلى الواقع السياسي والإجتماعي للإسلام، ولمضى في معارضته إلى نهايتها، مستغلاً الواقع السياسي والإجتماعي في سبيل نجاح مسعاه للوصول إلى السلطة.

ولكنّه كان بالفعل رجل العقيدة الأول، ورجل الرسالة الأول، وأعظم المسلمين

إطلاقاً شعوراً بالمسؤولية تجاه الإسلام، وأعظمهم حرصاً على ازدهاره وانتشـاره وتعمقه في العقول والقلوب.

ومن المؤكّد أن الحكم عنده لم يكن مطلباً شخصياً، بل وسيلة إلـى بلـوغ غايـة تتجاوز الأشخاص والأجيال والمصالح الخاصة لتعم وتشمل ما بقي من عمر الدنيا، وما تضمره القرون المقبلة من أجيال في كلّ الأوطان وفي كلّ الأمم.

إن علياً، بعد رسول اللّه (ص) - كان أب الإسلام. وقد تصـرف تصـرف الأب الحريص، فتحمل بصبر جميل نبيل جراحه الشّخصية وحرمانه في سـبيل قضيـة حياته الكبرى، قضية الإسلام.

ولا شك في أن جميع المسلمين كانوا يعرفون هذه الحقائق في شـخصية وضـمير الإمام علي، ويبدو أن منافسيه السياسيين قاموا بمغامرتهم النّاجحة١ معتمدين على جملة معطيات من جملتها ثقتهم بأن الإمام سيقدم مصلحة الإسـلام العليـا علـى مصالحه الخاصة.

لقد أشار الإمام في كتاب له بعث به إلى أهل مصر مع مالـك الأشـتر لمـا ولاّه إمارتها، إلى العامل السياسي الّذي حال دون مضيه في المعارضة، فقال:

««... فأمسكتُ يدِي٢ حتى رأيتُ راجِعةَ النّاسِ٣ قد رجعت عن الإسلامِ، يـدعون إلى محق دِينِ محمدٍ (ص)، فخشِيتُ إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فِيه ثلماً٤ أو هدماً تكُون المصِيبةُ بِهِ علي أعظم مِن فوتِ ولايتِكُم التي إنما هي مـ تاع أيـامٍ قلائلَ يزول مِنها ما كان كما يزولُ السراب، أو كما يتقشع السحاب فنهضتُ فـي تِلك الأحداثِ حتى زاح٥ الباطِلُ

---

(١) ممّا يوحي بشعور الجميع آنذاك بخطورة الإجراء الّذي اتّخذوه واشتماله على درجة كبيرة من المغامرة قول الخليفة عمر بـن الخطّاب في خلافته في تحذير غير مباشر وجّهه إلى طلحة والزّبير وغيرهما لما نمي إليه عنهـم مـن آراء تتصـل بطريقـة انتقـال السّلطة على الأسلوب الّذي تمّ في السّقيفة (كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى اللّه شرّها).

(٢) أمسكت يدي: توقّفت عن المشاركة في الموقف الرّاهن.

(٣) راجعة الناس: الرّاجعون عن الإسلام، المرتدّون.

(٤) ثلماً: خرقاً وانتهاكاً.

(٥) زاح: ذهب وزال.

وزهقَ١، واطمأن الدين وتنهنه ٢».٣

وقد خيب موقفه المبدئي الرسالي آمال كثيرين ممن كان إسلامهم موضع شـك أو كانوا مسلمين مخلصين ولكنهم ينظرون إلى مسألة الحكم من زاوية المصالح القبلية والعائلية نتيجة لافتقارهم إلى النّضج والوعي.

وقد حاول بعض هؤلاء أن يحملوه على تغيير موقفه المبـدئي الرسـالي، ولكنـه رفض محاولاتهم، مصرحاً بأن الموقف موقف فتنة، داعياً، إلى النّظر في الموقف وفقاً لمقياس عقيدي إسلامي مبدئي، والإبتعاد عن المنظور الجاهلي القبلـي الّـذي بدت سماته في تلك المحاولات.

وقد صرح بذلك في مواقف كثيرة، منها قوله مخاطباً الناس حين دعاه أبو سـفيان بن حرب والعباس بن عبد المطلب إلى أن يبايعا له بالخلافة:

«أيها النّاس، شُقوا أمواج الفِتن بِسفُن النجاةِ، وعرجوا عن طريق المنافرةِ٤ وضعوا تِيجان المفاخرةِ. أفلح من نهض بِجناح، أو استسلم فأراح. هذا ماء آجِن٥، ولُقمـة يغص بِها آكِلُها. ومجتنِي الثمرةِ لِغير إيناعِها٦ كالزارعِ بِغيرِ أرضِهِ»٧.

*

والسمات الّتي تميز الفتنة العارضة، فيما نستفيده من جملة ما ورد عن الإمام علي في هذا الشّأن، ومن الدراسة التّاريخية،... أربع:

١ - تتولّد أزمة سياسية، قد تكون بسبب أحداث صغيرة، تكون غالباً غير مخطّـط لها بل عرضية، ولكن سرعان ما تدخلها بعض القوى الإجتماعية ذات الأهـداف السرية

---

(١) زهق: مات، يعني هنا: زال الباطل تماماً.
(٢) تنهنه: انتعش.
(٣) نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النّصّ: ٦٢.
(٤) عرّج عن الطّريق: تنحّى عنها. يعني تنحّوا عن الأسلوب الجاهلي في الصّراع السّياسي وهو المنافرة والمفاخرة.
(٥) الآجن: الماء الّذي تغيّر لونه وفسدت رائحته ولم يعد صالحاً للشرب، يعني بذلك الأسلوب السّياسي الجاهلي.
(٦) الإيناع: النّضج والصّلاحيّة للأكل.
(٧) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٥.

المخالفة لنظام المجتمع في نطاق خططها للإستفادة منها ومن تلك الأزمة السياسية، في سبيل الوصول إلى أهدافها.

وقد تتولّد الأزمة السياسية بسبب أحداث ذات شأن كبير ومخطّط لها - كما حدث في السقيفة - ولكن الجماعات الّتي تصنع الحدث لا تستثمره لأهداف مخالفة لنظام المجتمع العام والسائد، بل تكون عازمة على الإنسجام مع نظام المجتمع، ساعية إلى تعزيزه وفقاً لفهمها الخاص، عاملة على أن يكون ذلك من خلال سلطتها هي.

٢ - في الحالتين الآنفتين تحرك الفتنة العارضة بعض القيم القديمة الّتي قضى عليها النّظام الجديد، إما بسبب ضعف رقابة النظام لانشغال أجهزته بالمشكلات السياسية الآنية، أو بسبب التسامح مع بعض القوى السياسية غير الواعية لأجل كسب ولائها في الصراع السياسي الدائر. ولكن هذه القيم القديمة، في جميع الحالات، لا تعود سافرة صريحة، إنّما تعود مموهة بشعارات جديدة.

٣ - (في الغالب) تتولّد الأحداث الّتي تكون مناخ الفتنة من مشكلات يثيرها أشخاص عاديون أو ذوو قيمة ثانوية في السلم الإجتماعي، كما أنها تقع على أشخاص من هذا القبيل كما هو الحال في فتنة النّزاع على الماء بين الغفاري والجهني، ولكن علاقات الدم والصداقة والمصالح والمطامح سرعان ما (تسيس) الأحداث وتستغلها. وقد يحدث أن تتولّد الأحداث من مشكلات يثيرها أشخاص ذوو شأن كبير في المجتمع أو تصيب هذه الأحداث أشخاصاً من هذا النّوع، كما هو الحال في حادثة الإفك وفي أحداث السقيفة.

٤ - تواجه القيادة الحقيقية الشّرعية هذه الفتنة بسياسة تتّسم بالهدوء، وروح المسؤولية العالية، وتتجنب اتّخاذ أية إجراءات أو مواقف انفعالية وانتقامية، لما يؤدي إليه ذلك من عواقب خطيرة تزيد الموقف تعقيداً والفتنة استحكاماً، وتتيح للقوى الخفية المعادية للنّظام (المنافقون، مثلاً في المجتمع الإسلامي) أن تستغل الوضع الطّارئ لتحقيق أهدافها (لاحظ السمة رقم (١)).

وبدلاً من مواجهة أحداث الفتنة العارضة بالعنف والإنفعال، تحرص القيادة على

مواجهتها بأسلوب يعطي الأولوية في الحل لمصلحة القضايا المبدئية والعامة، لا للجانب الشّخصي والعائلي.

هذه هي، فيما نرى، أبرز سمات الفتنة العارضة.

ج - الفتنة الغالبة

هذا النوع الثّالث من أنواع الفتنة، هو، كما يدلّ عليه الوصف الّذي اخترنـاه لـه، دون الفتنة الشّاملة، وفوق الفتنة العارضة.

وقد تنشأ الفتنة الغالبة من تدهور سياسي عقيدي - تشريعي كبير يحلّ بالمجتمـع أثناء حركته الإنبعاثية، أو بعد بلوغه الذّروة.

كما قد تنشأ من فتنة عارضة تهمل القيادة جانب الحكمة في مواجهتهـا، أو تغفـل عنه، فتتعاظم عثرة المجتمع، وتتغذّى الحالة الإنحرافية بالتّناقضات المستكنّة فـي أعماق التّركيب الإجتماعي، كما أنّها تتغذى بالقيم القديمة الّتي أجبرها النّظام الجديد على أن تنسحب من دائرة العمليات الإجتماعية إلى الظّلام.

وتفشل النّخبة في علاج العثرة بسب عجز هذه النّخبة، أو بسبب تنـاحر أجنحتهـا وانحياز بعض الأجنحة إلى خط الإنحراف.

وعامل الزمن في مصلحة الإنحراف، فكلّما مضى على الإنحـراف يـوم دون أن يوضع له حد ودون أن يقوم، يزداد رسوخاً وتمكّناً، ويستوعب مساحة جديدة مـن المجتمع، ويكون لدى مزيد من النّاس قناعات في صالحه بينما تزداد النّخبة عجزاً، وعزلةً، وتفقد مزيداً من مواقعها.

وقبل مضي زمن طويل على الإنحراف الّذي أنشب مخالبه في كيـان المجتمـع، وفشلت النّخبة في القضاء عليه - يشيع هذا الإنحراف، ويطبع كثيراً مـن أوجـه الحياة، ويغدو عرفاً أو قانوناً أو سنّة متبعة، تحميه وتصونه قناعات تتأصـل فـي النّقافة، وتغدو جزءاً من تكوين المجتمع الثّقافي.

قلنا: إن هذا يحدث قبل مضي زمن طويل على حدوث الإنحراف، لأن الإنحـراف عادة يكون إلى جانب اليسر والسهولة والحياة الهينة وهذا ما يغري بالإتباع

لأنه أوفق بهوى النفوس، وأبعد عن التّبعة والتّضحية.

ولكن الإنحراف (الفتنة) لا يبلغ درجة الشّمول واسـتيعاب كـلّ مؤسـسات المجتمع، ولا يستطيع أن يغير بنيته الثّقافية من جميع وجوهها، ولا يقدر علـى أن يستوعب في مفاهيمه وقيمه الجديدة المبتدعة أو القديمة المحيـاة - كـلّ الفئـات الإجتماعية، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقضي نهائياً على حركة المجتمع التّقدمية. إنّه يعوقها ولكنّه لا يعطّلها، يشوهها ولا يمسخها، إنّه لا يبلغ درجة الفتنة الشّاملة، وإنّما يكون فتنة غالبة.

تبقى مع الإنحراف الغالب روح الطّهارة والأصالة شائعة في المجتمع بوجه عـام، تغذي حركته التّقدمية في أكثر من وجه من وجوه حياته ونشاطاته، وإن كانت هذه الروح تتعرض دائماً للنّكسات بالنّسبة إلى عامة المجتمع، ولكنّها تبقى على وهجها الكامل وفاعليتها الكاملة في جماعات قد تكون محدودة وصغيرة، منبثّة فـي ثنايـا المجتمع سلمت من الإنحراف فلم ينل منها شيئاً، وبقيـت ثابتـة علـى الصـراط المستقيم.

هذه الجماعات الأصيلة الطّاهرة هي طليعة الكفاح ضد الفتنة الغالبة فـي داخـل المجتمع.. هي الّتي تحول بين الفتنة وبين أن تستوعب كلّ المجتمع وتغدو شاملة، وهي الّتي بكفاحها الدائب الصبور تحول بين الفتنة وبيـن التمكّـن والإسـتقرار، وتجعلها في حالة حرب مستمرة.

ومن هنا فإن المجتمع في حالة الفتنة الشّاملة يتمتع باستقرار وثبات نتيجة لتناغـم المؤسسات مع القيم مع القناعات الشّعبية مع الثّقافة العامة، فهـذه كلّهـا تتكامـل وتتساند، وتتوفّر نتيجة لذلك حالة من التّوازن توفّر بدورها استقراراً وثباتاً.

أما في الفتنة الغالبة فإن الأمر على خلاف ذلك، لأنّه يوجد تنافر قليل أو كثير بين المؤسسات والقيم والقناعات والثّقافة، وهذا يؤدي إلى أن يعاني المجتمع باستمرار من القلق والفوران والتمزق، نتيجة لوجود القوى المناهضة للفتنة، هذه القوى الّتي تضطر حركتها الأصيلة المناهضة نظام الفتنة إلى أن يتحرك ضدها.

*

والفتنة الغالبة، في عالم الإسلام، هي الفتنة الّتي استفحلت في آخر عهـد الخليفـة عثمان بن عفان، وقاد الإمام علي بن أبي طالب حركة التّصدي لها طيلة السني

الأخيرة من حياته... واستمرت بعد استشهاده، وزادت ضراوة وعنفاً حين فـترت الهمم وتقاعست العزائم عن التّصدي الفعال لها، فانتصرت وسادت - قبـل عهـد الثّورات - حركة الردة.

ومن هنا فقد كثر كلام الإمام علي عن هذه الفتنة من جميـع وجوههـا: نعـرض أسباب وبدايات حدوثها، وآلية حركتها، والموقف منها.

أ - كيف تبدأ الفتنة ؟

كيف تبدأ الفتنة ؟. قال عليه السلام:

«إنّما بدء وقُوع الفِتَن أهواء تُتبع، وأحكام تُبتدع، يخالَفُ فيها كِتاب اللّه، ويتولـى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه. فلو أن الباطِلَ خلص مِن مزاج الحـق لـم يخفَ على المرتادِين[1] ولو أن الحق خلص مِن لبس الباطِل انقطعت عنـه ألسـن المعاندين[2] ولكِن يؤخذُ مِن هذا ضِغث[3] ومِن هذا ضِغْث فيمزجان فهنالك يستَولي الشيطان على أوليائِهِ. وينجو (الذِين سبقت لهم مِنا الحسنى)[4]»[5].

هذا النّص يكشف عن عاملين يكونان الفتنة الغالبة:

أحدهما:

تغليب المقياس الذّاتي في القيم على المقياس الموضوعي «أهواء تتبع» فبدلاً من أن يكون المرجع في القيم النّظام العقيدي والتّشريعي للمجتمع، يتجاوز رواد الفتنة هذا النّظام فيرجعون إلى النّوازع الذّاتية والعاطفية والمصلحية فتكون هـي المقيـاس بالمعتمد وهو المرجع الأخير في القيم والسلوك، وعلى ضـوء مـا تمليـه تتخـذ المواقف من الأحداث والأشخاص.

---

(١) المرتاد: الطّالب.
(٢) اللّبس: الملابسة والمخاطبة.
(٣) الضّغث من الحشيش القبضة منه. يعني يخلط شيء من الحقّ بشيء من الباطل فيشتبه أمرهما وتحصل الفتنة.
(٤) سورة الأنبياء (مكيّة - ٢١) الآية ١٠١.
(٥) نهج البلاغة - الخطبة رقم: ٥٠

ثانيهما:

سقوط القانون وانتهاك حرمته على الصعيد العملي: «... وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب اللّه»، وتغلّب العامل الشخصي بالإحتيال على الشّرعية القانونية الّتي يحتفظ لها المفتونون بالإحترام النّظري، ويتظاهرون بتطبيقها، بينما هي على الصعيد العملي تنتهك كلّما تمكن الأقوياء من انتهاكها.

هذان العاملان: سقوط المقياس الموضوعي في القيم على صعيد الأخلاق والعلاقات الإجتماعية والسياسية، وسقوط الشّرعية القانونية على صعيد المؤسسات العامة والعلاقات والوضعية السياسية والإقتصادية والإجتماعية... هذان العاملان هما جوهر الفتنة الغالبة.

ويحدث حينئذٍ أن تتكون القناعات الموالية للفتنة الغالبة لدى فئات اجتماعية جديدة: «... ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه» يتعزز بها موقع الإنحراف في المجتمع، ويعمق رسوخه في القلوب والعقول، ويتسع مداه فيشمل مساحات جديدة من الحياة.

ولكن الفتنة - كما ذكرنا آنفاً - لا تبلغ درجة الشّمول، بل يبقى للحقّ في المجتمع سلطان، ويبقى للشّرعية في المجتمع أعوان، هم «الّذين سبقت لهم مِنّا الحسنى» وهم الّذين يقودون حركة الكفاح ضد الباطل والفتنة من أجل الحقّ الخالص الّذي لا يلتبس بالباطل.

*

ب - كيف تتحرك الفتنة وتنمو ؟

ويصف الإمام في نص آخر كيف تبدأ الفتنة، ويصور آلية حركتها وانتشارها في المجتمع، وذلك في سياق وصفه للفتنة الغالبة الّتي كانت نذرها تطلّ على المجتمع الإسلامي في عهده:

١٦٩

«... ثُم إنكُم معشَر العربِ أغراض بلايا قدِ اقتربت، فاتقُوا سكراتِ النعمةِ واحذروا بوائقَ النقمةِ١، وتثبتُوا في قتامِ العِشوةِ٢ واعوجاجِ الفِتنةِ عند طُلُوع جنِينها، وظُهور كمينها، وانتِصابِ قُطبِها ومدار رحاها. تبدأُ في مدارج خفيةٍ،

وتؤُولُ إلى فظاعةٍ جليةٍ. شِبابها كشِبابِ الغُلام٣، وآثارهـا كآثـار السـلامِ٤ يتوارثُها الظلمةُ بِالعهودِ، أولُهم قائد لآخِرِهِم، وآخِرهم مقتدٍ بِأولهم. يتنافَسون فـي دنيا دنِيةٍ، ويتكالبون على جِيفةٍ مريحةً٥. وعن قِليلٍ يتبرأُ التابع مِن المتبوع، والقائد من المقُودِ، فيتزايلُون بِالبغضاءِ٦ ويتلاعنُون عِند اللقاءِ»٧.

في هذا النّص صور الإمام آلية حركة الفتنة، ونموها وانتشارهـا فـي المجتمـع، فأبرز الملامح التّالية:

١ - إن شيوع روح التّرف في المجتمع، واستغراق النّخبة فـي التّـرف يؤديـان بالمجتمع إلى أن يفقد روحه النّضالية الرسالية، ويحـرص علـى حياتـه الهينـة النّاعمة، وعلى توفير الوسائل الملائمة لبلوغ مستوى من الحياة أكثر نعومة ولين.

كما أن النّخبة في هذه الحالة تصاب بالتّرهل والعجز والجبن.

وشيوع هذه الروح، روح التّرف، في مجتمع لا يزال في مرحلة تكـوين نفسـه، ومحاط بالقوى المضادة الخائفة، ويحتوي تركيبه الداخلي على نقاط ضعف ناشـئة من كونه يضم جماعات لم تتمثّل بعد بدرجة مرضية وعميقة رسالته الّتي يعتنقهـا ويبشر بها... - شيوع هذه الروح في مجتمع كهذا - وهـو مـا كا نه المجتمـع الإسلامي في ذلك الحين - يجعله مهيأً لنمو روح الفتنة فيه وانتشارها.

لقد حذّر الإمام من هذا بقوله: (احذروا سكرات النّعمة...).

---

(١) البوائق: جمع بائقة، وهي الواهية، والمصيبة الكبيرة.
(٢) القتام: الغبار، العشوة الظلام. يعني أنّ الموقف الآتي شديد الإلتباس لأنّه مظلـم فـي نفسـه ويثـور مـع ذلـك حولـه الغبـار. ويعني بذلك الفتنة الآتية.
(٣) شباب الغلام: فتوته وعنفوانه، والفتنة تبدأ هكذا ذات عنفوان.
(٤) السّلام الحجارة الصّمّ، وأثرها في الأبدان الجرح والكسر.
(٥) مريحة: منتنة.
(٦) يتزايلون: يتفارقون وينفصل بعضهم عن بعض.
(٧) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥١.

٢ - تقع في الحياة العامة أحداث، أو يواجه المجتمع حالات معينة، تسبب هـذه أو تلك التباساً في طريقة التّعامل مع بعض المفاهيم الرسالية ومفاهيم المعتقـد علـى ضوء الواقع الّذي حصل (مثلاً: التّغيرات الّتي نشأت نتيجة لتوسع حركة الفتح في

إيران والمستعمـرات البيزنطيـة... والإحتكـاك بالحضـارتين الإيرانيـة، والرومانية - الشّرقية .. - أو الحيرة الّتي نشأت نتيجة لمقتل الخليفة عثمان بـن عفان)... في هذه الحالات قد تتخذ النّخبة أو القيادة السياسية للمجتمـع قـرارات مرتجلة، وتخضع لآلية الفعل ورد الفعل، بعيداً عن التروي (مثلاً: كالّذي حدث عند مطالبة الإمام علي بعد البيعة فوراً بأن يقبض على المتهمين بقتل عثمان ويعاقبهم، فقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوماً ممن أجلب١ على عثمان ؟ فقد أجابهم الإمام جواب رجل الدولة المسؤول النّاظر إلى عواقب الأمور، البعيد عن الإنفعال: «يا إخوتاه! إني لستُ أجهلُ ما تعلمون، ولكِن كيف لي بِقُوةٍ والقوم المجلبون على حد شوكتِهم٢ يملِكُوننا ولا نملِكُهم! وها هم هؤُلاء قد ثارت معهم عبدانُكُم، والتفـت إليهم أعرابكُم٣ وهم خِلالَكم٤ يسومونكُم ما شاؤوا٥ وهل ترون موضِعاً لِقُدرةٍ على شيءٍ تُريدونه! إن هذا الأمر أمر جاهليةٍ، وإن لهؤُلاء القومِ مادةً٦. إن الناس مـن هذا الأمر إذا حرك على أُمورٍ: فِرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى مـا لا تـرون، وفِرقة لا ترى هذا ولا ذاك. فاصبِروا حتى يهدأ الناس، وتقع القُلُـوب مواقِعهـا٧ وتُؤخذَ الحقُوقُ مسمحةً٨.

«فاهدأُوا عنّي، وانظُروا ماذا يأتيكُم بِهِ أمري، ولا تفعلُوا فعلَـةً تُضعضِـع قُـوةً، وتُسقِطُ منةً٩،

وتُورثُ وهناً وذِلّةً. وسأُمسِك الأمر ما استمسك، وإذا لم أجِد بدا فآخِر الدواءِ الكي» .١٠

---

(١) أجلب عنه: أعان عليه.
(٢) على حد شوكتهم: الشّوكة الشّدّة، أي لم يضعف هيجانهم.
(٣) التفّت... انضمّت إليهم واختلطت بهم.
(٤) وهم خلالكم... أي بينكم.
(٥) يسومونكم.. يكلفونكم بما يريدون من الأفعال والمواقف.
(٦) مادّة: مدداً وأنصاراً.
(٧) تقع القلوب مواقعها: تهدأ وتستقر بعد اضطرابها بسبب هيجان الفتنة.
(٨) مسمحة: أي سهلة ميسّرة وهذا حين تهدأ العواطف، ويثوب النّاس إلى المنطق والقانون.
(٩) المنّة: القوّة والقدرة، ينهاهم عن الأعمال المرتجلة المتسرّعة الّتي تسبّب انشقاقاً وتمزّقاً في المجتمع يضعفه ويوهن قوته.
(١٠) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٦٨.

وهكذا نرى الإمام يطلب إلى هؤلاء المتعجلين أن يلزموا جانب التّروي، وأن يتركوا له اتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وألا يخضعوا لمنطق الفعل ورد الفعل لأن هذا يؤدي إلى التباس في المفاهيم، وتخبط في المواقف، وأخطاء في القرارات تجعل المناخ العام أكثر ملاءمة لروح الفتنة. وقد أشار الإمام إلى ذلك بقوله: «وتثبتوا في قتام العشوة...».

٣ - حين يتهيأ المناخ الملائم نتيجة للعاملين الآنفي الذّكر تبدأ الفتنة بظواهر انحرافية بسيطة وهينة، يقابلها المجتمع بوجه عام، ونخبته السياسية والفكرية بوجه خاص، بالتّسامح واللامبالاة، وهذا ما يوفّر لهذه الظّواهر الإنحرافية مناخ الأمان وفرص الإتساع والنّمو. وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: «تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية».

٤ - وعلى خلاف وضع الفتنة حين تبدأ خفية حية، تلوذ وراء المبررات وتغطي نفسها بشعارات خادعة، فإنّها حين تنمو وتتسع «وتؤول إلى فظاعة جلية» يكون لها عنفوان وتسلّط وبطش، وتبدأ بطبع آثارها العميقة في بنية المجتمع، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: «شِبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السلام».

٥ - بعد انتشار الفتنة، واتساع المساحات الّتي تستوعبها من فئات المجتمع، تكون قناعات تجعلها أشد رسوخاً في الذّهنية العامة، وتغدو ثقافة شائعة ترتكز إليها السلطة الّتي تقود حركة الفتنة، وتوجه المجتمع وفقاً لقوانينها، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: «يتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم...».

٦ - ولكن الوضع السياسي لقادة الفتنة - بعد انتشارها، وتأصلها في بنية المجتمع - لا يبقى موحداً ومتلاحماً، وإنّما تبرز التّناقضات والسمات الشّخصية لكلّ فئة، والمطامع والمخاوف الخاصة بكلّ جماعة. وحينئذٍ تنقسم قيادة الفتنة إلى فئات متخاصمة متناحرة، وتجر المجتمع وراءها إلى التّخاصم والتّناحر والحروب الأهلية، وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله: «... وعن قليل يتبرأ التّابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللّقاء».

*

١٧٢

وهذا نص يصرح فيه الإمام لأصحابه بما ينتظرهم من الفتنة وويلاتها من بعـده، محملاً إياهم مسؤولية نشوء الفتنة وانتشارها وما يترتّب على ذلك مـن شـرور، لأنّهم كانوا سلبيين أمام مظاهر تسرب روح الفتنة إلى مجتمعهم السياسي وبنيتهـم الثّقافية، وهذا ما وفّر للفتنة أجواء النّمو والإنتشار، وكـانوا متخـاذلين، مهملين لواجبهم، لم يتحملوا مسؤوليتهم في نصرة قضيتهم، وحمايـة نظـامهم الشّرعـي العادل:

«أيها الناس، لو لم تتخاذلُوا عن نصرِ الحق، ولم تهنُوا عن توهين الباطِل، لم يطمع فيكُم من ليس مِثلكُم، ولم يقو من قوي عليكُم. لكِنكُم تهتُـم متـاه بـني إسـرائيلَ، ولعمري ليضعفن لكُم التيه مِن بعدي أضعافاً، بِما خلفتُم الحـق وراء ظُهـوركُم، وقطعتُم الأدنى ووصلتُم الأبعد...»١.

ج - ما موقف المسلم من الفتنة حين تبدأ ؟

ما موقف المسلم من الفتنة حين يذّر قرنها ؟

في الفتنة - كما رأينا - يختلط الحق بالباطل، ويلتبس الصواب بالخطأ، فلا يتميز أحدهما من الآخر.

وفي هذه الحالة يكون الموقف الأسلم والأوفق بالشرع هو الإبتعـاد عـن الفتنـة والإمتناع عن المشاركة مع هذا الطرف أو ذاك، إذ لا يأمن المشارك من أن يقـع في الباطل وهو يرى أنّه ينصر الحق، أو يحارب الحق وهو يرى أنّـه يحـارب الباطل.

وهذا هو الموقف الّذي نصح الإمام بالتزامه حين تقع الفتنة، ويلتبس فيهـا الحـقّ بالباطل، فقد قال:

««كُن في الفِتنَة كابن اللبون. لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب»٢.

---

(١) نهج البلاغة - الخطبة رقم: ١٦٦. ويومئ في الجملة الأخيرة إلى أنّهم اتصّلوا بمعاوية وتخلّوا عن الحاكم الشّرعي.
(٢) نهج البلاغة - باب الحكم - رقم ١. وابن اللّبون هو ابن النّاقة إذا كمل له سنتان. وهو في هذه الحالة لا ينفع للرّكوب لأنّـه لا

يقوى علي حمل الأثقال، وليس له ضرع ليحلب، كنّى الإمام بذلك عن أنّ الإنسان الواعي في الفتنة يقف على الحياد فلا يكون ذا نفع لأيّ طرف من أطرافها.

ولكن هذا الموقف يكون صواباً حين لا يكون الإمام العـادل موجـوداً، ولا يتـاح للمسلم أن يتبين الحقّ من الباطل في الأحداث والمواقف الّتي تجري أمامـه، أمـا حين يكون الإمام العادل موجوداً، ويتّخذ من الفتنة موقفاً، فـإن علـى المسلـم أن ينسجم في مواقفه مع مواقف الإمام العادل، وليس له أن يبقى على السلبية متذرعاً بأنّه يخشى الوقوع في الباطل، وإنّما يكون موقفه هذا، في هذه الحالة، جبناً وخذلاناً للحقّ، بل إنّه يكون، من بعض الوجوه، خيانة ومساهمة في الفتنة، لأنّـه بسلبيتـه غير المبررة قد يضلّل آخرين يجدون في سلبيته تبريراً لمواقفهم.

وقد واجه الإمام أثناء فترة حكمه العاصفة مثل هذه المواقف الجبانة السلبية الخائنة من قبل بعض القيادات في مجتمعه تجاه الفتنة الّتي أثارتها قوى الثّورة المضـادة، فقال مرة يخاطب النّاس:

«أيها الناس، ألقُوا هذِهِ الأزمة١ الّتِي تحمِلُ ظُهورهـا الأثقـالَ مِـن أيـدِيكُم، ولا تصدعوا٢ على سلطانِكُم، فتذُموا غِب فِعالِكُم٣ ولا تقتحِموا ما استقبلتُم مِن فور نار الفِتنةِ٤، وأميطُوا عن سننِها٥ وخلوا قصد السبِيل لها٦، فقد لعمري يهلِك في لهبها المؤمِن، ويسلم فيها غير المسلِمِ.

«إنما مثَلِي بينكُم كمثل السراجِ في الظلمةِ، يستضِيء بهِ من ولجها...»٧.

فالإمام هنا ينهى جمهوره عن المشاركة في الفتنة ولكنّه لا يقرهم علـى الموقـف السلبي منها، وإنّما يأمرهم بالتّصدي لها.

إن المشاركة فيها تعني التآمر معها، والسلبية أمامها تعني عدم التّصدي لها،

---

(١) الأزمّة، جمع زمام، كنّى عن قضايا الفتنة بالنياق الّتي يمسك أصحابها بأزمّتها، وهـي تحمـل علـى ظهورهـا الأثقـال. يقـول لهم: اتركوا قفا الفتنةِ ولا تخوضُوا فِيها لِتخلصُوا مِن آثارها.
(٢) لا تصدّعوا: لا تتفرقوا عن الحاكم الشّرعي.
(٣) غِبَ فعالكم: عواقبها.
(٤) فور النّار: تعاظمها وارتفاع لهبها.
(٥) أماط: نحّى وأزال. والسّنن: الطّريق. يعني تنحّوا عن طريق الفتنة وابتعدوا.
(٦) قصد السّبيل: الطّريق. أي اتركوا الفتنة تسير في طريقها ولا تشتركوا فيها .
(٧) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٨٧.

وكلاهما خطأ. الموقف السليم هو مواجهتها مع الإمام الحاكم العادل، لأن الحقّ - بوجوده - بين ظاهر، فهو الهادي، وهو الدليل الّذي لا يضلّل، وهو «السراج في الظّلمة»، ظلمة الفتنة، وكلّ ظلمة.

وقد حدث أن بعض المسلمين في بدايات خلافة أمير المؤمنين علي التبس عليهم الأمر في الفتنة الّتي أثارها خروج طلحة والزبير، وعصيان معاوية نتيجة لموقف أبي موسى الأشعري الّذي قال للنّاس في الكوفة حين دعوا إلى قمع عصيان طلحة والزبير: إن الموقف موقف فتنة، وأن الموقف السليم منها هو الإمتناع عن المشاركة فيها.

وقد أوضح الإمام إذ ذاك أن الموقف من الفتنة الّتي يلتبس فيها الحقّ بالباطل هو هذا، ولكن الأمر يختلف حين يتّضح جانب الحقّ بوجود الإمام العادل أو بأية وسيلة أخرى، فإن السلبية في هذه الحالة تكون خيانة.

ومن هنا فقد سمى الإمام خروج طلحة والزبير فتنة، ودعا الناس إلى مواجهتها وقمعها، لأن وجه الحقّ فيها بين، فقد كتب إلى أهل الكوفة عند مسيره إلى البصرة:

«...واعلموا أن دار الهجرة[١] قد قلعت بِأهلِها وقلعوا بِها[٢]، وجاشت جيش المِرجل[٣]، وقامتِ الفِتنةُ على القُطبِ[٤]، فأسرِعوا إلى أميرِكُم، وبادِروا جِهاد عدوكُم»[٥].

د - موقف الإمام علي من فتنة عصره

ما دور الإمام علي، وما موقفه من الفتنة الّتي عصفت بالمجتمع الإسلامي في عهده ؟.

نظرة إلى التاريخ السياسي والفكري للإسلام تكشف بوضوح عن أن الإمام عليّاً كان المنقذ الأكبر للإسلام من التّشوه والمسخ بالفتنة الّتي عصفت رياحها المجنونة

---

(١) دار الهجرة: هي المدينة المنوّرة.
(٢) قلع المكان بأهله: نبذهم وطردهم. وقلع فلان بمكانه: نبذه وابتعد عنه.
(٣) جاشت: اضطربت، والمرجل: القدر: يعني أنّ دار الهجرة قد اضطربت بأهلها بسبب الفتنة الّتي نشبت فيها وانطلقت منها.
(٤) قامت الفتنة على القطب: وجدت من يوجّهها ويرعاها ويغذيها بالأفكار والقوى، فاشتدت وعظم خطرها.

بالمسلمين منذ النّصف الثاني من خلافة عثمان.

ولولا توجيه علي الفكري، ومواقفه السياسية، ومواجهته العسكرية للفتنة في شـتّى مظاهرها الفكرية والسياسية والعسكرية لتشوه الإسلام، وانمسخ، وتقلّـص. ولكـن الإمام علياً، بموقفه الواضح الصريح الرافض لأية مساومة، كان المنقذ الّذي كشف الفتنة ودعاتها، ووضع المسلمين جميعاً أمام الخيار الكبير: مع الفتنة أو ضدها ؟.

ولا يهم بعد ذلك أن الفتنة حازت إلى جانبها جمهوراً كبيراً من النّاس، المهم أنّهـا افتضحت، وبافتضاحها سلم الإسلام من التّشوه ومن خطر التّزوير، وكـان علـى الّذين انحرفوا أن يجدوا لأنفسهم مبررات.

وقد كان توقع نشوء الفتنة، والخوف منها ومن أفاعليها وعواقبها، هاجساً عاماً عند المسلمين. يكشف عن ذلك السؤال عنها، وعن الموقف الصـواب منهـا، وكـثرة حديث الإمام عن أخطارها وملابساتها.

وقد كان الإمام علي بروحانيته العالية السامية، وإسلاميته الصلبة الصافية، وروحه الرسالية الّتي تفوق بها على جميع معاصريه، وحكمته وشجاعته، وسـيرة حياتـه الناصعة الّتي ابتدأت بالإسلام... كان هو الرجل الوحيد المرصود لمواجهة الفتنة، وإنقاذ الإسلام منها.

لقد أعلمه رسول اللّه (ص) بذلك، وأدرك هو دوره من خـلال رصـده لحركـة المجتمع التّاريخية.

وهذا نص عظيم الأهمية يكشف لنا عن الدور المرصود للإمام علي في مواجهـة الفتنة، يتضمن الرؤية النّبوية لمستقبل الحركة التّاريخية من جهة، والرؤية النّبويـة لدور الإمام علي في هذه الحركة.

وقد أورد الشّريف الرضي هذا النّص، كما أورده ابن أبي الحديد في شـرحه (٩ / ١٠٥ - ١٠٧) برواية الشّريف وبرواية أخرى أكثر بسطـاً. ويبـدو أن الروايـة الأخرى تقريرية حدث بها الإمام، ورواية الشّريف خطابية، جاءت جواباً منه على سؤال، فقد قام إليه رجل - وهو يخطب - فقال: يا أمير المؤمنين: أخبرنـا عـن الفتنة، وهل

سألت رسول اللّه (ص) عنها ؟ فقال عليه السلام:

«إنه لما أنزلَ اللّه سبحانه قولَه (الم. أحسِب الناس أن يتركُوا أن يقُولوا آمنّا وهم لا يفتنُون)١ عِلمتُ أن الفِتنة لا تنزلُ بِنا ورسولُ اللّه (ص) بين أظهرِنا. فقُلـتُ: يـا رسول اللّهِ ما هذِهِ الفِتنةُ التِي أخبرك اللّه تعالى بِها ؟ فقال: (يا عِلِـي، إن أُمتـي سيفتنُون من بعدِي)، فقُلتُ: يا رسولَ اللّه، أو لَيس قد قلتَ لي يـوم أُحـدٍ حيـثُ استُشهد من استُشهد من المسلِمين، وحيزت٢ غني الشهادةُ، فشق ذلك علي، فقُلـتَ لي: (أبشِر، فإن الشهادةَ مِن ورائك) فقال لِي: (إن ذِلك لكذِلك، فكيف صـبرك إذن ؟) فقُلتُ: يا رسول اللّه: ليس هذا مِن مواطِن الصبر، ولكِن مِن مواطِن البشـرى والشكر. وقال: (يا علي، إن القوم سيفتنُون بِأموالِهم، ويمنون بدينِهم على ربهـم، ويتمنون رحمته، ويأمنُون سطوته، ويستحِلون حرامه بِالشبهاتِ الكاذِبةِ، والأهـواءِ الساهِيةِ، فيستحِلون الخمر بالنبيذِ، والسحتَ بالهدِيةِ، والربا بالبيعِ) قُلتُ: يا رسـول اللّه: فبأي المنازِل أُنزِلُهم عند ذِلك ؟ أبمنزلةِ ردةٍ أم بمنزلةِ فِتنةٍ ؟ فقالَ: (بِمنزلـة فِتنةٍ)»٣.

وإذن، فقد كان الإمام مرصوداً لمواجهة الفتنة وفضحها.

لقد كان منقذ الإسلام بعد رسول اللّه (ص) مـن التّزييـف والتّحريـف، فحقّـق بمواجهته للفتنة صيغة الإسلام الصافي، في المعتقد والفكـر والتّشريـع والعمـل، وغدت الفتنة أزمة في داخل الإسلام، ولم تفلح في أن تكون هي الإسلام.

وقد عبر الإمام في أكثر من مقام عن دوره العظيم الفريد في التاريخ، مـن حيـث كونه القيادي الوحيد الّذي استطاع أن يواجه الفتنة ويفضحها، فقال مما قال:

«... فإني فقأتُ عين الفِتنةِ٤، ولم يكُن ليجترئ عليها أحد غيري، بعـد أن مـاج غيهبها٥ واشتد كلبها٦.

---

(١) سورة العنكبوت (مكّية - ٢٩) الآية: ١ و ٢.
(٢) جاز عنه الشّيء: أبعده عنه.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥٦.
(٤) فقأت عين الفتنة: تغلّبت عليها.

(٥) الغيهب: الظّلمة. يعني أنّي واجهتها في عنفوانها وقوتها.
(٦) الكلب: داء معروف يصيب الكلاب. يعني أنّه واجهها وهي في هذه الحالة عن الأذى والشّرّ الشّديدَين. والخطبة في نهج البلاغة، رقم: ٩٣.

١٧٧

لقد حدثت داخل الإسلام فتن كثيرة، ولكن أعظم هذه الفتن خطورة وأشدها تخريباً فتنة بني أمية الّتي عصفت رياحها السوداء الشّريرة المجتمع الإسلامي منذ النّصف الثّاني من عهد عثمان، وتعاظمت خطورتها بعد مقتله. واستغرقت مواجهتها الفكرية والسياسية والعسكرية معظم جهود أمير المؤمنين علي في السنين الأخيرة من حياته.

وقد كان الإمام يغتنم كل فرصة سانحة ليحدث مجتمعه عن هذه الفتنة، ويبين له أخطارها الآنية والمستقبلية من أجل إيجاد المناعة النّفسية منها، والوعي العقلي لأخطارها، والعزم العملي على مواجهتها وقمعها، والتّصميم على رفضها حتّى بعد انتصارها.

قال عليه السلام،

«إن الفِتن إذا أقبلت شبهت١، وإذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبِلاتٍ، ويعرفن مدبِراتٍ، يحمن حوم الرياح، يصِبن بلداً، ويخطِئن بلداً. ألا وإن أخوف الفِتن عندي عليكُم فِتنةُ بني أُمية، فإنها فتنة عمياء مظلِمة، عمت خُطتُها٢ وخصت بليتُها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمِي عنها»٣.

فهي فتنة عمت بليتها لأن روادها الحكام أنفسهم، ومن ثم فشرورها السياسية والفكرية تشمل المجتمع كلّه.

وهي فتنة خصت بليتها لأن أعنف ضرباتها ستوجه إلى الصفوة المؤمنة الواعية الّتي بقيت سليمة من داء الفتنة، ووضعت نفسها في مواقع كفاح الفتنة الغالبة.

والمسؤولية في هذه الفتنة ملقاة على المبصرين فيها، الّذين يعرفونها ويعرفون وجه الحقّ ويجبنون عن مواجهتها، أو يتواطؤون، ضد الحق، معها.

أما من عمي عنها، وجهل أبعادها وأخطارها فهو معذور بجهله.

---

(١) شبّهت: اشتبه فيها الحقّ بالباطل، وإذا أدبرت وخلص النّاس منها تميّز حقّها من باطلها.

(٢) عمّت خطتها: يعني أنَّها فتنة غالبة تصيب ببلائها أهل الحقّ.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة رقم: ٩٣.

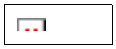

٣ ـ إنتصار حركة الرّدّة

لا نعني بالردة هنا الردة الدينية عن الإسلام، فقد سبق أن رأينا التّوجيه النّبوي لعلي حين سأل رسول اللّه (ص): فبأي المنازل أُنزلهم عند ذلك ؟ أبمنزلـة ردة أم بمنزلة فتنة ؟ فقال (ص) بمنزلة (فتنة).

وإنّما نعني الردة السياسية والفكرية. فإن الفتنة حين انتصرت سياسياً بعد استشهاد أمير المؤمنين علي راحت تمكّن لنفسها بفرض قيمها الفكرية والإجتماعيـة فـي الثّقافة العامة، وتطبع العلاقات في داخل المجتمع بطابعها.

*

لقد كان الإمام يرى ببصيرته النّافذة أن الفتنة ستنتصر، وكانت هذه الرؤية إحـدى مسببات ألمه العميق.

وكان يرى أن الفتنة لا تقاوم إلا بالكفاح، أما السكوت عنهـا ومهادنتهـا فيتيحـان الفرصة أمامها لكي تنتصر.

وكان يؤرقه أن مجتمعه، لأسباب شتّى، آثر أن يواجه الفتنة بالسكوت عنها، أو - بعبارة أخرى - آثر ألا يواجه الفتنة الآتية.

وكان يقارن بين أصحابه وبين أصحاب رسول اللّه (ص)، فـيريهم أن التّوجيـه الثّقافي واحد، وأن القيادة واحدة، ولكنّه يرى أن درجة الإخلاص متفاوتة:

«... واللّه ما اسمعكُم الرسولُ شيئاً إلا وها أنا ذا مسمِعكُموه، وما أسماعكُم اليـوم بِدون أسماعِكُم بالأمس، ولا شُقت لهم الأبصار، ولا جعِلت لهم الأفئدةُ فـي ذلـك الزمان، إلا وقد أُعطيتُم مِثلها في هذا الزمان. وواللّه ما بصرتُم بعدهم شيئاً جهلُوه، ولا أُصفِيتُم بهِ

١٨٠

وحرموه١، ولقد نزلت بِكُم البليةُ جائلاً خِطامها٢، رخواً بطانُها٣ فلا يغُـرنكُم مـا أصبح فيه أهلُ الغُرور، فإنما هو ظِل ممدود إلى أجلٍ معدودٍ»٤.

وقد تكرر منه المقارنة بين حال أصحابه وحال أصحاب رسول اللّه (ص) في عدة

مواقف. وكان يرى في طريقة مواجهة أصحابه للفتنة الآتية نذر انتصار هذه الفتنة من بعده، وقد كشف عن رؤيته هذه لمجتمعه في عدة مواقف، منها قوله:

«...أما والذي نفسي بيدِه، ليظهرن هؤُلاءِ القوم عليكُم، ليس لأنهم أولـى بِـالحق، ولكِن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكُم عن حقي. ولقد أصبحتِ الأُمم تخاف ظُلم رعاتِها، وأصبحتُ أخافُ ظُلم رعيتي، استنفرتُكُم للجِهادِ فلم تنفِروا، وأسمعتُكُم فلم تسمعوا، ودعوتُكُم سِراً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحتُ لكُم فلم تقبلُوا»٥.

ويكشف هذا النّص - كغيره من النّصوص المماثلة له - عن أن انتصار الفتنة لـم يكن في تقدير الإمام عليه السلام وتحليله ناشئاً من قدر غيبي، وإنّما نشأ من توفّر الأسباب الموضوعية على أرض الواقع السياسي والإجتماعي الّذي كانت عواملـه تتفاعل في المجتمع السياسي المواجه للفتنة.

لقد فقد هذا المجتمع فاعليته، وتخلّى عن روح الكفاح في مواجهة الفتنة، وانفصـل عملياً عن قيادته فسقط في السلبية، وآثر الحياة السهلة الخالية من تبعات الرسـالة والجهاد.

ومن ذلك قوله عليه السلام:

---

(١) أُصفيتم.. خصصتم به دون غيركم.
(٢) الخطام ما جعل في أنف البعير ليقاد به، فإذا لم يكن ثمّة قائد تاه البعير ولم يسلك طريق السّلامة، كنى بذلك عن الفتنة الّتي تعيث فساداً في المجتمع.
(٣) البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير ليحفظ استقرار ما عليه من راكب أو حمل فإذا استرخى ادّى ذلك إلى خطر السّقوط. كنّى بذلك عن أخطار الفتنة.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٨٩.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٧.

«... ثُم يأتي بعد ذلِك طالِع الفِتنةِ الرجوفِ١، والقاصِمةِ الزحوفِ٢، فتزيغُ قُلُـوب بعد استِقامةٍ، وتضِل رِجال بعد سلامةٍ، وتختلِفُ الأهواءِ عند هجومِهـا، وتلتبـس الآراء عِند نُجومِها٣ من أشرف لها قصمته٤ ومن سعى فيها حطمته، يتكـادمون فيها تكادم الحمر في العانةِ٥ قد اضطرب فيها معقُود الحبل، وعمي وجه الأمـر. تغيض فيها الحِكمةُ٦، وتنطِقُ فيها الظلمةُ، وتدق أهل البدو بمسحلِهـا٧ وتربضـهم

بِكلكِلِها٨... فلا تكُونُوا أنصاب الفِتن٩ وأعلام البِدع، والزموا ما عقد عليه حبلُ الجماعةِ، وبنيت عليه أركان الطاعةِ»١٠.

في هذا النّص بين الإمام بعض سمات انتصار الفتنة:

١ - إستيلاء الفتنة على مساحات جديدة في المجتمع: «تضلّ رجال بعد سلامة» وتتعمق الأفكار المنحرفة «تزيغ قلوب بعد استقامة».

٢ - تلفّ المجتمع حيرة شديدة نتيجة للإنتصار غير المتوقع الّذي فرض مفاهيم جديدة لم تكن مألوفة.

٣ - تحطّم الفتنة - في أوج انتصارها - كلّ من يتصدى لها مواجهة.

وفي نص آخر بين الإمام وجوهاً أخرى لانتصار الفتنة:

«... فعِند ذلك أخذ الباطِلُ مآخِذَه، وركب الجهلُ مراكِبه، وعظُمتِ الطاغيةُ، وقلتِ

---

(١) الرّجوف: شديد الرّجفان والإضطراب، تُدخل الإضطراب والقلق على المجتمع.
(٢) القاصمة: الكاسرة، والزّحوف: المتحرّكة الّتي تسعى للإنتشار في المجتمع.
(٣) نجوم الآراء ظهورها يعني أنّ الفتنة تسبّب البلبلة الفكرية في المجتمع، فتمكن للشّعارات الدّخيلة من التّسرب والشّيوع.
(٤) أشرف لها: تعرّض لها، قصمته: كسرته.
(٥) يتكادمون.. ينهش بعضهم بعضاً، والعانة هي الجماعة من الحمر الوحشية، يعني أنّ سلطان القانون، في حالة انتصار الفتنة، يسقط، ويسود سلطان الغريزة.
(٦) تغيض.. تختفي، غاض الماء: غار تحت الأرض.
(٧) دقّ: فتّت وطحن. والمسحل: المبرد أو المطرقة، يعني أنّ شرورها الاجتماعيّة تصل الى أهل البدو - مع بعدهم عن يد السّلطة - فتحطّم علاقاتهم، وتهدّد أمنهم.
(٨) الرّضّ: التّهشيم، والكلكل: الصّدر، يعني أنّها تطبق عليهم، فتشلّ حركتهم وتحطّم مقاومتهم.
(٩) أنصاب: علامات.
(١٠) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٥١.

الداعيةُ، وصال الدهر صيالَ السبع العقُور١، وهدر فنيقُ الباطل بعد كُظومِه٢ وتواخى الناس على الفُجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذِبِ، وتباغضوا على الصدق، فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً٣ والمطر قيظاً٤ وتفيض اللئام فيضاً وتغيض الكِرام غيضاً٥. وكان أهلُ ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينُه سِباعاً، وأوساطُه أكالاً، وفُقراؤه، أمواتاً، وغار الصدقُ، وفاض الكذِب، واستُعمِلتِ المودةُ باللسان، وتشاجر الناس بالقُلُوبِ، وصار الفُسوقُ نسباً، والعفافُ عجباً، ولُبِس الإسلام لبس الفرو مقلُوباً»٦.

في هذا النّص فصل الإمام ملامح الفتنة عندما تنتصر، وتغلب على المجتمع، فتتسلّط على مؤسساته، وتعمق جذورها فيه، وتبسط مفاهيمها وقيمها عليه.

ويمكن تلخيص هذه الملامح في النّقاط التّالية:

١ - تأصل روح الطّغيان في الحكم، ونزعة التّجبر والإستبداد في الحاكمين، وانحسار الروح الرسالية في مؤسسات الحكم.

٢ - فساد العلاقات الإنسانية داخل المجتمع، وتدنّي المستوى الأخلاقي، وشيوع أخلاق المنفعة بين الناس. وما أروع قوله في تصوير جانب من هذه الظّاهرة (واستعملتِ المودة باللّسان، وتشاجر النّاس بالقلوب).

٣ - إنحطاط مؤسسة الأسرة، وشيوع الإباحة الجنسية.

ويلخص ذلك كلّه قوله عليه السلام: (ولُبِس الإسلام لُبس الفرو مقلوباً) وهذا كقوله في نص آخر:

«أيها النّاس، سيأتي عليكُم زمان يكفَأُ فيه الإسلام كما يكفَأُ الإناء بما فيه»٧.

---

(١) صال.. هجم للفتك والإعتداء.
(٢) الفنيق: الفحل من الإبل، والكظوم الصّمت والسّكون - يعني أنّ الباطل بعد أن كان ذليلاً صامتاً، غدا، في الفتنة، عالي الصوت هادراً.
(٣) بسبب الفتنة تفسد أخلاق الأجيال الشّابة فيكونون سبباً لغيظ أهلهم.
(٤) القيظ: شدّة الحر. يعني أنّ الأمور والسّياسات تقع في غير مواقعها فلا تفيد بل تضرّ.
(٥) غاض الماء في الأرض: اختفى وغار فيها. يعني يندر في الفتنة حين تغلب وجود ذوي الأخلاق الكريمة في مراتبهم الإجتماعية لأنّهم يخفون أنفسهم ويبتعدون عن الأضواء.
(٦) نهج البلاغة - الخطبة رقم: ١٠٨.
(٧) نهج البلاغة - الخطبة رقم: ١٠٣.

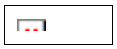

٤ ـ المعاناة

تنتصر الفتنة، فتأتي بحكم غير عادل، لا يرى في الأمة إلا موضوعاً لتسلّطه ومصدراً للمال.

وهي غير أخلاقية، لأن قادتها يتبعون في سياسة الناس منطق الغريزة، لا منطـق القانون والعدالة. ومن هنا وهناك فلا بد أن يكون لها ضحايا كثيرة.

ومن ضحاياها خصومها السياسيون الذين حاربوها في الماضـي، وغلبـوا علـى أمرهم في النّهاية.

ومن ضحاياها خلفاؤها الّذين ساندوها في أيام ضعفها، واستغنت عنهم فـي أيـام قوتها.

ومن ضحاياها الغافلون عن شرورها وأخطارها، الّذين كانوا محايدين في المعركة الدائرة بينها وبين أهل الحقّ، ثم دهشوا عند انتصارهـا، فـاحتجوا أو أظهـروا معارضتهم لها. وأكبر ضحاياها الأمة كلّها حين تحولها الفتنـة المنتصـرة إلـى موضوع للتّسلط، ومصدر لصنع الثّروات، وتوفير أسباب التّرف واللّهو لنخبتهـا، وجهازها القمعي، وحلفائها.

وهكذا تبدأ معاناة الأمة من الفتنة، من ظلمها وتسلطها، من عدوانها الّذي ينتشـر كالوباء فيصيب كلّ فئة من المجتمع المغلوب على أمره بشتّى ألوانـه: العـدوان الأخلاقي، والعدوان السياسي، والعدوان الإقتصادي.

وقد صور الإمام علي وجوهاً من معاناة الأمة وعذاباتها بعد انتصار الفتنـة فـي لوحات معبرة تكاد تنطق بالحركة الحية.

١٨٤

من ذلك قوله عليه السلام:

«... وايم اللّه لتجِدن بني أُميةَ لَكُم ارباب سوءٍ بعدِي، كالناب الضروس(١) تعـذِم بفيها(٢)، وتخبطُ بيدِها، وتزبن بِرجلها(٣) وتمنع درها»(٤).

« لا يزالون بِكُم حتى لا يتركُوا مِنكُم إلا نافعاً لَهم، أو غير ضائر بِهم. ولا يـزال

بلاؤُهم عنكُم حتى لا يكُون انتِصار أَحدِكُم مِنهم إلا كانتِصار العبدِ من ربـه والصاحبِ من مستَصحِبِهِ. تَرِد عليكُم فتنتهم شَوهاء مخشيةً، وقطعاً جاهلية، لَيـس فيها منَار هدى ولا علَم يرى»(٦).

وهكذا يعاني النّاس من الفتنة بعد انتصارها ألواناً من الشّر:

١ - حكم الطّغيان الّذي يقضي على كلّ معارضة له بالرأي والمـذهب، وهـو لا يقضي عليه بهوادة ولين، وإنّما بالعنف والقسوة.

٢ - والإذلال الّذي يمحق كرامة الإنسان ويشوه روحه، فيحوله إلى عبد لا يجرؤ على رفع صوته والتّعبير عن رأيه، وإنّما يخضع بالطّاعة العمياء الصماء الّتي لا خيار فيها ولا تنبثق من قناعة وإنّما يفرضها الخوف من العذاب.

*

ومن ذلك قوله عليه السلام:

«واللّه لا يزالُون حتى لا يدعوا لِله محرماً إلا استَحلّوه، ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ(٧) إلا دخله ظُلمهم ونبا بِهِ سوء رعيهم(٨)، وحتى يقُوم الباكيان، يبكيان: باكٍ يبكِي لدينِهِ وباكٍ يبكي لدنياه، وحتى تكُون نُصرةُ أحدِكُم مِـن أحدِهم كنُصرةِ العبدِ

---

(١) النّاب: النّاقة المسنة، والضّروس: النّاقة السّيّئة الخلق.
(٢) عذم الفرس: إذا أكل بجفاء، أو عضّ.
(٣) تزين: تضرب برجلها من يقترب منها.
(٤) الدّرّ: اللّبن. يعني أنّها غير ذات فائدة مع كونها مصدراً للتّخريب والأضرار. فالفتنة شرّ كلّها، ولا خير فيها.
(٥) شوهاء: قبيحة المنظر، ومخشية: مخوفة مرعبة.
(٦) العلم: الدّليل الهادي في متاهات الصّحراء. نهج البلاغة، رقم: ٩٣.
(٧) بيت المدر: ما بُني بالحجارة، وبيت الوبر: الخيمة. يعني أنّ شرّ الفتنة لا يقتصر على سكّان المدن وإنّما يشمل الرّيف والبدو.
(٨) نبا به سوء رعيهم: شرّد النّاس، وأقلق حياتهم من (نبا به المنزل): إذا لم توافقه.

مِن سيدِهِ، إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه، وحتى يكُـون أعظمكُـم فيهـا عنـاء أحسنُكُم بِاللّه ظنّاً، فإن أتاكُم اللّه بعافيةٍ فاقبلُوا، وإن ابتُليتُم فاصبِروا، فإن العاقِبـةَ للمتقين»(١).

في هذا النّص يكشف الإمام عن وجوه أخرى من المعاناة والعذاب:

١ - سقوط حرمة القانون عند الطّغمة الحاكمة الّتي يفترض فيها، وهي تحكم باسم الدين، أن تحافظ عليه من حيث التّطبيق.

٢ - انتشار الظّلم، وعدم اقتصاره على الحواضر والمـدن، بـل يشمـل جميـع مستويات الأمة فيعاني منه سكّان المدن وبدو الصحراء.

٣ - الإذلال، وهدر كرامة الإنسان الّذي يتحول، لطول ما يعاني من الإذلال، إلى ما يشبه أخلاق الرقيق.

إن هذا الواقع يجعل المعاناة شاملة في قضايا الدين وقضايا الدنيا، ويكـون أشـد النّاس بلاء ومعاناة أكثرهم وعياً، وأصلبهم عوداً فـي مواجهـة إغـراء الفتنـة وإرهابها.

ولكن الإمام يوصي هذه الفئة المستنيرة الّتي لم تستهلكها الفتنة بالصبر، لأن الفتنة في هذه المرحلة لا تقاوم، وكل جهد يبذل في مقاومتها جهد ضائع مهـدور يزيـد الشرعية ضعفاً ووحدة وعزلة دون أن يؤثّر على الفتنة، وهي في أوج انتصارهـا شيئاً.

*

ومن ذلك قوله عليه السلام:

«رايةُ ضلالٍ قد قامت على قُطبِها(٢) وتفرقت بِشُعبِها(٣) تكيلُكُـم بِصاعِهـا(٤)، وتخبطُكُم بباعِها(٥)، قائدها خارج مِن الملةِ، قائم على الضلةِ، فلا يبقى يومئذٍ مِنكُم إلا ثُفالة كثُفالةِ القدر(٦) أو

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٨.
(٢) استحكم أمرها كالرّحى حين تستقرّ على قطبها.
(٣) الشّعب: الفروع. يعني أنّ الفتنة تغلغلت في جميع ثنايا المجتمع.
(٤) تشمل النّاس بشرّها دون تمييز كما يكال الحب بالصّاع.
(٥) تضرب بذراعها جميع الأمّة فلا يمتنع منها أحد، مأخوذ من (خبط الشّجرة) ضربها بالعصا ليسقط ثمرها أو يتناثر ورقها.
(٦) الثّفل: نفاية الشّيء، وما لا خير فيه منه، وثفالة القدر ما يبقى فيه من هذا القبيل.

نُفاضة كنُفاضةِ العِكمِ(١) تعرككُم عرك الأديم(٢)، وتدوسـكُم دوس الحصِيـدِ(٣)

وتستخِلص المؤمِن من بينكُم استخلاص الطير الحبةَ البطينةَ(٤) من بين هزيل الحب»(٥).

في هذا النّص يتابع الإمام الكشف عن وجوه المعاناة:

سيادة حكم الطّغيان بسبب أن الشريعة مهملة من حيث التّطبيق لأن الرايـة رايـة ضلال، ولذا فإن هذا الحكم يتصرف بوحي الغريزة لا على ضوء القانون، ونتيجة ذلك أن الحكم يدوس الأمة ويسحقها، ويذهب بكلّ صلابة وعنفوان فيها ليحولها إلى كيان مطواع لا إرادة له ولا اختيار، كالجلد الّذي سحق وعرك حتى لان ففقد كـلّ صلابة، وكالحصيد الّذي ديس حتّى تفتت.

ولكن الفتنة، مع ذلك، لا تفلح في القضاء على كلّ شيء، فـرغم الظّلـم المـادي والمعنوي، والتّشويه الثّقافي تبقى نخبة النخبة محافظة على ذاتها، إنّها تكون قليلـة العدد حقّاً، ولكنّها أصيلة، صافية، منيعة علـى الطّغيـان، والتّشويـه والإغـراء والإرهاب.

*

ومن ذلك قوله عليه السلام:

«تغِيض فيها الحِكمة(٦)، وتنطِقُ فيها الظلمةُ، وتـدق أهـل البـدو بمسحِلِهـا(٧) وترضهم بكلكِلِها(٨) يضِيع في غبارها الوحدان(٩)، ويهلك في طريقِها الركبـان، ترد بِمر القضاءِ، وتحلُب عبيط

---

(١) النّفاضة ما يسقط من الثّوب أو البساط بالنّفض، والعكم: العدل الّذي يجعل على الدّابة ويحمل فيه المتاع.
(٢) العرك: الدّلك الشّديد، والأديم: الجلد.
(٣) الحصيد: الغلات المحصودة.
(٤) البطينة: السّمينة.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٠٨.
(٦) تغيض: تختفي، يعني أنّ الحكمة في الفتنة تختفي في النّاس فلا يتعاملون بما تقضي به من عدالة وأخلاق.
(٧) المِسحل: المبرد أو المطرقة.
(٨) الرّض: التّهشيم. والكلكل: الصّدر.
(٩) الوحدان: جمع واحد، يعني المنفردون.

الدماءِ(١) وتثِلم منار الدين(٢) وتنقُض عقد اليقيـن. يهـرب منهـا الأكيـاس(٣)

ويدبرها الأرجاس(٤) مرعاد مبراق كاشِفة عن ساقٍ، تقطع فيهـا الأرحـام، ويفارقُ عليها الإسلام، بريها سقيم، وظاعِنُها مقِيم... بين قتيلٍ مطلُولٍ(٥)، وخائفٍ مستجيرٍ، يختلُون بعقدِ الأيمان(٦)...»(٧).

يبرز الإمام في هذا الفصل - كما في النّص الثّاني من هذا الفصل - شمول الظلم لأهل البدو، وهذا يعني - بملاحظة التّركيب الإجتماعي، والوضع الثّقافي للمجتمع الإسلامي في ذلك الحين - أقصى درجات الشّمول للظّلم والطّغيان، فأهل البدو - بسبب طريقة حياتهم - بعيدون عن متناول السلطة وأجهزتها ومن ثم فهم يتمتعون بفرص أكثر من أهل المدن للنجاة من كثير من شرور الطّغيان السياسي. ولكن هذه الفتنة المنتصرة يبلغ من قوتها وعنفها أن هؤلاء البدو - أهل الوبر - لا يسلمـون منها، بل تسومهم سوء العذاب.

كما أبرز الإمام في هذا النّص الوجوه الأخرى للمعاناة: الإذلال، وسياسة القمـع، وتجاوز الشّريعة والقانون، وانحطاط العلاقات الإنسانية.

*

وقال عليه السلام:

«... فعِند ذلك لا يبقى بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلا وأدخله الظلمةُ ترحةً(٨)، وأولجوا فيهِ نقمةً، فيومئذٍ لا يبقى لهم في السماء عاذِر، ولا في الأرض ناصِر. أصفيتُم بالأمر غير أهله(٩) وأوردتُموه غير موردِهِ، وسينتقِم اللّه مِمن ظلم، مأكلاً بمأكلٍ، ومشرباً بمشربٍ، من مطاعِمِ العلقمِ،

---

(١) عبيط الدّماء: الطّريّ منها.
(٢) الثّلم: الكسر، يعني أنّها تنتهك الدّين وتقلص نفوذهُ وولايته بترك العمل به وظلم أهله والدّاعين اليه.
(٣) الكيس: الحاذق العاقل.
(٤) الأرجاس: الأشرار.
(٥) قتيل مطلول: مهدور الدّم، لا دية ولا قصاص.
(٦) الختل: الخداع، يعني يخدعون النّاس بحلف الأيمان وإظهار شعار الإسلام.
(٧) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥١.
(٨) ترحمة: حزن وألم.
(٩) أصفيت فلاناً كذا: أعطيته إيّاه خالصاً، يعني أعطيتم السّلطة السّياسيّة في الإسلام إلى غير أهلها.

ومشارب الصبِر والمقر(١)، ولباسِ شِعار الخوف ودثار السيفِ(٢)، وإنما هم مطايا الخطِيئاتِ وزوامِلُ الآثام(٣)»(٤).

في هذا النّص بين الإمام أيضاً طابع الشّمول لهذه الفتنة. وذكّر جمهور النّاس في كلّ عصر بالسبب الموضوعي الّذي ولّدها، ومكن لها، وهو تجاوز الشّرعية في الحاكم والنظام، والإنسياق وراء المصالح الخاصة، والأنانيات الفردية والقبلية، وعدم تحمل مسؤوليات الصراع ضد الباطل وأهله.

*

ومن ذلك قوله عليه السلام مخاطباً الخوارج، مخبراً لهم بما سيكون عليه حالهم في نظام الفتنة الآتي حيث لا يجدون الإنصاف والعدل، والتّفهم لأوضاعهم وآمالهم الّتي يجدونها في نظام العدل الّذي يقوده الإمام.

«أما إنكُم ستلقُون بعدي ذُلاً شامِلاً، وسيفاً قاطِعاً، وأثرةً(٥) يتخذُها الظالِمون فيكُم سنةً»(٦).

*

تنتصر الفتنة، وتسود مفاهيمها، وتفرض على المجتمع قيمها، وتمضي على ذلك السنون، والفتنة تزداد قوة ومناعة وتسلّطاً، ويمتد سلطانها لينفذ في كلّ زاوية وعلى كلّ صعيد في المجتمع، ويسود الإعتقاد بأن كلّ شيء قد انتهى، وبأن التّاريخ قد استقر على هذه الصيغة إلى النّهاية، وتنشأ على هذا الإعتقاد أجيال بعد أجيال.

ولكن هذا الإعتقاد خاطئ، فحركة التاريخ لا تتوقف عند صيغة بعينها، بل هي دائبة التّقلب والتّغير، وسيكون لانتصار الفتنة واستقرار سلطانها نهاية قد لا تنتهي بها الفتنة، ولكنّها تواجه مقاومة جديدة.

---

(١) الصّبر: عصارة شجر مرّ، والمقر: السّم.
(٢) الشّعار من الملابس ما يكون على الجلد، والدّثار ما يكون على الثّياب.
(٣) الزّاملة النّاقة أو الدّابّة الّتي يحمل عليها المتاع.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥٨.
(٥) الأثرة: الإستبداد بالخيرات دون الآخرين.
(٦) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٥٨.

تنشأ هذه المقاومة من حقّ استعاد بعضاً من حيويته فهو لا يطيق السكوت، فيعبـر عن نفسه بالثّورة، لا لينتصر، فقد يكون انتصار الحق بعيد المنال في هذه المرحلة من التّاريخ، ولكن ليكسر من غلواء الفتنة، ويعطّل جانباً من عملها التّخريبي فـي عقيدة الأمة وشخصيتها، وذلك حين يسلب الفتنة الشّعـور بالإسـتقرار والأمـان، فيحملها على اتخاذ موقف الدفاع عن نفسها والتّخلّي عن بعض مناهجها التّخريبية، ويحملها على أن ترتد ولو قليلاً إلى الصواب.

أو تنشأ هذه المقاومة من أزمات داخل الفتنة نفسها، تولّد فتناً تزعج أهل السلطـان القديم، وتأتي إلى سدة السلطان بقوم آخرين، ويكون بين أولئك وهؤلاء فرج لأهل الإيمان، ونهضة لأهل الحقّ في غفلة أهل السلطان.

قال عليه السلام:

«حتّى يظُن الظان أن الدنيا معقُولة على بني أُميةَ(١)، تمنحهم درها(٢)، وتُوردهم صفوها، ولا يرفع عن هذه الأُمةِ سوطُها ولا سيفُها، وكذب الظان لذلك، بل هـي مجة(٣) من لذيذ العيش يتطعمونها برهةً، ثُم يلفظُونها جملةً»(٤).

وقال عليه السلام في نص آخر يخاطب بني أمية:

«فما احلولت لكُم الدنيا في لذتها، ولا تمكنتُم من رضاع أخلافِها(٥) إلا مِن بعدِ ما صادفتُموها جائلاً خِطامها(٦)، قِلقاً وضينُها(٧)، قد صار حرامها عِند أقوامٍ بِمنزلةِ السدر المخضودِ(٨)، وحلالُها بعيداً غير موجودٍ، وصادفتُموها واللّه، ظلاً ممدوداً إلى أجلٍ معدودٍ.

---

(١) معقولة..: مقصورة عليهم، دائمة لهم، من عقل النّاقة إذا حبسها بالعقال في مكان بعينه.
(٢) الدّر: اللّبن، يعني خيرات الدّنيا والذّاتها.
(٣) مجّة: مصدر مرة، من مجّ الشّراب من فيه، يعني أنّها لا تدوم لهم كما يتوهّم النّاس وإنّما يمجّونها ويلفظونها رغماً عنهم.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٨٧.
(٥) الأخلاف جمع خلف: حملة ضرع النّاقة.
(٦) الخطام: ما يوضع في أنف البعير ليقاد به، يعني أنّ تخاذل أهل الحقّ عن نصرة الحق مكن لأهل الباطل من الإنتصار.
(٧) الوضين: حزام عريض يشدّ به الرحل على النّاقة، وهو كناية عن تخاذل أهل الحقّ الّذي مكن لأهل الباطل من النّصر.
(٨) السّدر: شجر النّبق، والمخضود: المقطوع شوكه. يعني أنّكم انتصرتم بأقوام يستحلّون حرام اللّه، ولا يتورعون من شيء.

فالأرض لكُم شاغِرة(١)، وأيديكم فيها مبسوطة وأيـدي القـادةِ عنكُـم مكفُوفـة، وسيوفُكُم عليهم مسلطة، وسيوفُهم عنكُم مقبوضة. ألا وإن لِكُل دمٍ ثائراً، ولِكُل حق طالِباً. وإن الثائر في دمائنا كالحاكِمِ في حق نفسِهِ، وهو اللّه الذي لا يعجـزه مـن طلب، ولا يفُوتُه من هرب. فأُقسم باللهِ يا بني أُمية: عما قليلٍ لتعرفُنها فـي أيـدي غيرِكُم، وفي دار عدوكُم...»(٢).

وقال عليه السلام:

«.. فأُقسِم ثُم أُقسِم لتنخمنها أُميةُ من بعدِي كما تُلفظُ النخامةُ(٣)، ثُم لا تـذُوقُها ولا تطعم بِطعمِها أبداً ما كر الجديدان(٤)»(٥).

*

وهكذا يرى الإمام ببصيرته الّتي تضيء آفاق المستقبل الملفّح في ظلمات الزمـان إلا في حركة التاريخ الهادرة، والقوى السياسية الّتي يحبل بها المجتمع في الحاضر وسيادها في الآتي من الأيام، لتحرم الفتنة من لذّات انتصارها، وتتراجع إلى مواقع الدفاع عن نفسها، وتبدل القوى الحاكمة بقوى جديدة، عادلة أو ظالمة.

---

(١) شاغرة: خالية، يعني لم يقاومكم أحد.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٠٥.
(٣) نخم: أخرج النّخامة من صدره، وهي المواد المخاطية، كنّى بذلك عن سلطان بني أميّة.
(٤) الجديدان: اللّيل والنّهار. يعني أنّهم لا يعودون إلى السّلطة أبداً.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥٨.

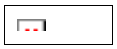

٥ ـ الثّورة

الفتنة تنمو، ويتسع سلطانها، ويزيد شيئاً فشيئاً عدد الساخطين عليهـا: مـن أبنائها الذين نبذتهم بعد أن استغنت عنه، ومن الصفوة الذين قامـت فـي أساسـها ضدهم، ومن أولئك الذين لم يكن يعنيهم الإمر في شيء، ولكنهم اكتشفـوا - بعـد انتصار الفتنة التي لم يحاربوها أول الإمر - أنهم قد غدوا من ضحاياها ... هؤلاء جميعاً الّذين تجملهم كلمة أمير المؤمنين في تصويره لمعاناة الناس من الفتنة بقوله:

« ... وحتى يقوم الباكِيان يبكِيان: باك يبكي لِدِينه، وباك يبكِي لِدنياه »(١).

ويرى هؤلاء جميعاً أن النظام ، نظام الفتنة، ظالم. وكل فريق يرى ظلم هذا النظام من منظوره الخاص:

بعضهم يرى ظلم النطام من منظوره النفعي الخاص ، أو الفئوي ، أو القبلي، دون أن يبالي بانتهاك الثورة لحقوق أشخاص آخرين أو فئات أخرى ، ودون أن يبالـي بتجاوز النظام للشريعة وتعطيل دور الأمة الرسالي في العالم ، وتحويلها إلى فئات محتربة متخاصمة فقدت وحدتها الداخلية .

وبعضهم الآخر يرى ظلم النّظام من منظور رسالي وشرعي يتجـاوز مصالحـه الشّخصية ومصالح فئته وقبيلته.

كلّ الفئات الساخطة على النّظام ترى ظلم هذا النّظام... هذا الظّلم الّذي هو

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٨.

حصيلة التّعارض بين القانون كما يراه كلّ فريق من منظوره الخاص وبين سياسة الدولة.

وتتأهب كلّ فئة - بوسائلها الخاصة - للعمل من أجل تصحيح الوضع القائم برفع التعارض بين الواقع السياسي للدولة وبين القانون، بإرغام الدولة على أن تعود في

سياستها إلى القانون، أو بتغيير الفئة الحاكمة نفسها.

والوسيلة إلى إنجاز عملية التّصحيح هذه هي الثّورة.

إذن، عملية الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة وممارساته قـد تكـون ثـورة عادلة، وقد تكون أزمة في داخل الفتنة نفسها. نعني: فتنة جديدة تولّد مـن فشـل الفتنة الحاكمة في إرضاء قوى سياسية في المجتمع تحمل نفس المفاهيم الّتي تحملها الفتنة الحاكمة(١).

إن الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة له فائدة إيجابية كبرى وهامة سواء أكان القائمون بالإحتجاج عادلين أو مفتونين.

هذه الفائدة هي إدخال الإضطرابات والقلق على هذا النّظام وحرمانه مـن فـرص الإستقرار والشّعور بالأمن الّتي تتيح له المضي في تزوير الشّريعة وإفساد القيـم. وتتيح لقوى الخير والحقّ الصامدة في الأمة أن تتنفّس قليلاً، وتمارس دورها فـي توعية الأمة بحرية نسبية لم تكن لتتاح لها لـو أن نظـام الفتنـة نعـم بـالسلام والإستقرار.

*

وقد كان موقف الإمام إيجابياً من حركات الإحتجاج على نظام الفتنة الّذي سـيقوم من بعده، لأنه إذا لم يكن من المتاح - نظراً لما تقضـي بـه حركـة التـاريخ - انتصار الشّرعية الكاملة في المدى المنظور، فان من الخير ألا تتاح لنظام الفتنـة فرصة للتمكن والإستقرار، ومن الخير أن يبقى نظام الفتنة فـي أجـواء الخـوف والحذر، وحالة الدفاع.

---

(١) نحن نعبّر بمصطلح (ثورة) في التاريخ الإسلامي عن العمل السّياسي الّذي يتمتع بالشّرعية، وما عدا ذلك لا نسمّيه ثورة، وإنّما نسمّيه تمرداً، أو خروجاً، أو فتنة.
وإنّما جعلنا عنوان هذا الفصل (الثورة) - مع أنّ البحث فيه يشمل الإحتجاج بالعنف بجميع ألوانه (الشّرعيّة وغير الشّرعيّة) لغرض بياني فقط. هو إيثار بساطة العنوان على تعقيده.

ومن هنا كان توجيهه بشأن الخوارج الّذين تمظهرت فيهم الفتنة بمظهـر الرفـض المطلق للأنظمة القائمة، ومن ثم فهم مؤهلون لأن يشكلوا قوة مزعجة لنظام الفتنة

المنتصر.

لقد نهى الإمام عن قتال الخوارج من بعده، مع إنّه، هو، قاتلهم في خلافته، - لأنّهم - حين قاتلهم وقتلهم في النّهروان بعد أن رفضوا كلّ عروض السـلام، وبعـد أن رفضوا التّخلّي عن مواقفهم - كانوا يمثّلون قوة هادمة لنظام عادل، أما في نظـام الفتنة فإنّهم يمثّلون قوة شالّة وشاغلة لهذا النّظام الجائر المنحرف عن أن يمـارس طغيانه المادي والسياسي، وينفذ خطط التّحريف العقيدي والشّرعـي. قـال عليـه السلام:

«لا تُقاتِلُوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطـأه كمـن طلـب الباطِـل فأصابه»(١).

وقد كان عليه السلام يرى الثّورة آتية.

إنّه لا يصف هذه الثّورة بأنّها عادلة مستقيمة، أو ظالمة مفتونة، وإنّمـا يـرى أن نظام الفتنة المنتصر لا يتمتّع طويلاً بانتصاره واستقراره، بل سـتسلب منـه لـذّة النّصر وحرية الحركة الّتي يتيحها النّصر والإسـتقرار السياسـي والإجتمـاعي، ثورات دامية تتوالى فتقضي في النّهاية على فتنة بني أمية، وتزيل ملكهم.

قال، وهو يحدث جمهوره عن الفتنة وانتصارها، والمعاناة من ويلاتها وشرورها:

«... ثمّ يفرجها اللّه عنكُم كتفريج الأديم(٢)، يمن يسومهم خسفـاً(٣)، ويسوقهـم عنفاً، ويسقِيهم بكأس مصبرة(٤)، لا يعطيهم إلا السيف، ولا يحلِسهم إلا الخوف(٥) فعِند ذلك تود قُريش - بالدنيا وما فيها - لو يرونني مقاماً واحِداً، ولو قدر جـزر جزورٍ، لأقبل منهم ما أطلُب اليوم بعضه فلا يعطُونيه»(٦).

---

(١) نهج البلاغة، رقم النّصّ - ٦١.
(٢) الأديم الجلد، وتفريجه سلخه: يعني أنّ اللّه يسلخ سلطان بني أميّة عن الأُمّة مع شدّة رسوخه ولصوقه.
(٣) الخسف: الذّل. يعني أنّ الثّورة الآتية تعاملهم بالإذلال.
(٤) مصبّرة مملوءة إلى أصبارها بمعنى حافتها، يعني لا يرحمهم ولا يخفف عنهم.
(٥) حلس البعير: كساء يوضع على ظهره، يعني أنّ الثّورة الآتية تلبس بني أُمية الخوف.
(٦) نهج البلاغة - رقم النّصّ: ٩٣.

والإمام يرى أن من الهموم الكبرى لنظام الفتنة المنتصر تشتيت القوى السياسـية

والعقيدية المناهضة له، سواء أكانت هذه القوة أو تلك قد حافظت على نقائهـا الإسلامي أو تلوثت بغبار الفتنة بشكل أو بآخر.

ولكنّه يرى أيضاً أن محاولات نظام الفتنة لتشتيت القوى المضادة له لن تستمر في النّجاح، فان حركة التاريخ تعمل على تجميع هذه القوى من جديـد وفقـاً لصيـغ سياسية جديدة، ويكون ذلك إيذاناً بنهاية الإستقرار لنظام الفتنة الأموي.

قال عليه السلام:

«... وايم اللّه لو فرقُوكُم تحتَ كُل كوكبٍ، لجمعكُم اللّه لِشر يومٍ لهم»(١).

وقال عليه السلام:

«افترقُوا بعد ٱلفتهم، وتشتتُوا عن أصلِهم، فمنهم آخِذ بِغُصنِ أينما مال مـال معـه على أن اللّه تعالى سيجمعهم لِشر يومٍ لبني ٱُمية، كما تجتمع قـزع الخريـفِ(٢)، يؤلفُ اللّه بينهم، ثُم يجمعهم ركاماً كركامِ السحابِ(٣)، ثُم يفتح لهم أبواباً يسيلُـون من مستشارِهم كسيل الجنتين، حيثُ لم تسلم عليهِ قارة، ولم تثبت عليهِ أكمـة(٤)، ولم يرد سننه رص طودٍ ولا حداب أرض(٥)، يزعزعهم اللّه في بطُون أوديتهِ(٦) ثُم يسلُكهم ينابيع في الأرض، يأخُذُ بِهم من قومٍ حقُوقَ قومٍ، ويمكن لقومٍ في ديـار قومٍ وايم اللّه ليذُوبن ما في أيديهم بعد العلُو والتمكين كما تذُوب الألية على النار»(٧).

*

---

(١) نهج البلاغة - رقم النّصّ: ١٠٦.
(٢) القزع: القطع المتفرقة من السّحاب.
(٣) ركام السّحاب: السّحاب المتراكم. والمستشار مكان تجمعهم وانطلاقهم ثائرين، وسيل الجنتين السّيل الّذي دمّر اللّه بـه قوم سبأ وحضارتهم عندما طغوا وبطروا.
(٤) القارة: ما اطمأنّ من الأرض. والأكمة: ما ارتفع من الأرض ، يعني أنّ الكارثة ستكون شاملة عليهم لا يفلت منها أحد منهم ولا مؤسّسة من مؤسّسات دولتهم.
(٥) السّنن: الجري، والطّود: الجبل العظيم، والحداب: المرتفعات. والمراد هنا هو المراد في رقم(٣).
(٦) يزعزعهم: يفرقهم في بطون الأودية حيث يختفون، كناية عن أماكن اختفائهم، ثم يجمعهم.
(٧) نهج البلاغة - رقم النّصّ: ١٦٦.

ومن أروع رؤاه لحركة التاريخ في المستقبل رؤيته لحركة الخـوارج التّمرديـة،

وكيف أنّها ستنمو وتتشعب على رغم ما يبدو في الحاضر من مظاهر اندثارها وانقطاع أصلها، وذلك أنّه لما قتل الخوارج قيل له: يا أمير المؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال:

«كلا واللّه. إنهم نُطف في أصلابِ الرجال وقراراتِ النساءِ(١) كُلما نجم منهم قرن قطِع(٢) حتى يكُون آخِرهم لُصوصاً سلابين»(٣).

*

وهكذا تأتي الثّورة في أعقاب انتصار الفتنة فتحول بينه وبين الإستقرار، وتحول بين أدواته وبين أن تمكن لمفاهيمها في الأمة، وتتيح بذلك فرصاً لقوى الخير الباقية أن تنعم بشيء من الأمان، وأن تقدر على شيء من الحركة يتيح لها إبقاء النّور الصافي متألقاً في ظلمات الفتنة، في عقول وقلوب كثيرةٍ، بانتظار الأمل الكبير، والنّصر النّهائي الكبير.

---

(١) قرارات النّساء: أرحام النّساء.
(٢) نجم: ظهر. قرن: رئيس أو جماعة.
(٣) نهج البلاغة - رقم النّص: ٦٠.

٦ ـ الأمل

الإنسان يعيش في الحاضر مشدوداً بين وترين: الماضي والمستقبل، فهـو لا ينفي يحمل الماضي في وعيهِ، وفي ذاكرته، وفي تركيب جسده، مثقـلاً بأحزانـه وأفراحه، ومخاوفه وآماله، مندفعاً بها نحو المستقبل، يضيء عينيه نور الأمل الّذي يغمر قلبه بالحياة الأفضل. ولكنّه أمل معذب بالحيرة، والقلـق، والمخـاوف مـن خيبات الأمل.

وهذه الحقيقة بارزة في تكوين وحياة الإنسان الفرد بوضوح، وهي لا تقلّ وضوحاً في حياة الأمم والشّعوب والجماعات.

وقد وقف الإسلام في تعليمه التّربوي الإيماني للأفراد في وجه الميل إلى الإغراق في الأمل، لأنه حين يشتد ويغلب على مزاج الإنسان يجعله غير واقعي، ويحبسـه في داخل ذاته، وينمي فيه الشّعور ب«الأنا» على نحو لا يعود الآخرون موضوعاً لاهتمامه وعنايته أو يجعله قليل الإهتمام بهم، وهذا أمر مرفوض في دين يجعـل الإهتمام الشّخصي بالآخرين أحد المقومات الأساسية للشّخصية الإنسانية السليمـة، ولأن الاغراق في الأمل يحول بين الإنسان وبين كثير من فرص كثـيرة للتّكامـل الروحي والأخلاقي.

والنّصوص القرآنية في هذا الشّأن كثيرة، كذلك النّصوص النّبويـة الـواردة فـي السنّة. وقد حفلت مواعظ الإمام علي في نهج البلاغة بالتّحذير من الإسترسال مـع الآمال(١).

---

(١) راجع دراسة موسّعة ومعمِقة عن هذا الموضوع في فصل (الوعظ) من كتابنا، دراسات في نهج البلاغة - الطّبعة الثّالثة.

وهذا لا يعني - بطبيعة الحال - أن تأميل الإنسان في مستقبله - باعتدال وواقعية - ممارسة غير أخلاقية في الإسلام، كيف وقد حذّر اللّه تعالى في القرآن الكريـم

من اليأس ونهى عنه في آيات تذكر برحمة اللّه وروح اللّه، ومن ذلك تعليـم يعقوب سلام اللّه عليه لبنيه حين أمرهم بالبحث عن يوسف واخيه، وذلك كما ورد في قوله تعالى:

«يا بَنِي اذهبوا فتحسسوا مِن يوسف وأخِيه ولا تيأسوا مِن روحِ اللّه. إنه لا ييـأس مِن روحِ اللّه إلا القوم الكافِرون»(١).

فإن يعقوب طبق مبدأ مشروعية الأمل العام المطلق على حالة فردية هـي حالتـه وحالة بنيه.

وإذن، فالأمل، في نطاق الواقع، حقيقة كيانية في الإنسان، قد يكون فقدانها ظاهرة مرضية نفسية وليس علامة عافية.

هذا على الصعيد الفردي.

وأما على الصعيد الجماعي في الأمم والشّعوب والجماعات فان الأمل عامل هـام جداً وأساسي في تنشيط حركة التّاريخ وتسريعها، وجعلها تتغلب بيسر علـى مـا يعترضها من صعوبات ومعوقات.

والأمل الموضوعي القائم على اعتبارات عمليـة تنبـع مـن الجهـد الإنسـاني، واعتبارات عقيدية وروحية... هذا الأمل يشغل حيزاً هاماً وأساسياً في تربية اللّـه تعالى للبشرية السائرة في حياتها على خط الإيمان السليم.

وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات محكمات تتضمن وعد اللّـه تعـالى بالنّصـر والعزة لأهل الإيمان وقادتهم من الأنبياء والتّابعين لهم بإحسان.

قال اللّه تعالى:

«إنا لننصر رسلنا والذين آمنُوا في الحياةِ الدنيا ويوم يقُوم الأشهاد»(٢).

---

(١) سورة يوسف (مكّيّة - ١٢) الآية: ٨٧.
(٢) سورة المؤمن (مكّيّة - ٤٠) الآية: ٥١.

وقال تعالى:

«ولقد كتبنا في الزبور من بعدِ الذكرِ أن الأرض يرثُها عبادي الصالِحون»(١).

وقال تعالى:

«إن الأرض للّه يورثُها من يشاء مِن عبادِهِ والعاقِبةُ للمتقين»(٢).

وقد وجه اللّه تعالى في القرآن الكريم رسوله محمداً (ص) والمسلمين إلى أن الأمل بالنّصر والحياة الأفضل يجب أن يبقى حياً نابضاً دافعاً إلى العمل حتّى في أحلـك ساعات الخذلان والهزيمة وانعدام النّاصر... لقد كانت الآمال بالنّصر تتحقّق فـي النّهاية على أروع صورها حين يخالج اليأس قلوب أهل الإيمـان، وحيـن يصـل الرسل الكرام إلى حافة اليأس:

«وما أرسلنَا مِن قبلِك إلا رجالاً نُوحي إليهم مِن أهل القُرى أفلم يسيروا في الأرض فينظُروا كيف كان عاقِبةُ الذين من قبلِهم. ولدار الآخِرةِ خير للـذين اتقـوا، أفـلا تعقِلُون. حتى إذا استيئس الرسلُ، وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا، فنُجي مـن نشاء، ولا يرد بأسنا عن القومِ المجرمين. لقد كان في قصصِهـم عِـبرة لأُولـي الألبابِ، ما كان حدِيثاً يفترى، ولكِن تصدِيق الذي بين يديه. وتفصيلَ كُل شـيءٍ، وهدى ورحمةً لِقومٍ يؤمِنُون»(٣).

*

إن الأمل الجماعي بمستقبل أكثر إشراقاً وأقلّ عذاباً، أو مستقبل مترع بالفرح خال من المنغصات... إن هذا الأمل يستند إلى «وعد إلهي»، فهو، إذن، ليس مغـامرة في المستقبل، وإنما هو سير نحو المستقبل على بصيرة.

وهو أمل يرفض الواقع التّجريبي الحافل بالمعوقات نحو مستقبل مثـالي مشـروط «بالعمل» المخلص في سبيل اللّه، وفي سبيل اللّه بناء الحيـاة، وعمـارة الأرض، وإصلاح

---

(١) سورة الأنبياء (مكّيّة - ٢١) الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الأعراف (مكّيّة - ٧) الآية: ١٢٨.
(٣) سورة يوسف (مكّيّة - ١٢) الآيات: ١٠٩ - ١١١.

المجتمع. كما أن هذا المستقبل مشروط «بالصبر» على الأذى فـي جنـب اللّـه،

و«الصدق» في تناول الحياة والتعامل معها ومع المجتمع و«الرضا» بقضـاء اللّه تعالى.

والسنّة حافلة بالنّصوص الّتي تغرس في قلب الإنسان روح الأمل، وتمـلأ وعيـه ببشائر المستقبل الأفضل، استناداً إلى وعد اللّه تعالى.

*

والتّأمل العميق الواعي في نصوص الكتاب الكريم والسنّة الشّريفة الّتي تفصح عن العلاقة بين اللّه والإنسان، وتكشف عن طبيعة هذه العلاقة... كذلك التّأمل في الفقه المبني على هذين الأصلين... إن هذا التأمل يكشف عن أن العلاقة بين اللّه والناس مبنية على ثلاث حقائق ربانية يقوم عليها وجود المجتمـع البشـري، وديمومتـه، ونموه وتقدمه:

١ - الحقيقة الأولى هي الإنعام المطلق غير المشروط بشيء على صعيد الشّروط المادية للحياة بما يكفل لها الديمومة والنمو التّصاعدي نحو الأفضل، فقد خلق اللّـه الإنسان، وزوده بالمواهب العقلية والنّفسية والروحية، الّتي تتيح له أن يتعامل مـع الطّبيعة المسخّرة له، وتمكنه من اكتشاف خيراتها وكنوزهـا، ومعرفـة قوانينهـا وتوجيه هذه الإكتشافات والمعارف لخدمة نفسه ونوعه.

٢ - الحقيقة الثّانية هي الرحمة الّتي «كتبها اللّه على نفسِهِ»(١) والّتي «وسعت كلّ شيء»(٢)، وإقالة العثرات - على صعيد الأمم والجماعات والمجتمعات، والأفراد -، والتّجاوز عن الخطايا والسيئات، ومنع الفرص المتجددة لتصحيـح السلـوك، وتقويم

---

(١) قال تعالى: «قُل لِمن ما في السماواتِ والأرضِ ؟ قُل للّه، كتب علـى نفسِـهِ الرحمَـة» سـورة الأنعـام (مكّيّـة - ٦) الآيـة ١٢ وقال تعالى:
«وإذا جاءك الّذينَ يُؤمِنُون بآياتِنا فقُل سلام عليكُم كتب ربُّكُم على نفسِهِ الرَّحمةَ، أنهُ من عمِل مِنكُم سُوءاً بِجهالةٍ، ثُمَّ تاب مـن بعدِهِ وأصلح فأنَّهُ غفُورٌ رحِيم» سورة الأنعام (مكّيّة - ٦) الآية: ٥٤.

(٢) قال تعالى «... ذُو رحمةٍ واسِعةٍ، ولا يُردُّ بأسُهُ عن القـوم المُجـرمين» سـورة الأنعـام (مكّيّـة - ٦) الآيـة: ١٤٧. وقـال تعـالى: «قال عذابي أُصيبُ به من أشاءُ ورحمتي وسعت كُلَّ شيءٍ، فسأكتُبُها لِلَّذِينَ يتَّقُون، ويُؤتُون الزَّكاة والَّـذِين هُـم بآياتِنـا يُؤمِنُـون» سورة الأعراف (مكّيّة - ٧) الآية: ١٥٦. وقال تعالى «ربَّنا وسِعت كُلَّ شيءٍ رحمةً وعِلماً، فاغفر للَّذِين تابُوا واتبّعوا سـبيلك وقِهِـم عذاب الجحيم» سورة المؤمن (مكّيّة - ٤٠) الآية: ٧.

الإعوجاج، والتّوبة والإنابة إلى اللّه تعالى والعمل بقوانينه وشرائعه.

وهذه الحقيقة نابعة من معادلة تقابل بين حقيقتين كونيتين:

أ - خيرية اللّه الشّاملة المطلقة.

ب - الحقيقة الموضوعية الثّابتة في الفكر الإسلامي، وهي أن الإنسان خُلِق ضعيفاً (١).

وما يخالف هذه الحقيقة من الآلام والكوارث فهو على قسمين:

الاول - ناشئ عن عمل الطّبيعة وقوانينها، وهي قوانين تعمل، في غرضها الأقصى، لخير الجنس البشري بصورة شاملة وغير مقيدة بزمان أو رقعة جغرافية، وهذا ما يجعلها قوانين عادلة وإن أصابت بالآلام بعضاً من البشر في زمان بعينه أو مكان بعينه.

وهذا بالنّسبة إلى الكوارث الطّبيعية الّتي تحصل بغير تدخل من الإنسان أو تقصير منه. أما ما يحدث في الطّبيعة نتيجة لعمل الإنسان نفسه أو سلبيته، أو عدم الالتزام بالقوانين (في عصرنا الحاضر: تلويث البيئة، مثلاً، أو روح الإستغلال والعدوان في المجتمعات الصناعية ضد العالم الثّالث، مثلاً)... هذا النّوع من الكوارث يدخل في القسم الثّاني التّالي.

الثّاني - ناشئ عن سوء اختيار الإنسان، واستعجاله الخير قبل توفّر شروطه ونضجها، ومن عدوان بعضه على بعض.

٣ - الحقيقة الثّالثة هي البشارة من اللّه تعالى بأن أمور الحياة والمجتمع تصير إلى أفضل وأحسن مما عليه في الحاضر. ولكن هذه البشارة لا تتحقّق بطريقة إعجازية محضة. إن تحقيق البشارة يتم وفاء بالوعد الإلهي، ومن ثم ففيها عنصر غيبي غير تجريبي، ولكن تحقيقها مشروط بالعمل البشري:

«إن هذا القُرآن يهدي للّتي هي أقوم ويبشر المؤمِنين الّذين يعملُون الصالِحاتِ أن لهم أجراً كبيراً»(٢).

---

(١) قال اللّه تعالى: «يُرِيدُ اللّه أن يُخفِّف عنكُم، وخُلِق الإنسانُ ضعِيفاً،» سورة النّساء (مدنيّة - ٤) الآية:٢٨.

(٢) سورة الإسراء (مكّيّة - ١٧) الآية: ٩.

«والذِين اجتنبوا الطاغُوت أن يعبدوها وأنابوا إلى اللّه لهم البشرى، فبشـر عِبـادِ الذين يستمِعون القولَ فيتبِعون أحسنه، أُولئك الذين هداهم اللّه، وأولئك هـم أُولُـو الألبابِ»(١).

«... وبشرِ المؤمِنين بأن لهم من اللّه فضلاً كبيراً»(٢).

*

من هذا المنطلق الثّابت في الفكر الإسلامي، ومن البشائر المحـددة فـي الكتـاب الكريم والسنة النّبوية بفرج شامل آت في «النهاية» يملأ عدلاً بعد ما ملئت ظُلمـاً وجوراً»... من هذا المنطلق، ومن هذه البشائر كان أمير المؤمنين علي بـن أبـي طالب عليه السلام يرى نور الأمل في المستقبل، وكان يبشّر بأن فرجاً آتياًلا ريب فيه:

إن حركة التاريخ تقضي به، وإن وعد اللّه يقضي به، واللّه لا يخلف الميعاد.

وقد كانت رؤية الإمام لحركة التاريخ في المستقبل لا تقتصر على رؤية النّكبـات والكوارث - كما توحي بذلك كثرة النّصوص الحاكية عن ذلك في نهج البلاغة - وإنّما تشمل البشائر أيضاً، وقد تقدم في الحديث عن (المعاناة) وعن (الثورة) بعض النّصوص الدالّة على ذلك.

وكانت رؤية الإمام دقيقة، محددة، مضيئة، واضحة المعالم، في نطـاق الخطـوط الكبرى والتّيارت الأساسية لحركة التاريخ، وإن لم تشتمل على التّفاصيل، من ذلك هذا الشاهد على رؤيته لحركة الثّورة العادلة الّتي لا تنطفئ مهما تكالبـت عليهـا الرياح الهوج، فقد قال له بعض أصحابه، لما أظفره اللّه بأصحاب الجمل: «وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك اللّه به على أعدائك» فقال لـه الإمـام (ع):

«أهوى أخِيك معنا(٣) ؟ فقال: نعم. قال: فقد شهدنا في عسكِرنا هـذا أقـوام فـي أصلاب الرجال وأرحامِ النساء سيرعفُ بهم الزمان(٤) ويقوى بهم الإيمان»(٥).

(١) سورة الزّمر (مكّيّة - ٣٩) الآية: ١٧ - ١٨.
(٢) سورة الأحزاب (مدنيّة - ٣٣) الآية: ٤٧.
(٣) الهوى: الميل والرّغبة، يعني هنا الموقف السّياسي.
(٤) يرعف بهم .. يوجدون في المجتمع من غير أن يتوقّع وجودهم لاختلافهم النّوعي الأساسي عن الأخلاقيّة والذّهنيّة السّائدة في المجتمع، فيفاجأ المجتمع بوجودهم. كما يفاجئ الرّعاف صاحبه.
(٥) نهج البلاغة - رقم النّص: ١٢.

هذا الأمل الكبير الآتي الّذي يبشّر به الإمام عليه السلام يتمثّل في قيام ثورة عالمية تصحح وضع عالم الإسلام، ومن ثم وضع العالم كلّه، يقودها رجل من أهل البيت هو الإمام المهدي. وقد وردت في نهج البلاغة نصوص قليلة نسبياً تحدد بعض ملامح هذا الأمل، فمن ذلك قوله عليه السلام:

«... حتى يطلِع اللّه لكُم من يجمعكُم، ويضم نشركُم(١)»(٢)

والعقيدة بالمهدي عقيدة إسلامية ثابتة أجمع عليها المسلمون بأسرهم، ودلّ عليها القرآن الكريم في جملة آيات، والسنّة الشّريفة في مئات الأحاديث المتواترة عن رسول اللّه (ص) وأئمة أهل البيت. قال ابن أبي الحديد في التّعليق على النّص الآنف: «ثم يطلع اللّه لهم من يجمعهم ويضمهم، يعني من أهل البيت عليه السلام. وهذا إشارة إلى المهدي الّذي يظهر في آخر الوقت. وعند أصحابنا إنّه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإمامية إنّه موجود الآن»(٣).

وقال ابن أبي الحديد في التّعليق على نص آخر مماثل للنّص الآنف: «فإن قيل: ومن هذا الرجل الموعود الّذي قال عليه السلام عنه (بأبي ابن خيرة الإماء) ؟ قيل: أما الإمامية فيزعمون أنّه إمامهم الثّاني عشر، وأنه ابن أمة اسمها نرجس، وأما أصحابنا فيزعمون أنّه فاطمي يولد في مستقبل الزمان لأم ولد(٤) وليس بموجود الآن»(٥).

ومن النّصوص الّتي اشتمل عليها نهج البلاغة في هذا الشأن قول الإمام:

«ألا وفي غدٍ - وسيأتي غد بما لا تعرفُون - يأخُذ الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالِها، وتُخرج له الأرض أفاليذ كبدِها(٦)، وتُلقي إليه سِلماً مقاليدها، فيريكُم كيف عدلُ

(١) يضم نشركم: يجمع شتاتكم ويوحد مواقفكم في حركة تاريخيّة واحدة.
(٢) نهج البلاغة - رقم النّص: ١٠٠.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ٧ / ٩٤.
(٤) أمّ ولد: كناية عن الأمة المملوكة.
(٥) المصدر السابق: ٧ / ٥٩.
(٦) الفلذة: القطعة. والكبد في المعتقد الطّبّي القديم من أشرف أعضاء الإنسان وأكثرها أهمّيّة في بقائه وصحته، فهي تخرج الأرض: أفضل كنوزها وثرواتها.

السيرةِ، ويحيِي ميتَ الكِتابِ والسنةِ»(١).

هذا الأمل المضيء في الظلمات ليس أملاً قريباً إذا نظرنا إليه بمنظار آمال الأفراد - كل واحد بخصوصه -، فقد يمضي الموت بالأفراد دون أن تكتحل عيونهم بفجر هذا الأمل... إنّه بالنّسبة إليهم - كأفراد - بعيد... بعيد. كذلك هو أمل بعيد بالنّسبة إلى كلّ مجتمع بمفرده وخصوصه، فقد تمضي القرون على مجتمع دون أن يحقّق في نظامه، ومؤسساته هذا الأمل العظيم... ولكن هذا الأمل على مستوى النّوع البشري كلّه أمل قريب، لأن الأحداث الّتي تغير مسار الجنس البشري كلّه لا تقاس بأعمار الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات ولا بالحركة التاريخية في هذا النّطاق أو ذاك أو ذياك، وإنّما تقاس بما تناسب مع حجم النّوع الإنساني كلّه، ومع حركة التّاريخ العالمي كلّها... إن ألف سنة، مثلاً، في عمر فرد زمن كبير طويل... كذلك الحال بالنّسبة إلى عمر حركة تاريخية في مجتمع من المجتمعات، ولكن ألف سنة في عمر البشرية كلّها زمن قصير بالنّسبة إلى فترات التّحول التّاريخية الكبرى الّتي أدخلت تغييراً أساسياً على المسار التّاريخي للجنس البشري كلّه، فنقلته من مستوى معين إلى مستوى أعلى منه مرتبة ونوعية. إن فترات التّحول التّاريخية الكبرى - كما نعلم - تستغرق ألوف السنين، أو - بالأحرى - عشرات الألوف من السنين... إنّها حركة التّاريخ الكبرى(٢).

وفي انتظار أن تنجز حركة التّاريخ الكبرى عملها في نقل الإنسانية إلى مستوى أعلى لم تفلح في بلوغه من قبل.. في انتظار ذلك تستمر حركة التاريخ في دوائرها الصغرى في العمل على تغيير حال البشر: أفراداً، وجماعات، ومجتمعات، ومجموعات إقليمية.

(١) نهج البلاغة - رقم النّصّ: ١٣٨.
(٢) لعلّ ابن ابي الحديد قد طافت بذهنه هذه الفكرة حين قال معلّقاً على احد نصوص نهج البلاغة بهذا الشّأن: «ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إنّ تكامل صنائع اللّه عندكم، ورؤية ما تأملونه أمر قد قرب وقته، وكأنّكم بعد قد حضر وكان، وهذا (على نمط المواعيد الإلهية بقيام السّاعة، فإن الكتب المنزلة كلّها صرّحت بقربها، وإن كانت بعيدة عنّا، لأنّ البعيد في معلوم اللّه قريب، وقد قال سبحانه (إنّهم يرونهُ بعيداً ونراهُ قريباً)» شرح نهج البلاغة ٧ / ٩٥.

٢٠٥

إن حركة التّاريخ في دوائرها الصغرى تغير الإنسان نحو الأفضل على الصعيد المادي كما يثبت ذلك الواقع التّجريبي، ولكنّها لا تغيره نحو الأفضل دائماً على الصعيد المعنوي والأخلاقي، بل قد تعود به إلى الوراء كما يثبت الواقع التّجريبي أيضاً، وبالنّسبة إلى كثير من مظاهر حضارة عصرنا بشكل خاص.

والمسؤول عن التّخلف المعنوي للبشر ليس القدر، إنّه إرادة البشر أنفسهم، فإن العالم الأخلاقي لدى الفرد والمجتمع ليس عالماً معطى وجاهزاً يأخذه الناس كما يستعملون الوصفات الطّبية أو المعادلات الرياضية، إنما يتم بناؤه بالمعاناة اليومية للناس مع شهواتهم ورغائبهم الشّريرة، ومجاهدتهم لأنفسهم من أجل التغلب عليها.

إن العالم الأخلاقي ليس سهل البناء كالعالم المادي التّجريبي، لأنّه تجاوز الإنسان لنفسه باستمرار نحو إنسانية أغنى وأعلى، ومن هنا فإن العالم الأخلاقي يبني التّعامل مع المستحيل، وكأنّه ممكن، إنّه في التكوين دائماً، لأن الإنسان كلّما بلغ ذروة جديدة في تكامله المعنوي لاحت لعينيه ذروة أسمى وأعلى.

وإذن، فالبشر، بانتظار أن يتحقّق هذا الأمل العظيم، لا يجوز أن يجمدوا وإنّما عليهم أن يتحركوا في أطر دوائر التاريخ الصغرى نحو بلوغ ذرى إنسانية جديدة أعلى مما بلغوه في كفاحهم الدائب نحو مزيد من الكمال والنّور.

وإذن، فالمسلمون، باعتبار أن هذا الأمل العظيم سيتحقّق بإذن اللّه في نطاقهم بما هم جماعة بشرية عقيدية ومن خلال الإسلام نفسه بما هو دينهم،... المسلمون ينتظرون هذا الأمل العظيم قبل غيرهم من الجماعات العقيدية في المجتمع البشري.

وقد ارتكز في أذهان الكثيرين ممن عالجوا موضوع المهدي والمهدوية أن هذا المعتقد... هذا الأمل العظيم الثّابت بمقتضى وعد اللّه في الكتاب والسنّة، والثّابت بمقتضى حركة التاريخ الكبرى... أن هذا المعتقد عامل سلبي في حركة التّقدم والنّمو يعوقها، ويبعث على السكون، ويقعد بالناس عن الحركة والسعي نحو التّكامل المادي والمعنوي في انتظار أمل آتٍ ينقذ البشر بالمعجزة، ينقذ البشر بغير

جهد البشر.

وربما تكون بعض المظاهر في تاريخ عالم الإسلام تعزز هذا الإتهام ولكن الحقيقة هي أن هذا اللون من الإنتظار السلبي المريض دخل على ذهنية الإنسان نتيجة لانتكاس حضاري تسلّل إليه من بعض الثّقافات الأجنبية عن الإنسان، فشلّ قدرتـه على العمل، لأنّه شلّ إرادته وفعاليته وحولّه إلى حياة التّأمل والقناعة والإستسلام.

أما الحقيقة فهي على خلاف ذلك، إن الإنتظار - نتيجة لهذا المعتقد - هو انتظـار إيجابي فعال، هو تهيؤ واستعداد، هو كدح دائم ومستمر يجـب أن يطبـع حركـة تاريخ الإنسان المسلم نحو توفير أفضل الشّروط الّتي تهيئ لهـذا الأمـل العظيـم أحسن ظروف النّجاح والتّحقّق.

لقد رأينا أن حركة التّاريخ في دوائرها الصغرى لا تتوقّف، ونوع هذه الحركـة - تقدمية صاعدة أو رجعية هابطة (على صعيد المعنويات والأخلاق) - يتوقف على إرادة البشر أنفسهم، فهم الّذين يبنون عالمهم الأخلاقي الأمثـل وهـو لا يبـنى إلا بالعمل الإيجابي الّذي يحركه الطموح نحو إنسانية أفضل.

*

سلام اللّه على محمد وآله الطاهرين، وصحبه الّذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين.

وسلام اللّه على أشهر المؤمنين الإمام علي أمير المؤمنين.

والحمد للّه رب العالمين.